

شرح
العقيدة الواسطية

© محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ١٤٢٨ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل الشيخ، محمد بن إبراهيم

شرح العقيدة الواسطية/ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ط ٢

الرياض، ١٤٢٨ هـ

٢٨٠ ص : ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٠ - ٨١٠ - ٥٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١ - العقيدة الإسلامية ٢ - التوحيد ٣ - التوسل أ - العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٢٨/٧٥٧٥

رقم الإيداع : ١٤٢٨/٧٥٧٥

ردمك : ٠ - ٨١٠ - ٥٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٨ هـ

شَرْحُ
العَقِيدَةِ الوَاسِطِيَّةِ

من تقريرات

سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ

رحمه الله ت ١٣٨٩ هـ

مفتي الديار السعودية ورئيس القضاة والشؤون الإسلامية

كتبتها ورتبها

محمد بن عبد الرحمن بن قاسم

رحمه الله ت ١٤٢١ هـ

أخرجها وأعدّها للطبع

ابنه

و. عبد الحسين بن محمد بن قاسم
إمام وخطيب المسجد النبوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

فإن العقيدة الصحيحة هي الأصل الذي يبنى عليه الدين، وهي أشرف العلوم وأجلها قدراً، وكان السلف رحمهم الله يولونها جُلَّ اهتمامهم تعليماً ونشراً، وإيضاحاً وبياناً، سار على هذا النهج القويم علماء أفاض في مختلف العصور والقرون، من هؤلاء سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - رحمه الله - مفتي الديار السعودية في زمانه، ورئيس القضاة والشؤون الإسلامية المتوفى عام ١٣٨٩هـ، فقد كان أمة في علمه وفضله، وفي دروسه وفتاواه، عكف على تدريس العقيدة أكثر من أربعين عاماً، يشرحها كل يوم كما يشرح غيرها من علوم الحديث والفقه والنحو وغيرها، لم يعتره في ذلك كلل، ولم يصبه ملل.

وهبه الله حسن التعليم، وجزالة اللفظ، وقوة المعاني، مع سعة العلم ورجاحة العقل، فتخرّج على يديه علماء أجلاء، من أعلامهم: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، والشيخ عبد الله بن محمد بن حميد، والجد الشيخ عبد الرحمن بن قاسم جامع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية مع ابنه محمد (الوالد) رحمهم الله جميعاً.

وقد كان الوالد محمد - رحمه الله - ، ملازماً للشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - ملازمة تامة ، امتدت اثنتين وثلاثين سنة ، من عام ١٣٥٧هـ ، إلى وفاة سماحته عام ١٣٨٩هـ ، وكان الوالد - رحمه الله - يقيّد ما يسمعه من سماحته ، من فتاوى وشروحات وتقريرات ، ثم جمع فتاواه ورسائله في أربعة عشر مجلداً مع الفهارس ، واعتذر من الاستمرار في التدريس في الجامعة ، لإخراج شروحات الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - للمتون ، فأخرج شرح متن (كشف الشبهات) ، وشرح متن (آداب المشي إلى الصلاة) .

وبين أيدينا شرح متن (العقيدة الواسطية) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، قرأها الوالد على سماحته ثمان مرات ، يقيد شرحه كاملاً في كل مرة من عام ١٣٦٧هـ ، فتكررت كتابته لهذا الشرح ثمان مرات ، يكتبه في حينه بلفظه وحروفه من فيه ، لما وهبه الله من سرعة الكتابة ، فكان يقيد تلك الشروحات ويسجلها في دفاتره ، محافظة على أمانة النقل ، وحرصاً على تقييد الفوائد ، ثم كمل بعضها ببعض ورتبها ، واختار أوضحها وأشملها ، وقد يسوق غير عبارة من شرح الشيخ - رحمه الله - تمييزاً للفائدة ، ويصدرها بقوله : «عبارة أخرى» فتحصل منها شرح وافٍ ، سهل العبارة ، جزل الألفاظ ، غزير العلم ، في بيان معتقد أهل السنّة والجماعة في الأسماء والصفات وغيرها ، ولا يعلم شرح للواسطية منذ زمن شيخ الإسلام - رحمه الله - سبق هذا الشرح .

وللوالد - رحمه الله - تعليقات وضعها في الحاشية صدرها بقوله «قلت» أثبتّها في مواضعها ، ثم أدركته المنية عام ١٤٢١هـ قبل إخراج الكتاب ، ولأهمية متن (العقيدة الواسطية) ولحاجة المسلمين

إلى شرحها، واصلت العمل لإخراج هذا الشرح الفريد بعد وفاة
الوالد - رحمه الله -، سائراً على نهجه، ووضعت له عناوين في
جانب الشرح، ليسهل فهمه، وعزوت الأحاديث الواردة في الشرح
إلى من أخرجها، ووضحت ما قد يشكل فهمه أو ما يحتاج إلى
توضيح، ووضعت ترجمة موجزة للشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه
الله -، وفهرساً مفصلاً للكتاب.

أسأل الله أن ينفع بهذا الشرح كما نفع بمتنه، وأن يجزي علماء
المسلمين أجزل المثوبة، وأن يتغمدهم بمغفرته ورحمته، وأن
يجمعنا بهم في روضات الجنات.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. عبد الحسین بن محمد بن عبد الرحمن بن قاسم

إمام وخطيب المسجد النبوي
والتأني بالمحكمة العامة
بالمدينة النبوية

ترجمة موجزة للشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله^(١)

هو العلامة الجليل الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب من بني تميم.

وُلد في مدينة الرياض عام ١٣١١هـ، وتلقى القرآن وهو ما بين الثامنة والعاشرة من عمره، وفي السادسة عشر من عمره أصيبت عيناه بالرمد فكف بصره.

* شيوخه:

جدّ في طلب العلم وقرأ على عدد من المشايخ منهم:

والده الشيخ إبراهيم، قرأ عليه الفرائض.

والشيخ عبد الله بن راشد، قرأ عليه الفرائض أيضاً.

وعمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، تلقى عليه علم العقائد والحديث.

والشيخ حمد بن فارس، أخذ عنه الفقه والنحو.

(١) هذه الترجمة مقتبسة من ترجمة الوالد له، وهي بتمامها في مقدمة فتاوى ورسائل سماحته.

والشيخ سعد بن حمد بن عتيق، أخذ عنه الفقه والحديث
والمصطلح.

والشيخ محمد بن حمود، قرأ عليه الفقه.

* ذكاهه:

كان رحمه الله حاد الذكاء، سريع الحفظ، قوي الذاكرة،
يحفظ المتن من قراءته عليه من المرة الثالثة، وربما الثانية، وكان
يدل القارئ على مواضع الأبحاث في كتبها، ذكراً رقم الصفحة
أحياناً، وكان يحفظ متوناً عديدة في مختلف العلوم، ويدرك تقدير
الوقت بالساعة لا يكاد يخطيء الحقيقة في بضع دقائق، مع أنه لم
يستعمل الساعة في حياته.

* اشتغاله بالتدريس:

حين توفي عمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف أخذ سماحته
مجلسه، فبدأ بالتدريس في المسجد في مختلف العلوم، ولما توفي
الشيخ حمد بن فارس والشيخ سعد بن عتيق، توسّع في مجالس
التدريس، وعمر أكثر نهاره به، فكان يجلس ثلاث جلسات منتظمة
للتدريس، الأولى: بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس، والثانية:
بعد ارتفاع الشمس مدة تتراوح ما بين ساعتين إلى أربع ساعات،
والثالثة: بعد صلاة العصر، وهناك جلسة رابعة ولكنها ليست مستمرة
وهي بعد صلاة الظهر، وكان رحمه الله ينقطع بعد المغرب لمطالعة
دروس الغد في الكتب التي كانت تدرس بعد الفجر.

وقد استمر يدرّس على هذه الحال إحدى وأربعين سنة.

* عبادته:

كان رحمه الله شديد الخشية من الله، كثير الذكر له سبحانه والاستغفار، وتذرف عيناه دمعاً حين يكون في مناجاة الله، أو يسمع ما يحرك القلوب، يقوم من الليل ما يقرب من الساعة والنصف، لا يترك ذلك لا سفراً ولا حضراً، وكان رحمه الله حافظاً للسانه من الغيبة، وعُرف بذلك منذ حداثة سنّه حتى فارق الحياة، ولم يكن يسمح لأحد أن يتحدث في مجالسه بمثالب الآخرين أو تنقصهم، وكان يكره أن يمدحه أحد أو يثني عليه.

مخلصاً في عمله، لم يكن يوماً طالباً شهرة، ولا باحثاً عن سمعة، لم يُعرف عنه أنه تحدث عن أعماله على جلالتها وكثرتها.

* زهده:

لم يُعرف عنه رحمه الله أنه اشتغل بالبيع أو الشراء، لا بالاستقلال ولا بالمشاركة، بل كان مقتصراً على ما يتقاضاه من عمله، وكان يشغل عدة أعمال ولا يتقاضى إلا ما كان يأخذه قبل إحداث هذه الأعمال، ولم يكن يأخذ انتداباً، ولم يُعرف عنه أنه طلب من المسؤولين شيئاً يخصه.

* صفاته:

كان رحمه الله يتحلى بأخلاق فذة جمّة، أنيساً عند المخالطة، ألوفاً لمعاشريه، لا يتصف بشيء من الغلظة أو الفضاضة، مهيباً في قلوب الناس، شجاعاً قوي الشكيمة، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يتردد في إعلان الحق أيّاً كان المخاطب به، بعيد النظر قوي الاستنباط، كريماً سخياً معروفاً

بالبذل والعطاء، سليم الصدر، لا يحمل ضغينة على من أساء إليه، ولا ينتقم من أحد ناله منه أذى، بل كان ديدنه الصفا والتجاوز، بل المحافظة عليهم والدفاع عنهم أن ينالهم أحد بما يعرف أنه باطل.

* الأعمال التي قام بها:

- ١ - التدريس . واستمر عليه إحدى وأربعين عاماً بلا انقطاع .
- ٢ - الفتوى . وقد كان يفتي أكثر من خمسين عاماً .
- ٣ - رئيس القضاة .
- ٤ - رئيس مجلس القضاء .
- ٥ - رئاسة المعاهد العلمية والكليات .
- ٦ - الإشراف على مدارس البنات .
- ٧ - رئيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة .
- ٨ - رئاسة رابطة العالم الإسلامي .
- ٩ - إمامة جامع حي دخنة بالرياض .
- ١٠ - خطيب جامع الرياض الكبير .

وبعبارة عامة: فقد كان له رحمه الله، الإشراف التام على جميع الشؤون الإسلامية، داخل المملكة وخارجها، مما يتصل بالمملكة وتعنى بتوجيهه.

* وفاته:

نزل به مرض عام ١٣٨٩هـ، ثم اشتد به حتى دخل في غيبوبة تامة انتهت به إلى الوفاة في الرياض في ٢٤/٩/١٣٨٩هـ، وكان

طيلة مرضه يكثر من ذكر الله والاستغفار حتى أخذته الغيبوبة، وقد
صُلي عليه في الرياض، وأمّ المصلين الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن
باز، وحضر الصلاة عليه جمع كثير من المسلمين.
تغمده الله برحمته ونفع بعلمه وأسكنه جنات النعيم.

* آثاره العلمية المطبوعة:

- ١ - فتاواه ورسائله. وقد جمعها الوالد رحمه الله فبلغت أربعة عشر
مجلداً مع الفهارس.
 - ٢ - شرح متن كشف الشبهات.
 - ٣ - شرح متن آداب المشي إلى الصلاة.
 - ٤ - شرح متن العقيدة الواسطية.
- وهذه الشروحات للمتون كان الوالد رحمه الله يكتبها في
الدرس أثناء شرح سماحته لها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبب
افتتاح
المصنف
كتابه
بالبسملة)

ابتدأ المصنف رحمه الله كتابه بالبسملة، اقتداء بالكتاب العزيز، وتأسياً بالنبي ﷺ في مكاتباته ومراسلاته، وعملاً بحديث «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع»^(١)، وفي رواية «أجزم»^(٢)، وفي رواية «أبتر»^(٣) والمعنى: ناقص البركة.

(الحمد لله) الحمد، قال المصنف: هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله.

وقال معناه أيضاً ابن القيم^(٤).

(الذي أرسل رسوله) محمداً ﷺ (بالهدى) هو العلم النافع،

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى ١٢٧/٦ رقم ١٠٣٢٨، وابن ماجه ٦١٠/١ رقم ١٨٩٤، وابن حبان ١٧٣/١ رقم ١، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٠٨/٣ رقم ٥٥٥٩، بلفظ: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع».

(٢) رواه أبو داود ٢٦١/٤ رقم ٤٨٤٠، ولفظه: «كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع».

(٣) رواه الإمام أحمد ٣٥٩/٢ رقم ٨٦٩٧، والنسائي في السنن الكبرى ١٢٨/٦ رقم ١٠٣٣١، بلفظ: «كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله فهو أبتر، أو قال: أقطع».

(٤) قلت: في بدائع الفوائد ٣٢٥/٢ قال: «الحمد: إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه».

ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً به
وتوحيداً، وأشهد أن محمداً عبده

(ودين الحق) هو العمل الصالح، (ليظهره على الدين كله) ليعليه
وينصره على سائر الأديان، من اليهودية والنصرانية والوثنية، وغير
ذلك .

ولما بعث الله نبيه ﷺ وأرسله بالهدى ودين الحق، وكان له
أعداء أظهره عليهم وأتمه، فإن هذه النعمة - وهي نعمة الدين - لا
تم إلا بما يحميها ويحوطها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا
(١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ .

(وكفى بالله شهيداً) على أنك نبي، وسينصرك ويظهر دينك .

(وأشهد أن لا إله إلا الله) أنه لا معبود حق إلا الله .

(وحده) تأكيد للإثبات (لا شريك له) تأكيد للنفي، فهو تأكيد

بعد التوكيد، اهتماماً بمقام التوحيد .

(إقراراً به وتوحيداً) يعني: أخبر عن اعتقاد وعلم^(١) أن لا إله

إلا الله، أي: أنه لا معبود حق إلا الله .

(وأشهد أن محمداً عبده) هذه العبودية في حق المصطفى ﷺ

هي عبودية التشريف والتكريم، وهذا أخص وصفه ﷺ، فإنه ﷺ

(١) قلت: وأعمل، وإلا فالإقرار وحده لا يكفي . ينظر مجموع الفتاوى ٧/٢٩٦ .

ورسوله ،

خَيْرٌ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا نَبِيًّا، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا^(١). وَهُوَ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْعِبَادِيَّةِ أَكْمَلَهَا وَأَعْلَاهَا، فَإِنَّ الْعِبَادِيَّةَ عِبَادِيَّتَانِ: خَاصَّةٌ وَعَامَّةٌ:

(أنواع
العبودية)

عبودية تابعة للربوبية: وهي التي دخل فيها جميع الخلق كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

وعبودية تابعة للألوهية والعبادة: وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية.

وَذَكَرَ ﷺ بِالْعِبَادِيَّةِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ كَمَا فِي آيَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، وَقَالَ فِي مَقَامِ الْإِنْزَالِ عَلَيْهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾، وَقَالَ فِي مَقَامِ التَّحْدِي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾.

(فائدة)

الجمع

للنبي ﷺ

بين العبودية
والرسالة)

(ورسوله) الجمع له ﷺ بين العبودية والرسالة فيه:

الرد على أهل الإفراط الذين غلوا فيه حتى جاوزوا الاستغاثة به

(١) كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٣١/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، قال: أفملكاً نبياً يجعلك، أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: بل عبداً رسولاً».

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا.

في كل ما يستغاث بالله فيه، فهؤلاء في الحقيقة ما جعلوه عبداً؛ بل اتخذوه معبوداً، ورفعوه فوق منزلته.

وعلى أهل التفريط بترك متابعتهم، والرضا عن سنته بالأوضاع والقوانين الباطلة، فهم ما شهدوا في الحقيقة أنه رسول الله، بل شهادتهم ناقصة على حسب ما كان معهم من تلك الأمور.

(صلى الله عليه) معنى الصلاة عليه: ثناؤه على عبده في الملاء الأعلى، وجمع بين الصلاة والسلام عليه، كما جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

(معنى الصلاة على النبي ﷺ)

(وعلى آله) آله قيل: إنهم أتباعه على دينه. وقيل: إنهم أزواجه وذريته، وهذا أرجح الأقوال، كما أن الذي يليه^(١) هم من تحرم عليهم الزكاة.

(من هم آل النبي ﷺ؟)

(وأصحابه وسلم تسليماً مزيداً) أصحاب: جمع صاحب. والصحابي: من اجتمع بالنبي ﷺ ولو لحظة وآمن به.

وجمع بين الآل والصحب، كما جمع بين الصلاة على النبي ﷺ والسلام عليه، ففيه الرد على الروافض من قوله: «وأصحابه»، وعلى النواصب من قوله: «وآله» إذا عُني بهم أهل بيته^(٢).

(العلة في الجمع بين الآل والصحب)

(١) أي: في الرجحان.

(٢) قلت: ويأتي ذكر معتقد الروافض، والنواصب الخوارج، والرد عليهم في ص ٢١٧.

أما بعد، فهذا اعتقاد الفرقة الناجية

(أما بعد) هذه الكلمة يؤتى بها عند الانتقال من أسلوب إلى أسلوب. والمعنى: **أَمَّا بَعْدُ** ما تقدم، من حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ﷺ.

وأقرب الأقوال فيمن قال هذه الكلمة **أَوَّلًا**: داود عليه السلام. وقيل: إنها فصل الخطاب الذي أعطيه، والصحيح خلافه، وأن فصل الخطاب الذي أعطيه عليه السلام هو الفصل بين الحق والباطل. (فهذا) الإشارة إلى ما في هذه العقيدة الجليلة.

(معنى الاعتقاد) الاعتقاد: مصدر اعتقد، والاعتقاد من العقد، مأخوذ من عقد الأصابع على ما تشد عليه، وهو يطلق على التصديق مطلقاً، وعلى ما يعتقد من الأمور الدينية مما يشد عليه ويعتقد، وتعيه وتمسكه القلوب، وسمي الاعتقاد اعتقاداً؛ لأن القلوب تعقد عليه وتدين به وتلزمه، واعتقاد الشيء قبل عمله، والغالب أن من اعتقد بقلبه عمله.

(الفرقة الناجية) عند هلاك الفرق والأمم، كما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة^(١)، وفي رواية «هم من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(٢).

(١) رواه أحمد ١٠٢/٤ رقم ١٦٩٧٩، وأبو داود ١٩٨/٤ رقم ٤٩٩٧.

(٢) رواه الترمذي في سننه ٢٦/٥، رقم ٢٦٤١ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، والطبراني في الأوسط ٢٢/٨، رقم ٧٨٣٩ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

المنصورة إلى قيام الساعة - أهل السنّة والجماعة - .

وبعض أهل العلم ذكر الثلاث والسبعين الفرقة باجتهاده، لكن هذا من الإخبار بالغيب، وإن كان الكل مبتدعة لا شك، لكن التعيين ما فيه نص، وإن كانت أصول هذه البدع ترجع إلى الخمس التي وجدت في زمن السلف: الجهمية، والمرجئة، والخوارج، والرافضة، والقدرية.

(أصول
البدع)

وهذا الحديث لا يدل على أن هذه الأمة أشرف من غيرها من الأمم، كالنصارى واليهود، بل فيه بيان أن ما يوجد من الافتراق في تلك الأمم، يوجد في هذه الأمة مثله في الافتراق وأكثر.

فهذا المذكور في هذا الكتاب، هو اعتقاد الفرقة الواحدة الناجية من بين الفرق كلها (المنصورة إلى قيام الساعة) كما جاء في الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة»^(١).

(أهل السنّة والجماعة) هذا من ألقاب أهل الحق - وهذا اللقب ليس من ألقاب أهل الطرق - لَمَّا كانوا يُؤثرون السنّة على غيرها من الطرق^(٢).

(من ألقاب
أهل الحق)

(١) رواه البخاري ١٣٣١/٣، رقم ٣٤٤٢، ومسلم ١٥٢٣/٣، رقم ١٩٢٠.

(٢) قلت: يأتي سبب استحقاقهم لهذا اللقب في آخر العقيدة في ص ٢٣٢ عند قوله: «ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، وبهذا سموا أهل الكتاب والسنّة، وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة».

وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره.

(وهو الإيمان بالله) يعني: وبما وصف به نفسه في كتابه .
السنة على سبيل الإجمال ما أجاب به النبي ﷺ جبريل لما سألته عن الإيمان

(وملائكته) الكرام، بوجودهم وعددهم، إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي .
معنى إجمالاً: أنك تؤمن بهم جميعاً - جميع ما جاء عن الله فيهم - .

والتفصيل: إذا بلغك تفصيلاً تسميته . وكذلك الرسل الذين جاء تسميتهم تؤمن بهم تفصيلاً .
(وكتبه) وكذلك الإيمان بكتبه .
(ورسله) وكذلك الإيمان برسله إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي .

(والبعث بعد الموت) والجهلة يستبعدون إعادة أجزاء هذا البدن بعد بلائها، فلذلك ذكر المصنف هذا اللفظ بدل «واليوم الآخر»، فإن المنكرين لليوم الآخر لا ينكرون قدرة الله على خلق الأجسام وإنزال المطر وغير ذلك .
وحتى حقيقة الإيمان بالبعث: أن يؤمن الإنسان ويُقرَّ أن هذه الأجسام تعاد كما كانت، وترد إليها أرواحها، وتنعم أو تعذب .
وقرر تعالى هذا الأصل بكمال علمه وكمال قدرته، ولهذا كان المعاد معلوماً بالعقل والشرع .

(والإيمان بالقدر خيره وشره) كما في حديث جبريل، وهذا هو

.....

السادس من أركان الإيمان، فهذا الكتاب المؤلف معظمه في شرح هذه الأصول الستة، وإن كان قد ذكر أشياء غير ذلك. وقيل: إنها ترجع إلى ذلك.

والدين ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان، فكل خصلة من خصال الإسلام داخلة في مسمى الإيمان، وكل خصلة من خصال الإيمان داخلة في مسمى الإسلام، ولكن إذا اقترنا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة؛ لأنها أغلب عليه، وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة.

(مراتب
الدين)

فالإسلام أغلب على الأعمال الظاهرة، والإيمان أغلب على الأعمال الباطنة، فهو أصدق في القلوب، وذلك أنه مشتق من الأمن والائتمان على الأمور الباطنة الخفية، فإن المصدق أمن المخبر. وأصله التصديق. وفي الشرع: تصديق خاص كما يأتي^(١).

فهذه أصول الإيمان الستة التي عليها مبنى الإيمان، ويأتي تفصيلها فيما بعد، فإن المبتدعة صاروا شجاً في حلوق أهل السنة وأهل الحق، وصنفوا وبدعوا وحبسوا، فلذلك صنف أهل السنة في العقائد المصنفات، وبينوا خطأ وضلال أهل البدع.

والمصنف - رحمه الله - أطال فيما كثر فيه جدال أهل البدع، والذين لم ينازعوا فيه ذكر فيه كالإشارة.

(١) قلت: في فصل خاص في ص ١٨٤ عند قوله: «فصل ومن أصول أهل السنة والجماعة: أن الدين والإيمان قول وعمل...».

ومن الإيمان بالله؛ الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ، من غير تحريف

(ومن الإيمان بالله) هذا هو الأصل الأول من أصول الإيمان الستة وهو أعظمها. ولم يقل المصنف «والإيمان بالله»؛ لكون الإيمان بالله أقسام، الأول: الإيمان بوجوده وربوبيته. والثاني: الإيمان بوحدانيته في الألوهية^(١). والثالث: الإيمان بأسمائه وصفاته، بل قال: «ومن الإيمان بالله».

(قاعدة) (ومن الإيمان بالله) هذا هو الأصل الأول من أصول الإيمان الستة وهو أعظمها. ولم يقل المصنف «والإيمان بالله»؛ لكون الإيمان بالله أقسام، الأول: الإيمان بوجوده وربوبيته. والثاني: الإيمان بوحدانيته في الألوهية^(١). والثالث: الإيمان بأسمائه وصفاته، بل قال: «ومن الإيمان بالله».

(قاعدة) (ومن الإيمان بالله) هذا هو الأصل الأول من أصول الإيمان الستة وهو أعظمها. ولم يقل المصنف «والإيمان بالله»؛ لكون الإيمان بالله أقسام، الأول: الإيمان بوجوده وربوبيته. والثاني: الإيمان بوحدانيته في الألوهية^(١). والثالث: الإيمان بأسمائه وصفاته، بل قال: «ومن الإيمان بالله».

أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات

الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ في السنة يقتصر عليه، ولا يزداد فيه ولا ينقص، لا يرد شيء من لفظه ولا معناه، وهذا سماعٌ محضٌ لا مجال فيه للرأي، قال الإمام أحمد - رحمه الله -: «لا يوصف الله سبحانه إلا بما وصف به نفسه في كتابه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ في السنة، لا يتجاوز القرآن والحديث»^(٢).

وهذا الذي قاله الإمام أحمد هو الذي عليه جميع الأئمة من أهل السنة، فيقتصر على ما وصف به نفسه، ويثبت ويؤمن به، ويعتقد على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(من غير تحريف) التحريف: التصريف، يعني: من غير تصريف عن المراد به، إنما ذلك لأهل البدع.

(معنى) التحريف (أنواعه)

(١) إفراده بالوحدانية (عبارة أخرى).

(٢) قلت: وقد رد هذه العبارة ثلاث طوائف: أهل التخييل، وأهل التأويل، وأهل التجهيل. مجموع الفتاوى ٣١/٥.

ولا تعطيل،

وتحريف النصوص تارة يكون للفظ والمعنى جميعاً، وتارة للمعنى وحده، فإن من المحرفين من يحرف اللفظ ويلزم منه تحريف المعنى، ومنهم من يحرف المعنى من غير تحريف اللفظ، ومنهم من يحرفهما جميعاً.

فمن تحريفهما جميعاً قول اليهود: «حنطة» بدل ﴿حِطَّةٌ﴾، وقول جهم: «استولى» فإنه قال: لو استطعت أن أحك من المصحف ﴿أَسْتَوَى﴾ لحككتها.

والثاني: تحريف المعنى، - وهي حرفة اليهود - وسائر تحريف نصوص الصفات الذي يسميه المبتدعة تأويلاً.

ومثال تحريف اللفظ فقط كقولهم: وكَلَّمَ اللَّهُ موسى تكليماً بنصب الاسم الشريف.

(ولا تعطيل) التعطيل في الأصل: الإخلاء، من قولهم: جيدٌ^(١) عاطل، أي: خالٍ من الحُلِيِّ. من غير تعطيل للفظ وللمعنى، فالتعطيل هو: إخلاؤه تعالى من صفاته التي وصف بها نفسه.

وأهل التعطيل هم الجهمية، عطلوا النصوص، وهم أعظم كفراً وضلالاً من أهل التشبيه، كما قال بعض السلف: «المعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً، والموحد يعبد إلهاً واحداً فرداً صمداً».

وأهل التعطيل أعظم كفراً من أهل التشبيه لأمر:

الأمر الأول: أن عابد العدم أعظم كفراً من عابد الصنم.

(الجهمية)
هم أهل
(التعطيل)

(كفر)
المعطلة
أعظم من
كفر الممثلة
(لوجوه)

(١) الجيد: العنق.

.....

الأمر الثاني: أن هذا التعطيل محفوف بتمثيلين، مثلوا أولاً حيث لم يفهموا من النصوص الواردة في الصفات إلا التشبيه، الثاني أنهم لما نفوا الصفات لزمهم التمثيل بالمعدومات.

الأمر الثالث: أن كونه أشر تمثيلاً من الممثلة، أنهم يشبهونه بالمعدومات، بل بالمتنعات، فإنهم قالوا: ليس بكذا ولا كذا ولا كذا، حتى عطلوه من جميع الصفات، فشبها أولاً، وعطلوا ثانياً، وشبها ثالثاً، وأولئك مثلوه بالحيوانات - تعالى الله وتقدس - .

وبهذه الأوجه، عرفنا أن كفر المعطلة، أعظم من كفر الممثلة. (المعتزلة) ومن هؤلاء: المعتزلة، فإنهم يثبتون الأسماء وينفون الصفات، ويرون أن الأسماء لا معنى لها، لا تدل إلا على الذات فقط. إخوان الجهمية في التعطيل ومن فروع هؤلاء: الأشاعرة الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري، وهو منهم بريء، ومثلهم الماتريدية.

وقال بعض السلف أيضاً: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن نفى عنه ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ تشبيه». وهذه العبارة عند السلف شهيرة متلقاة بالقبول عند الأئمة.

فأهل التشبيه، أثبتوا وغلوا وزادوا في الإثبات حتى وقعوا في كفر التشبيه.

وأهل التعطيل، غلوا وزادوا في التنزيه حتى وقعوا في كفر التعطيل، فصاروا ضالين من جهتين:

الأولى: فهمهم التشبيه من الآيات الواردة في إثبات الصفات.

ومن غير تكييف ولا تمثيل،

الثاني: تشبيهه بالجمادات والمعدومات.

(ومن غير تكييف) التكييف: تعيين كيفية من الكيفيات للصفة،

فيقول: كيفيتها كذا وكذا، كقولهم - والعياذ بالله - : هو كذا وكذا. فممنوع كيف؟ ولم؟

(معنى التكييف والتمثيل)

(ولا تمثيل) وهو أن يقول: هذا مثل هذا، كأن يقول: يد

كيدي ونحو ذلك.

ولم يقل المصنف: «ولا تشبيه». وقد أجاب عن هذه اللفظة

حين امتحانه، فقال: إنها لم ترد في القرآن، إنما ورد نفي التمثيل كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فاقترت عليها.

والناس في باب الصفات طرفان ووسط:

(أقسام الناس في باب الصفات)

الطرف الأول: حرفوا ونفوا ووجدوا الصفات. وهم الجهمية

أتباع جهم بن صفوان، أخذ هذا المذهب عن شيخه الجعد بن درهم - ولم يكن يظهرها - والجعد أخذها عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وطالوت أخذها عن لبيد بن الأعصم اليهودي - الساحر الذي سحر النبي ﷺ -، وأظهرها الجهم فنسبت إليه، وقيل: إن الجهم أخذها عن كفار الهند^(١).

فالجهم سلك هذا المسلك - نفي الصفات - من جهله، زعم

(١) قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «مبدأ التجهم في هذه الأمة، كان أصله من المشركين ومبدلة الصابئين من الهند واليونان، وكان من مبدلة أهل الكتاب من اليهود، وأن الجعد بن درهم ثم الجهم بن صفوان ومن اتبعهما أخذوا ذلك عنهم» بيان تلبيس الجهمية ١/ ٣٧٤.

.....

أنه إذا أثبتتها وقع في التشبيه، فنفاها مخافة التشبيه، وزعم أن نفيها تحقيق لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾* لم يفهم من صفات الله تعالى إلا ما يفهمه من صفات المخلوقين.

الطرف الثاني: أفرطوا في الإثبات وشبهوا ومثلوه بصفات المخلوقين، فضربوا النصوص بعضها ببعض، وزعموا أن هذا مدلولها وردوا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾*، وهاتان الفرقتان في طرفي نقيض.

وإطلاق التفويض في الصفات شر من التحريف. وقول مالك ظاهر^(١). وابن عباس وغيره من الصحابة فسروا الصفات. وتفويض الكُنه والكيفية صواب.

والقسم الثالث: الأمة الوسط بين هذين الطرفين - أهل السنة والجماعة -، سلكوا في هذا الباب العظيم المسلك القويم الذي جاءت به الكتب السماوية، ونطقت به الرسل، ودرج عليه الصدر الأول ومن تبعهم.

وهذا المسلك الذي هداهم الله له، هو الوسط بين الطرفين، والهدى بين الضاللتين، فأثبتوا لله ما أثبتته لنفسه في كتابه وأثبتته له رسوله ﷺ في السنة، إثباتاً بريئاً من تمثيل الممثلين، ونفوا عنه ما لا يليق بجلاله وعظمته نفياً بريئاً من تعطيل المعطلين، على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾*؛ لأن باب الأسماء والصفات توقيفي، لا مجال للعقول والقياس والذوق فيه. والتحريف حرفة اليهود والجهمية، والتعطيل حرفة الجهمية، والتمثيل طريقة المشبهة.

(١) «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿﴾.

(بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾) يعني أهل
السنة والجماعة: يؤمنون بأن الله ليس كمثل شيء في ذاته، ولا في
أسمائه وصفاته، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾) ويثبتون ما أثبتته الله لنفسه
من الأسماء والصفات، كالسميع والبصير.

(آية فيها
رد على
أهل
التمثيل
وأهل
التعطيل)

وفي هذه الآية الرد على الطائفتين: أهل التعطيل وأهل
التشبيه، فقلوه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على أهل التشبيه.
وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على أهل التعطيل.

وفي هذه الآية بيان طريقة الكتاب والسنة في الأسماء
والصفات، وأن طريقتهما في النفي الإجمال، وفي الإثبات
التفصيل، فإن الكتاب والسنة جاءا بنفي مجمل وإثبات مفصل، وهي
طريقة أهل السنة والجماعة.

(طريقة
الكتاب
والسنة في
الأسماء
والصفات)

والكلام في باب الأسماء والصفات دائر بين النفي والإثبات،
بخلاف طريقة الجهمية وأضرابهم، فإنهم أثبتوا إثباتاً مجملاً ونفوا
نفيّاً مفصلاً، فخالفوا الكتاب والسنة وأهل السنة والجماعة في
التأصيل والتفصيل، زعماً منهم أنه تنزيه لله.

والكاف في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ فيها كلام كثير، وليست زائدة،
بل جاءت إحداها مؤكدة للأخرى، لمزيد تأكيد عدم المماثلة.

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم
عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيفون
ولا يمثّلون صفاته بصفات خلقه؛

(محاذاة) (فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه) حاشا وكلا، بل هذه طريقة
يتجنبها أهل السنّة والجماعة
في الأسماء والصفات) الجهمية والأشاعرة.

(ولا يحرفون الكلم عن مواضعه)، بل يقرون الكلم على معانيه
وما أريد به.

(ولا يلحدون في أسماء الله وآياته) والإلحاد في اللغة: هو
الميل، ومنه تسمية موضع الميت في القبر لحدًا، لميله عن وسطه.
وفي الشرع: هو الميل والخروج عن الحق فيها إلى الجور.

وقد ذم الله تعالى من ألحد في أسمائه وآياته، فقال تعالى:
﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ
عَلَيْنَا﴾ فمن عطل فقد ألحد، ومن مثل فقد ألحد، ولا يسلم من
الإلحاد إلا من آمن بها كما جاءت من غير تمثيل، وكذلك الآيات
من حملها ما لا تطيق فقد ألحد، ومن نقصها فقد ألحد.

وأهل التعطيل والتشبيه كلهم من أهل الإلحاد.

(ولا يكيفون) صفاته فلا يقولون: كيفيته كذا وكذا، وقد قال
الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

(ولا يمثّلون صفاته بصفات خلقه) فما يضاف إلى الخالق فهو

لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كُفء له، ولا ند له، ولا يقاس
بخلقه - سبحانه وتعالى -،

يليق به ويختص به، كما أن ما يضاف إلى المخلوق ويليق به يختص
به، وإن اجتمعا في الاسم أو الصفة، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء،
لا في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فإن القول في
الذات كالقول في الصفات، يحتذى حذوه ويقاس عليه، فثبتت
إثبات وجود، لا ثبوت تمثيل فيه، فكما أن ذات الباري سبحانه لا
تدانيها ولا تقاربها ولا تشابهها ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته
سبحانه .

(القول في
الذات
كالقول في
الصفات)

(لأنه سبحانه لا سمي له) المعنى لا يساميه أحد، أو لا يستحق
مثل اسمه، وكلا المعنيين راجع إلى الآخر، لكون اسمه تعالى دال
على الكمال. والخلق وإن كان لهم نوع كمال فإن الله هو الذي
أكسبهم إياه .

(لماذا
يتجنب
أهل السنّة
والجماعة
تلك
المحائير في
الأسماء
والصفات؟)

(ولا كُفء له) الكُفء: المساوي .

(ولا ند له): ولا مثل له .

(ولا يقاس بخلقه - سبحانه وتعالى -) فيضرب له مثلاً، فيقاس
بالمخلوق في مثلٍ يستوي هو والمخلوق فيه، - تعالى وتقدس -،
فجميع القياس في حقه ممتنع شرعاً وعقلاً. نعم قياس الأولى،
فيقال: ما كان في حق المخلوق كمال، فإن الله أحق بالكمال،
فيثبت لله تعالى على ما يليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل .

(القياس
المنوع
والقياس
الجائز)

فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً
من خلقه.

(فإنه سبحانه أعلم بنفسه) من خلقه، وبما يجوز في حقه وما
يُمْتَنَعُ عليه، فعلينا أن نذعن ونصدق ونؤمن بما يصل إلينا، ونعتقده
حقيقةً على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(باب
الأسماء
والصفات
توقيفي)
وهذا الباب توقيفي، فيُنطَقُ حيث نطق الكتاب والسنة، وقد
نطق الكتاب والسنة بالصفات، وهو الحق والتوحيد، فلا محذور في
النطق بما وصف به نفسه، والخلق ما لهم علم بالأمور الاعتقادية إلا
ما أخذوه من مشكاة النبوة.

(وبغيره) وأعلم من خلقه بأنفسهم. والعلم أقسام، فأعلاها
العلم بالتوحيد. والتوحيد ثلاثة أقسام ومنها توحيد الأسماء
والصفات، وهو التوحيد العلمي الاعتقادي.

(وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً من خلقه) وقد وصف نفسه.

ثم رسله صادقون مُصدِّقون، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون.

(ثم رسله) هذا عطف على قوله: «فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه» مع ما تقدم من قوله: «ومن الإيمان بالله.. الخ.

(صادقون) وقد وصفوا الله بصفات، وهم معصومون في كل ما بلغوه عن الله، لا ينطقون عن الهوى.

(مُصدِّقون) فيما أخبروا به عن ربهم، أي: مؤتمنون فيما أوحى إليهم، فيجب تصديقهم فيما بلغوه عن ربهم، والالتفات إلى ما قالوا والتمسك به. وفي بعض النسخ «مُصدِّقون».

(بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون) هذا راجع إلى أهل التعطيل والجحد، وإلى أهل التمثيل، كلهم قائلون عليه بغير علم، فإنهم لا صادقون ولا مصدقون، ولا التفات إلى ما قالوا؛ بل كاذبون ومُكذِّبون، ومعتمدون على نحاة الأفكار وزبالة الأذهان، فإن منهم من عطل وجحد، فهو قائل بلا علم مع مخالفتهم لما عرفوا من العلم، وكذلك الذين يقولون إنها لا تدل على كذا، ولا على كذا، فكلهم مخالفون للرسول. وكل من وصف الله بغير ما وصف به نفسه، فهو قائل على الله بلا علم.

فكلٌّ من الجهمية وأضرابهم والممثلة تائه، الكل قائل على الله بغير علم، وواقع فيما هو أعظم من الشرك، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

(أهل)
التعطيل
وأهل
التمثيل
قائلون على
الله بغير
(علم)

ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾
 وَسَلَّمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ، فسيح نفسه
 عما وصفه به المخالفون للرسول ، وسلم على المرسلين ،
 لسلامة ما قالوه من النقص والعيب .

وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ فكل
 من حرف أو ألد أو عطل ، فهو قائل على الله بلا علم ، بل هو
 مخالف للعلم الواضح .

(ولهذا) هذا تعليل من المصنف ، فالله سبحانه الذي هذا شأنه ،
 (قال) : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَّمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
 ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ فسيح نفسه) وقدسها ، والتسبيح :
 التنزيه والتقدیس ، (عما وصفه به المخالفون للرسول) ، مما قالوه في
 أسمائه وصفاته ، وشرعه وقدره ، لأن ما قاله أعداء الرسول نقص
 وعب لا يليق بجلال الله .

(وسلم على المرسلين) ذكر في الآية السلام عليهم (لسلامة ما
 قالوه) في الله وفي أسمائه وصفاته ، وشرعه ودينه (من النقص
 والعيب) ، لأن ما ذكره هو الصدق والكمال ، وضده الكذب
 والعيب ، فاستحقوا السلام من الله ، وحمد نفسه لما له من الأسماء
 والصفات وبديع المخلوقات .

وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات .

فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون ،

(وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه) يعني : في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ (بين) نوعين : (النفي والإثبات) :
نفي ما لا يليق بجلال الله وعظمته نفيًا عامًا مجملًا كقوله :
﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ ، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ، ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

وأما الإثبات فأثبت إثباتاً مفصلاً ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ، ونظائر ذلك من الإثبات ، فعكس ذلك أهل التجهم والاعتزال ، زعماً منهم أنه تنزيه لله ، ووقعوا في ضلالتين : في معاكسة الكتاب ، وفي وصفه تعالى بغير ما وصف به نفسه .

(فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون) يعني : أنه إذا كان كذلك ، تبين أنه لا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون ، يعني : متعين عليهم التمسك بمسلك المرسلين ، والأخذ بما جاء عنهم الذي من تمسك به نجا ، ومن تركه هلك ، فإنه ضروري تمسكهم بالحق وعدم العدول عما جاء به المرسلون ، ولازمٌ هذا ولا غرْو ، ولا استقام مقصدُهم إلا بعدم العدول عما جاء به المرسلون .

وما جاء به المرسلون هو إثبات صفات الكمال على وجه التفصيل ، وفي النفي : نفي ما لا يليق بالله على وجه الإجمال كما تقدم .

(طريقة
أهل السنة
في الأسماء
والصفات :
النفي
المجمل ،
والإثبات
المفصل)

(لا يستقيم
المقصد إلا
بعدم
العدول
عما جاء
به الرسل)

فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين .

(فإنه الصراط المستقيم) الذي جعله الرب موصلاً للعباد إلى
ربهم، ولا طرق سواه، إنما هو هذا الطريق الأوحى الذي يصل
الخلق إلى ربهم منه، فلا طريق لهم موصول إلى ربهم ودار كرامته إلا
من هذا الطريق .

(صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء
والصالحين)، النعمة الكاملة نعمة الدين، فإن الله نعمتين:
نعمة كاملة مطلقة: وهي نعمة الدين .

ونعمة ناقصة مقيدة: وهي التي يشترك فيها البر والفاجر، من
المأكل والمشرب ونحو ذلك .

فالأولى: نعمة الأرواح، والثانية: نعمة الأجسام، وشتان بين
مُشَرَّقٍ ومُغْرَبٍ، فإن الإنسان مخلوق من مادتين، روحانية نورانية،
وأرضية جسمانية .

فالنعمة التامة، لأهل الإيمان، وهي المعنية بقوله في الفاتحة:
﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، والمُنْعَمُ
عليهم الذين يُسأل الله الهداية إلى طريقهم هم في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ
اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ
وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ .

فنعمة هؤلاء هي النعمة المطلقة، وهؤلاء الطبقات الأربع أئمة
هذه النعمة، ولهم أتباع على حسب أتباعهم .

.....

والنعمة المقيدة، يستحق الربُّ عليها الشكر، ولكنها بالنسبة إلى المطلقة كلاً نعمة، فتلك هي التي تستمر في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، أما الثانية فهي أيضاً نعمة ابتلاء وامتحان.

النعمة معرفة الدين والعملُ به، والمُنعمُ عليهم على طبقات، وترتيبهم على ما في الآية، فهذا طريق المُنعم عليهم النعمة الكاملة، هو إثبات ما أثبتته الله لنفسه، على ما يليق بجلاله وعظمته من الصفات من غير تمثيل، ونفي ما نفاه الله عن نفسه نفياً بريئاً من التعطيل.

﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾ يعني: من صار معهم فهو مرافق لهم، والذي يُحصِّل هذا حصِّل رفيقاً ما مثله رفيقاً، يعني: وحسن هذا الرفيق رفيقاً، يعني: هؤلاء هم أحسن الرفقاء.

(أحسن
الرفقاء)

وقد دخل في هذه الجملة، ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن،

(وقد دخل في هذه الجملة) السابقة، أي: جملة «ما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات»، وهي كونه تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات.

(ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص) يعني: التوحيد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ السورة. وكذلك ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِكُفْرُونٍ﴾ تسمى سورة الإخلاص فإنها دلت على التوحيد. ف ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ دلت على التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي، وسورة ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِكُفْرُونٍ﴾ دلت على التوحيد القصدى الإرادى الطلبي.

(التي تعدل ثلث القرآن) جاء ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قرأت: قل هو الله أحد مرة، فكأنما قرأت ثلث القرآن، وإذا قرأت: قل هو الله أحد مرتين، فكأنما قرأت ثلثي القرآن، وإذا قرأت: قل هو الله أحد ثلاث مرات، فكأنما قرأت القرآن كله»^(١).

ووجه كونها تعدل ثلث القرآن، من حيث إن القرآن قسمان: (وجه كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن) قسم: إنشاء، وهو طلب، - أمر ونهي -.

وقسم: خبر، والأخبار التي في القرآن منقسمة إلى قسمين:

قسم: خبر عن الخالق، وقسم خبر عن المخلوق.

- قسم: خبر عن الباري - جل جلاله - وإثبات صفاته، وقسم:

خبر عن المخلوق وحاله ونشأته وما أعد له -.

(١) رواه الطبراني في الأوسط ٦/١٢٨، رقم ٥٩٩٦.

حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكِدْ
وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

وهذه السورة مُمَحَّضَةٌ للخبر عن الخالق تعالى . سبب نزولها
أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ
أَحَدٌ﴾ إلى آخرها. صَدْرُهَا إثبات وآخرها نفي، بخلاف غيرها من
السور.

(حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾) هذا فيه إثبات الأحدية
للرب تعالى وتفرد به، المنافية للشريك والمثيل والنديد من كل
وجه.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فيه إثبات الصمدية لله سبحانه ووصفه بها.

ومعنى الصمد: الذي يصمد إليه الخلائق كلهم يوم القيامة،
وكل تفسير للصمد فهو يرجع إلى إثبات الكمال.

﴿لَمْ يَكِدْ﴾ أحداً. فيه نفي الولد عنه سبحانه وتعالى، وتنزه
عما يقول الجاهلون علواً كبيراً، لمنافاته لكمالهِ سبحانه وتعالى.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ولم يلد له أحد، ففيه نفي الوالدة عنه سبحانه
وتعالى، لمنافاته لكمالهِ.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فيه نفي الكفو وهو المساوي
له سبحانه، لمنافاته لكمالهِ.

ففي هذه السورة نفي النقائص والعيوب عنه تعالى، وإثبات
الكمال له تعالى.

(ما
تضمنته
سورة
الإخلاص
من
الأسماء
والصفات)

وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه حيث يقول :
﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

(وما وصف به نفسه) وكذلك دخل في هذه الجملة ما وصف
به نفسه (في أعظم آية في كتابه) وهي آية الكرسي، جمع تعالى فيها
بين النفي والإثبات، فإنها اشتملت على عشر جمل، وفي ضمن
تلك الجمل ما هو نفي وما هو إثبات (حيث يقول :)
﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيها نفي الألوهية عن كل ما سوى
الله، وأنها لا تصلح لغير الله؛ بل لا تصلح إلا لله، وأما غيره فلا
يصلح لها، وكل مألوه غير الله فإلهيته بالباطل والضلال.
﴿إِلَّا هُوَ﴾ فيه إثباتها لله سبحانه دون كل ما سواه.
﴿الْحَيُّ﴾ فيه إثبات صفة الحياة الكاملة المطلقة لله سبحانه.
﴿الْقَيُّومُ﴾ فيه إثبات صفة القيومية. والحياة والقيومية
يستلزمان سائر الصفات، من القدرة والسمع والبصر وغير ذلك.
﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ﴾ وهي الذهول والغفلة، وهي دون النوم.
﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ فيه نفي النوم.

والنفي قسمان: نفي محض، وهذا مراد لذاته ولا يقع في
الصفات، ونفي مراد به الإثبات كنفي السنّة والنوم عنه سبحانه،
وذلك لكمال حياته وقيوميته تعالى.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا فيه إثبات ملك
السموات والأرض، وتفرد الله بملك ذلك.

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا - أَي: لَا يُكْرَهُ وَلَا يَثْقَلُهُ -

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) فيه نفي الشفيع وهذا نفي ظاهر. وهذا النفي دخل فيه جميع الشفعاء، حتى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا في القيامة لا يشفع حتى يسجد، ويقال له: «ارفع رأسك، واشفع تُشَفِّعْ، وسل تعطه»^(١).

ففيه نفي الشفاعة التي من غير إذنه، وإثباتها بإذنه تعالى.

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) فيه إثبات تفرده بالعلم سبحانه.

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) أن يطلعهم عليه، ففيه إثبات سعة علمه.

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) فيه إثبات الكرسي، يعني: أنه أوسع منها بكثير، وجاء في الأحاديث أنه من جملة المخلوقات، وجاء في السنة أنه موضع القدمين، وليس كرسيه علمه كما يقوله المبتدعة، فإن في هذه الآية الرد عليهم، فهم ينفون الكرسي والعرش، يريدون بذلك نفي العلو؛ ولهذا أهل العلم يترجمون بباب في العرش باب في الكرسي، وهذا كله رد على الجهمية والمبتدعة.

(وَلَا يُؤْذُهُ حِفْظُهُمَا) - أَي: لَا يُكْرَهُ وَلَا يَثْقَلُهُ - لا يثقل

(إثبات
الكرسي
لله)

(١) رواه البخاري ١٢١٥/٣، رقم ٣١٦٢، ومسلم ١٨٥/١، رقم ١٩٤.

وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿١﴾ ، ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة، لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح.

عليه ولا يشق عليه، لكمال قدرته وقهره.

(﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾) الذي لا أعلى منه تعالى. له العلو الكامل من جميع الوجوه: علو القدر والشرف، وعلو القهر والسلطان لكل شيء، وعلو الذات والفوقية على جميع المخلوقات، فإنه أعلى من كل شيء، قدراً وقهراً وفضلاً، وأعلى من كل شيء علواً وذاتاً وسلطاناً.

(﴿الْعَظِيمُ﴾) الذي لا أعظم منه سبحانه، ولا أكبر ولا أجل.

(ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة، لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح) أشار بهذا إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أنه أتاه شيطان ليسرق من تمر الصدقة، ثم يحلف أنه لا يعود..» الحديث فذكر له آية يسلم بها من السراق، فقال صلى الله عليه وسلم: «صدقك وهو كذوب»^(١)، من عاداته الكذب، فيفيد عظم شأن هذه الآية.

(١) رواه البخاري ٨١٢/٢، رقم ٢١٨٧.

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾،

(وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ﴾) هذا أيضاً مما دخل في الجملة السابق ذكرها. جملة: «ما وصف وسمى به نفسه، بين النفي والإثبات».

قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ هذه الآية فيها

إثبات هذه الأسماء الحسنی الأربعة، واشتملت على اتصافه تعالى بها، وتفسير هذه الأسماء الأربعة جاء في الحديث «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»^(١).

وحديث «كان الله ولم يكن شيء قبله»^(٢) يعني: أنه سبحانه

وتعالى بوجوده وأوليته. «ولم يكن شيء قبله» ليس معناه كان قبل أن لم يكن حدث، لا.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ واشتملت هذه الآية على اتصافه بالعلم

بكل شيء، فشمل علمه الموجودات كلها، والمعدومات التي تكون، والتي لا تكون، كيف تكون لو كانت، بخلاف الممتنعات فإنها ليست شيئاً حتى تُشمل بالعلم.

(١) رواه مسلم ٢٠٨٤/٤ رقم ٢٧١٣.

(٢) رواه البخاري ٢٦٩٩/٦، رقم ٦٩٨٢.

(إثبات
اسم الأول
والآخر،
والظاهر
والباطن لله
واتصافه
بها
ومعانيها)

وقوله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾،

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ﴾

(إثبات الحياة لله وما تستلزمه من الصفات)

(وقوله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾) هذه الآية فيها إثبات هذا الاسم، وإثبات مدلول هذا الاسم وهي صفة الحياة لله سبحانه، وهي تستلزم السمع والبصر والعلم والقدرة ونحو ذلك. ونفي الموت لمنافاته للحياة.

(إثبات اسمي الحكيم والخبير وإثبات مدلولهما)

(وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ﴾) فيه إثبات هذين الاسمين، أحدهما: الحكيم وهو الذي يضع الأشياء مواضعها. والثاني: الخبير، وإثبات مدلول هذين الاسمين وهما الحكمة والخبرة. والحكمة هي المنافية للسفه والعبث، فهو تعالى الحكيم في أفضيته وشرعه ودينه، وهي أبعد شيء عن السفه وعن خلاف المصلحة. والخبرة أخص من العلم، هي كمال العلم.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾،

(إثبات
صفة
العلم)

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾) فيه إثبات علمه الشامل، فما من داخل في الأرض أو خارج منها، ولا نازل من السماء ولا صاعد إليها، إلا وهو مشمول بالعلم.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾) وهي الخمس المذكورة في الحديث: «خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل» ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١) فهذه الخمس لم يطلع عليها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾) فيه إثبات صفة العلم وشموله لجميع الأشياء، فما من شيء إلا وهو مشمول بالعلم، وهو أشمل من القدرة، وفيه إثبات الكتابة وهي إحدى المرتبتين في القدر كما يأتي^(٢).

(١) رواه مسلم ١/٣٩، رقم ٩.

(٢) في ص ١٦٩.

وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾، وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

(وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة العلم.

(وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة القدرة، وهي مدلول اسمه القدير، وإثبات صفة العلم، وشمول القدرة وشمول العلم، فما من شيء إلا دخل في القدرة إلا ذاته - جل جلاله - فإنها لا تقبل التصريف، فإن القادر لا يكون مقدوراً. فشملت قدرته ما كان وما يمكن أن يكون، فإن الله قادر على الموجودات والمعدومات والممكنات، ولا خرج عن ذلك إلا الممتنع، فإنه ليس بشيء حتى يُشمل.

وفي إثبات القدرة على كل شيء، الرد على المُرشدة الذين يقولون: إن الله لا يقدر إلا على ما يشاء، وأما ما لا يشاء فلا، وهم طائفة من المبتدعة معلومٌ بطلان قولهم من نحو ثمانين موضعاً من القرآن ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾) فيه كمال العلم، فإن الإحاطة بالشيء عِلْمًا هي الإحاطة به من كل الجهات، فالعلم فيه شمولٌ مثل القدرة، بل الشمول الذي في العلم أعم من الشمول الذي في القدرة، فإنه تعالى أعلم بذاته وبأسمائه وصفاته وبشرعه ودينه وبجميع مخلوقاته.

وقد جاء في قصة الخضر وموسى، حين أتى عصفور فوق
على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر
لموسى عليه السلام: «ما نقص علمي وعلمك من علم الله، إلا كنقرة هذا
العصفور في هذا البحر»^(١)، وكما في الآية: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا
لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

(١) رواه البخاري ٥٦/١ رقم ١٢٢، ومسلم ٨/٤ رقم ٢٣٨٠.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

(إثبات اسم الرزاق والقوي والمتين لله) وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ هذا فيه إثبات هذه الأسماء الثلاثة لله حقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل.

(قواعد في الأسماء والصفات أخذها أهل السنة من آية) وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ هذا فيه نفي مماثلة الخلق لله سبحانه وتعالى، فتقرر بذلك أصل عظيم وهو عدم مشابهته لخلقه. هذه الآية بيان أن النفي إجمال، والإثبات تفصيل. نفي مجمل وإثبات مفصل.

وفيه الرد على الطائفتين: أهل الجحد والتحريف والتعطيل، وأهل التشبيه والتمثيل، فإن طائفتي المبتدعة تقاسموا هذه الآية نصفين، وأهل السنة أثبتوا الصفات على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

(إثبات السمع والبصر لله) وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ هذه الآية فيها إثبات الاسمين، وإثبات صفتين، وهما مدلول هذين الاسمين على ما يليق بجلال الله وعظمته، ولما نزلت هذه الآية جعل ﷻ إصبعيه في أذنيه، بياناً منه أنه سَمِعَ حقيقةً، وبَصَرَ حقيقةً^(١).

(١) قال أبو هريرة رضي الله عنه: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فوضع أصبعه =

وقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ، وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ، وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ .

(وقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾) فيها إثبات صفة المشيئة لله سبحانه وتعالى التي تكون بها الأشياء، كما أنها لا تكون إلا بالقدرة والعلم.

(إثبات
المشيئة
والإرادة
لله)

(وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾) هذه الآية فيها إثبات المشيئة والإرادة.

(وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾) فيه إثبات صفة الإرادة.

(وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾) فيه إثبات صفة الإرادة لله سبحانه وتعالى، وكذلك بقية الآيات التي فيها إثبات صفة الإرادة.

= الدعاء - أي السبابة - على عينيه، وإبهاميه على أذنيه» رواه الحاكم في المستدرک ٧٥/١، رقم ٦٣، وابن حبان في صحيحه ٤٩٨/١، رقم ٢٦٥.

.....

(الإرادة
نوعان
والفرق
بينها وبين
المشيئة)

ورد في النصوص إرادة ومشیئة، وصرح من صرح
بترادفهما^(١)، ولم يفتن للتفصيل، ولكن أولى ما يكون أن الإرادة
إرادتان: كونية قدرية، وشرعية دينية.

وأما المشیئة فلم ترد في النصوص إلا كونية قدرية فلا تنقسم.
والشرعية الدينية تستلزم محبته ورضاه سبحانه وتعالى بخلاف
الكونية القدرية.

فالإرادة في النصوص على قسمين: كونية قدرية وهذه موافقة
للمشيئة، وإرادة شرعية دينية، فأراد الله من العباد شرعاً عبادته،
والعباد انقسموا إلى قسمين: قسم أطاعوا، فاجتمع فيهم الإرادتان.
فالكونية شرط وجود الفعل.

وقسم عصوا، فانفردت الكونية فيهم، ولا حظ لهم في
الشرعية. وليست الكونية حجة لأحد.

إذا عرفنا ذلك فالإرادتان بينهما عموم وخصوص، يجتمعان
في المطيع، ويفترقان في العاصي، فالمطيع أطاع الله فيما أَرَادَهُ اللهُ
منه شرعاً ودينياً وتبع الإرادة الكونية القدرية. وانفردت الكونية القدرية
في حق العاصي. فالكفار أبوا عما أَرَادَ اللهُ مِنْهُمْ شرعاً، فلا تنالهم
الإرادة الشرعية، ولا لهم فيها نصيب لحكمة الله وعدم صلاحيتهم
لشيء من ذلك، هم خارجون عن إرادة الله الشرعية الدينية؛ وهي ما
أَرَادَهُ عَلَى ألسن رسله من عبادته وحده.

(١) من الخائضين في القدر من المجبرة، كالجهم بن صفوان وأمثاله، فقالوا: ليست
الإرادة إلا بمعنى المشیئة. مجموع الفتاوى ٣٧/١٣.

وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ، ﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ، ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ ،
 وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ ، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصًا﴾ ،

(وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾) هذه الآية فيها إثبات
 صفة المحبة ، وأن الله يحب أهل طاعته محبة تليق بجلاله وعظمته .

(إثبات
 صفة
 المحبة)

﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾) هذه مثل التي قبلها .

﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾)
 كذلك .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾) هذه الآية فيها إثبات
 صفة المحبة .

(وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾) هذه
 الآية فيها زيادة أنه يُحِبُّ ، ففيها إثبات المحبة من الجانبين .

(وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾) وهذه كالتى قبلها
 في أنه يُحِبُّ وَيُحَبُّ .

(وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ
 بَنِينَ مَرْصُوصًا﴾) فيها إثبات صفة المحبة .

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ .

(وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾) قال البخاري^(١): «يعني الحبيب»، وفيها إثبات صفة المغفرة وهي مدلول اسمه الغفور، والمغفرة هي: التغطية مع الوقاية، يعني الذي يستر عباده ويطهرهم عقوبة الذنوب.

قَصْدُ المصنّفِ منها كلّها إثبات صفة المحبة، وأن الله - جل جلاله - يحب حقيقة محبة تليق بجلاله وعظمته، لا كمحبة المخلوقين، يحب رسله وعباده الموصفين بهذه الصفات، وفيها زيادة أنهم يحبونه محبة تدبّر وتذل وتعبّد، ومحبته لهم محبة إحسان وتفضل.

وفيها الرد على الجهمية فإنهم ينفون أن يُحِبُّ أو يُحَبُّ، فأهل التجهم ينفون المحبة من الجانبين، كما أنكروا الخُلة، وهذا من ضلالهم وجهلهم، قالوا: إن المحبة لا تكون إلا بين اثنين بينهما نوع من المناسبة، كمناسبة محبة المخلوقين بعضهم لبعض، ففروا منها إلى النفي. نعم محبة الله لا مناسبة بينها وبين محبة المخلوقين، محبة تليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل، لا يعلم كنهها ولا كيفيتها إلا هو سبحانه وتعالى، فإنه أعلم بنفسه، وقد أعلمنا أنه يُحِبُّ ويُحَبُّ، فنحن نؤمن بالله وبما جاء عن الله على مراد الله.

كل ما جاء في القرآن أو الحديث الثابت، فخذ معك أصلاً أنه
على ما يليق بجلال الله .

(قاعدة
عظيمة)

(١) ١٨٨٥/٤ رقم ٤٢٤ موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾،

(إثبات
صفة
الرحمة)

(وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾) في آية البسملة، هي آية من القرآن بين كل سورتين إلا في براءة، وهي أيضاً آية في النمل. هذه الآية فيها هذان الاسمان لله «الرحمن والرحيم» دلاً على اتصافه تعالى بالرحمة، فالرحمن من الفعل المتعدي، والرحيم من اللازم، فالرحمة أحد صفات الباري - جل جلاله - .

وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «الرحمن الرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر» المقصود السعة، يعني: أسماء مبالغة أن كلا منهما صفة مبالغة، هذا معنى «رقيقان أحدهما أرق وأوسع من الآخر»، وأوسعهما الرحمن، ولهذا جاء في التفسير رحمن الدنيا والآخرة، فلولا رحمته العامة ما بقي أحد على وجه الأرض، أما الرحيم فهي خاصة بالمؤمنين.

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فيه إثبات صفة الرحمة، وإثبات سعتها، وإثبات صفة العلم، وإثبات سعته، ففيه شمول رحمته، كما فيه شمول علمه، فما استقام أمر العالم إلا بالرحمة.

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ فيها إثبات صفة الرحمة.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فيه إثبات صفة الرحمة أيضاً.

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴾ ، ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴾ .

(﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ،
﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴾) .

هذه الآيات فيها إثبات صفة الرحمة لله تعالى على ما يليق
بجلاله وعظمته على حد قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴾ فهي رحمة حقيقية، بل هي أحق الحقيقة، كما أن
للمخلوق رحمة حقيقية تختص به .

وكثير من شراح الكتب^(١) صرفوا معنى هذين الاسمين عن
مدلولهما، فمنهم من يقول: إنه المنعم الحقيقي، ومنهم من يقول:
الرحمة إرادة الإنعام، ونحو ذلك، وكل هذا من الكلام الباطل، ما
حملهم عليه إلا سوء الفهم، ولو فهموا فهماً صحيحاً ما صرفوه عن
مدلوله، فإن الذي عليه أهل السنّة والجماعة قاطبة، أنهم يصفون الله
تعالى بما وصف به نفسه في كتابه، من غير تحريف ولا تعطيل،
ومن غير تكيف ولا تمثيل .

ثم يلزمهم في قولهم: الرحمة إرادة الإنعام، إما أن يقولوا:
إنها كإرادة المخلوقين، فنقول لهم: شبهتهم .

وإما أن يقولوا: إنها إرادة حقيقة تليق بجلال الله وعظمته،
فنقول لهم: فما يمنعكم أن تقولوا في الرحمة: إنها حقيقية تليق
بجلال الله وعظمته .

(١) ممن لم يأخذ بمعتقد أهل السنّة والجماعة .

.....

وأيضاً فما يقال في الصفات فرع عما يقال في الذات، فيجب أن نصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه، ونؤمن بما جاء عن الله على مراد الله على ما يليق بجلال الله وعظمته، ونقول: لله صفات ثابتة حقيقة لا تشبه صفات المخلوقين، كما أن لله ذاتاً حقيقية ثابتة لا تشبه ذوات المخلوقين، ونعتقد أن الصفات حقائق ولا نقف عندها، بل نستمر كما استمر الكتاب العزيز ونقف حيث وقف.

وقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَلِيدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ﴾،

(إثبات) (إثبات) (وقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾) فيه إثبات صفة الرضا رضاً يليق به، الله أعلم بكنهه وكيفيته.

صفة
الرضا
والغضب
واللعن
بالقول
والسخط
(الله)

(وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَلِيدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾) فيه إثبات صفة الغضب، وإثبات صفة اللعن بالقول، قال المصنف: «لا مانع من أن يقع اللعن من الله قولاً بالكلام» وهو ظاهر النصوص أنه يلعن من يستحق اللعن بالقول، كما أنه تعالى يرضى عمن يستحق الرضا، ويغضب على من يستحق الغضب.

(وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ﴾).

السخط: هو عدم الرضا، والسخط إلى الكراهة أقرب منه إلى الغضب، فإن الغضب يعدى بعلى، والسخط يعدى بها تارة، وبنفسه أخرى.

وبين السخط والغضب فرق واضح: كثيراً ما يقابل السخط بالرضا، والغضب لا يقابل به.

وفيه إثبات الرضا؛ فإن الله يرضى حقيقة كما أنه يسخط حقيقة.

وقوله: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اُنْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ، وقوله: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ اُنْبَعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ ، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ اَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

(وقوله: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اُنْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾) آسفونا: أغضبونا.

والأسف جاء في القرآن على معنيين: على معنى الغضب كما في هذه الآية، وجاء بمعنى الحزن، وليس هو المراد هنا، وإنما هو من صفات المخلوقين كما في قصة موسى: ﴿غَضِبْنَا اَسْفًا﴾ .

والأسف الحزين، مثل قوله: «إن أبا بكر رجل أسيف إذا قرأ القرآن»، والله سبحانه منزه عن الحزن.

وفيه إثبات صفة الانتقام.

(وقوله: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ اُنْبَعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾) فيه إثبات صفة الكراهة، أن الله يكره من يستحق الكراهة على ما يليق بجلاله وعظمته.

(إثبات الكراهة والمقت على ما يليق بجلال الله)

(وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ اَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾) فيه إثبات صفة المقت على ما يليق بجلال الله وعظمته، أن الله يمقت من يستحق المقت من الأقوال والأفعال.

وهذه الآيات، فيها إثبات هذه الصفات لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل.

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ ، ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ، ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمِّمْ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ .

(اثبات
صفة
الإتيان
والمجيء
لله يوم
القيامة)

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (فيه إثبات صفة الإتيان يوم القيامة لفصل القضاء بين عبادته، إتياناً يليق بجلاله وعظمته، لا نكيف ولا نشبهه .

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ (كالتي قبلها في صفة إتيان الرب يوم القيامة حقيقة .

وفيه ما يردُّ على المحرفين الذين يقولون: يأتي أمره، وأمره معطوف على إتيانه، وأمره لم يزل يأتي في الدنيا والآخرة. فدعواهم فيه مجاز الحذف، باطلة مخالفة للنصوص وما عليه الجمهور؛ بل يأتي تعالى بذاته على ما يليق بجلاله وكبريائه .

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا﴾ (فيه إثبات مجيء الله سبحانه على ما يليق بجلاله من غير تمثيل . وتأويل ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ بجاء أمر ربك، فاسد من جهة أنه باطل، وهو من كلام المبتدعة، وأيضاً فاسد من أمر آخر، وهو أن أمر الله لا يزال يجيء ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ .

﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمِّمْ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (هذه الآية فيها

.....

إثبات صفة، وهي إتيان الربّ يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، فإنه كما جاء في تفسيرها أن الأرض بعدما تُمدّ يوم القيامة مدّ الأديم العُكّاطيّ، فيحشر من كان في الأرض، ثم بعد ذلك تنشق السماء الدنيا، فينزل من فيها من الملائكة، فتحيط بمن في الأرض كلهم، ثم الثانية، ثم الثالثة. . الخ، ثم ينزل الربّ تعالى للفصل بين عباده ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾.

فصار فيه إثبات صفة الإتيان، لا نعلم كنهها ولا كيفيتها، مجيء حقيقةً على ما يليق بجلال الله وعظمته.

ولنعرف أن ما جاء في الآية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ أن المراد هو جبريل. وأما ما في الحديث في البخاري^(١)، فالمراد الباري جل جلاله، وهو معروف عند أهل التحقيق.

(١) ٢٧٣٠/٦، رقم ٧٠٧٩ «حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة، فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ﴾،

(إثبات
صفة
الوجه لله) هذه الآية فيها إثبات صفة الوجه على ما يليق بجلال الله وعظمته.

وفيهما وصف وجه الباري بالجلال والإكرام.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فيه إثبات صفة الوجه على ما يليق بجلال الله وكبريائه وعظمته وتقدست أسماؤه.

وهذه الصفة مما ادعت فيه الجهمية المجاز، واختلفوا في جهة مجازه، وهو باطل.

(إثبات
صفة
اليدين لله) وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ﴾ هذا قوله لإبليس تبكيتاً له، ففيه إثبات صفة اليدين لله سبحانه حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته.

وفيه إبطال قول من قال: إن اليد النعمة، فإن الله تعالى ذكر الخلق وذكر ما يخلق به. وأيضاً القدرة ما جاءت قدرتين أو نعمتين وقرن بالفعل.

فتعين أن تكون اليدين، وأنها على الحقيقة. ومثل «خلق الله آدم بيده»^(١) المراد اليد التي بها الفعل.

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ١١٤/٩.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

(﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾) فيه إثبات صفة اليدين، الأولى بالإنفراد، والثانية بالثنوية حقيقةً على ما يليق بجلال الله وعظمته.

وفيه إثبات هذا البسط. والبسط في كلام العرب هو السعة وكثرة العطاء، كما في الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ الآية.

وفيه بيان لكمال جوده سبحانه، كما أتى في قصة الخضر وموسى حين أتى عصفور فوق على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر لموسى ﷺ: «ما علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في هذا البحر»^(١)، وكما في الآية: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾، وجاء في الحديث «إحدهما يمين، والأخرى شمال، وكلتا يدي ربي يمين»^(٢).

(١) رواه البخاري ٥٦/١ رقم ١٢٢، ومسلم ٨/٤ رقم ٢٣٨٠.

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة ٣/٢٩٨، رقم ٢٢٧.

وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَجٍ وَّدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا﴾، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾.

(إثبات
صفة
العينين
الله)

وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ هذه الآية فيها إثبات صفة العينين لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَجٍ وَّدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا﴾ فيه إثبات العينين، وأتت بصيغة الجمع لتناسب ضمير العظمة، والمراد به المشى. وهذا الجمع في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ إنما هو للتعظيم، إذا صار «نا» للتعظيم، فما قبله يجري مجراه، وجاء في الحديث أنه ﷺ وضع أصبعيه على عينيه، كما تقدم^(١).

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ «عَيْنِي» مفردٌ مضافٌ جارٍ على ما تقول العرب في كلامهم: «رعتك بعيني»، ونحو ذلك، والمراد المشى.

وكذلك الثلاث فيها تشوُّه، وكذلك الواحدة، فإن في الحديث «إن ربكم ليس بأعور»^(٢)، نؤمن به ونكلُ كيفيته.

(١) في ص ٤٧.

(٢) رواه البخاري ٦/٢٦٠٨، رقم ٦٧١٢، ومسلم ٤/٢٢٤٨، رقم ٢٩٣٣.

وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ، ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ،

(وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة السمع من ثلاثة أوجه: الأول: بصيغة الماضي، والثاني: بصيغة المضارع، والثالث: بصيغة اسم الفاعل.

(إثبات
السمع لله)

وفيهما إثبات صفة البصر من غير تمثيل.

وهذه الآية نزلت في المرأة المجادلة، التي ظاهر منها زوجها، وكان لها منه عيال، وكانت فقيرة فجاءت تشتكي إلى النبي ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، إن كانت لفي البيت تُكلم الرسول ويخفي عليّ بعض حديثها، وهي تقول: يا رسول الله أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية».

(﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾) فيها إثبات صفة السمع أيضاً.

وأهل السنة يثبتون السمع والبصر، والحياة والقدرة، والعلم والكلام، وغيرها من الصفات الخبرية، كالوجه واليدين والعينين، والغضب والرضا. والصفات الفعلية كالضحك، والنزول، والاستواء على العرش، وهي صفات كمال، وأضدادها صفات نقص يُنزّه عنه

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ
يَكْتُبُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ
بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾، ﴿الَّذِي يَرِنَا حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجِدِينَ
﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

الرب، ويعتقدون لها معاني حقيقية، ويفسرونها ويبيّنونها، خلافاً
للجهمية وغيرهم.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ
يَكْتُبُونَ﴾).

أنكر تعالى على من ظن أن الله لا يسمع. يعني: بلى نسمع
سرهم ونجواهم، ورسلنا لديهم يكتبون.

(وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾) هذه الآية فيها إثبات
صفة السمع، كما أنه يسمع جميع المسموعات فكذلك يرى جميع
المرئيات.

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾) فيه إثبات أن الله يرى جميع المرئيات
والمُبصرات.

﴿الَّذِي يَرِنَا حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾) هذه الآية كالتي قبلها.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾) فيه إثبات
رؤية الله لأعمال العباد.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾، وقوله: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾، وقوله: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا .

(وقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾) أي: المماحلة، وهي العقوبة والأخذ لمن عصاه.

(وقوله: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾) هذه فيها إثبات هذه الصفة أنه يمكر مكرًا حقيقياً على وجه لا نقص فيه، على ما يليق بجلاله من غير تمثيل، بخلاف مكر المخلوق فإن فيه ما هو على وجهه، وفيه ما هو مذموم.

(إثبات
المكر
والكيد لله
على ما
يليق
بجلاله)

(وقوله: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾) فيه إثبات صفة المكر لله بمن مكر به، على ما يليق بجلال الله وعظمته، حقيقةً على وجه جميل حسن يليق به سبحانه، من غير تمثيل بمكر المخلوقين وصفاتهم. فما فيه الذم والعيب فهو منزه عنه تعالى وتقدس.

(وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا) هذه الآية فيها إثبات صفة الكيد.

ولنعرف أن ما جاء في النصوص من ذلك، أن ما كان منه على وجه مذموم لا يضاف إلى الله، لا يضاف منه إلا الوجه المحمود الممدوح الكمال.

.....

ولنعرف ما ورد بلفظ الفعل :

فتقول: لا يطلق على الله إلا ما جاء في النص، فلا يلزم من الإخبار عنه بالفعل أن يُشتق منه اسم مطلق، كالمُضَلِّ والماكر. وهنا قاعدة ذكرها ابن القيم في «المدارج» وكأنه أخذها من الاستقراء: أن الإخبار بالفعل أوسع من التسمية^(١).

(قاعدة: الإخبار بالفعل أوسع من الاسم)

(١) قال ابن القيم - رحمه الله - في مدارج السالكين ٣/ ٤١٥: «الفعل أوسع من الاسم، ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالاً لم يتسم منها بأسماء الفاعل، كأراد وشاء وأحدث، ولم يُسمَّ بالمريد والشائي والمحدث، كما لم يسم نفسه بالصانع والفاعل والمنتقن، وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء، وقد أخطأ أقبح خطأ من اشتق له من كل فعل اسماً، وبلغ بأسمائه زيادة على الألف، فسماه الماكر والمخادع والفاتن والكائد، ونحو ذلك».

وقوله: ﴿إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، ﴿وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾،

(وقوله: ﴿إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾) فيه إثبات صفة العفو والقدرة.

(وصف الله
بالعفو
والقدرة)

والعفو: أصله بواوين، لكن أدغمت الواو في الواو، فصار «عَفُوًّا» والعفو: هو الترك، ترك صاحب الجريمة عن مجازاته عليها.

والعفو - مشدداً -: الكثيرُ والعظيمُ العفوِ والتجاوزِ عن عباده.

اسمه عَفُوٌّ، وصفته عَفُوٌّ - بالتخفيف - . عفوٌ يحب العفو،

ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض عن حقه.

والعفو أكمل ما يكون وأجمله إذا كان عن قدرة، وإلا فربما يوجد عَفُوٌّ ممن يصدر منه العفو مع عدم قدرة، أو ضعف، أو يخاف أن لا يأخذ حقه. أما من عفا لا عن ضعف فهذا هو أكمل، ولذلك جاء مقروناً به القدرة، فإنه أكمل.

(﴿وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾) ففيها إثبات صفة المغفرة والرحمة، ففيها إثبات هذين الاسمين لله تعالى «الغفور والرحيم» فأفادا اتصافه بمدلولهما من الرحمة والمغفرة.

(وصف الله
بالمغفرة
والرحمة
والعزة)

وأفاد أيضاً بصفة الفعل، فكان في الآية دليلاً: الأول يغفر،

والثاني: غفور.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وقوله عن إبليس: ﴿فِعِزَّتِكَ لِأَعُوذُ بِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

والمغفرة: اشتقاقها من العُفْر وهو الستر، ومنه المِغْفَر على الرأس، فمغفرة الذنوب وقاية شرّها وسترها.

والمصنف - رحمه الله - قرر في هذه المسألة، أنه لا بد من الوقاية والستر، فإن المِغْفَر يستر الرأس ويقيه السلاح.

والقرآن لا يُسَلَّم أن يكون فيه عطف على متساويين، - مثل اسم على اسم، أو فعل على فعل -، معناهما واحد، وهو نزل بأفصح اللغات، وإلا بعض أناس يظن أن فيها عطفًا مرادفًا محضاً على مرادفه بمعانيه الكلية الكاملة، وهذا ذكره شيخ الإسلام في «الإيمان الكبير» في العطف^(١).

(وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾) هذه فيها إثبات صفة العزة، وهي مدلول اسمه تعالى العزيز. العزة: تطلق ويراد بها القوة والغلبة.

(وقوله عن إبليس: ﴿فِعِزَّتِكَ لِأَعُوذُ بِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾) فيها إثبات صفة العزة، وهي مدلول اسمه العزيز.

(١) مجموع الفتاوى ٧/١٧٢.

وقوله: ﴿بَرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَأَصْطِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾،

(وقوله: ﴿بَرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾) تبارك أي: بلغ في البركة النهاية والغاية، والنفع والسعة، والبركة: هي كثرة النفع.

وفي هذه الآية إثبات الأسماء لله سبحانه، والمراد بالاسم: جنس جميع الأسماء، فإنه مفرد مضاف إلى معرفة، فشمّل وعمّ جميع الأسماء، فدل على أن الله سبحانه أسماء، وأنها بلغت في كثرة النفع والخير الغاية.

وفيها إثبات صفة الجلال والإكرام لله سبحانه وتعالى.

(وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَأَصْطِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾) هذه الآية فيها أنه لا سمي له، استفهام بمعنى النفي العام، أي: لا أحد يستحق لاسمه، ولا مساوي له، ولا مساوي. هذا من النفي العام.

(﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾) الكفو: المساوي، لم يكن له مساوياً أحد، لكماله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته. وهذا من النفي العام مراد منه الكمال، فهو مقصود لغيره، بخلاف الإثبات المفصل فإنه مقصود لذاته وتقدم^(١)، وهذه طريقة الكتاب العزيز في النفي - النفي المجمل -، نفي ما لا يليق بالله نفياً مجملاً.

(إثبات
الأسماء لله
ونفي
المثيل
عنه)

(١) في ص ٢٨.

وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

(وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾) الند: المثل والشبيه، هذا من النفي المجمل، يعني: لا مثل له ولا نظير.
(﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾) أنداداً: أشباهاً ونظراء، إنكار على الناس الذين يتخذون الأنداد مع الله، فهذه الآية من النفي المجمل، وكذلك نظائرها كقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾.

﴿وَقِيلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا﴾،

(﴿وَقِيلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا﴾) هذه الآية يقال لها: آية العز. وجاء
في بعض الأخبار أو الآثار، أن البيت الذي تقرأ فيه هذه الآية، يأمن
أهله من السراق^(١).

(إثبات
الكمال
المطلق لله،
وتنزيهه
عن جميع
النقائص
والعيوب)

هذه الآية فيها إثبات جميع الحمد لله سبحانه، لذاته ولأسمائه
وصفاته، وعلى قضائه وقدره. واستحقاقه للحمد سبحانه، يفيد أنه
متنزه عن جميع النقائص، إذ استحيل ثبوت الحمد لمن ليس كذلك.

(﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾) إلى آخر الآية، كل جملة من جملها
من النفي المجمل، ففيه نفي الولد لمنافاة ذلك لكمال صمديته وغناه
سبحانه، فإنه الغني بذاته عن كل ما سواه.

(﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾) فيه نفي الشريك في الملْك،
لمنافاته لوحدانيته سبحانه.

(﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾) ليس له من خلقه أولياء يتعزز بهم
من ذلة، ولا يتكثَّر بهم من قلة، كما يكون للمخلوق ولي يعزه
وينصره، فهو الغني عن ذلك كله الوليُّ الناصر، يعني: لا يحتاج
لأنصار ينصرونه من الذل - سبحانه -، وإنما اتخذ أولياء من أهل

(١) قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره ٧١/٣: «وفي بعض الآثار أنها ما قرئت في
بيت ليلة فيصيبه سراق أو آفة، والله أعلم».

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

طاعته، لكن لا من الذل، وهو والاهم، بأن هداهم إحساناً منه تعالى، وهم والوه بالذل والخضوع.

﴿وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ كبره: عظمه، تكبيراً: تعظيماً. وهذا يفيد أنه الكبير الذي لا أكبر منه تعالى، وفيه وصفه بالكبرياء والعظمة، فهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء. وفيه أكديّة تعظيمه وإجلاله.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾) التسبيح: التقديس والتنزيه. جميع من في السموات والأرض يسبح، منها ما هو تسبيحه بلسان الحال، ومنها ما هو بلسان المقال كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فجميع الكائنات ناطقة بتسبيحه وتمجيده.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد متصف بصفات الكمال، منتزه عن جميع النقائص والعيوب.

﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾) هذا فيه إثبات الملك المطلق لله سبحانه من جميع الوجوه، وفيه إثبات صفات الكمال، إذ استحيل ثبوت الملك لمن ليس كذلك.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾) هذا فيه إثبات الحمد لله.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾) هذا فيه إثبات القدرة لله سبحانه

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ .

على جميع المخلوقات - الموجودات والمعدومات والممكنات أن توجد - فهي مشمولة بقدرته . وقول بعض العلماء كما يذكره ابن كثير: «إنه على ما يشاء قدير» ذهول منه .

وبعض المبتدعة ينكر قدرته إلا على ما يشاء، وأما ما لا يشاء فلا، وقد رد المصنف وبيّن بطلان ما ادعوه بالبراهين الواضحة القاطعة كهذه الآية ونظائرها، من أنه سبحانه على كل شيء قدير، مما يريده ومما لا يريده .

والقدرة والعلم من أشمل صفاته سبحانه وتعالى، فما من شيء إلا وهو مشمول بالعلم، وهو أشمل من القدرة، فالعلم يشمل العلم بالذات وبالأسماء والصفات وبالمخلوقات، فهو أعلم بنفسه وبغيره، والقدرة تشمل جميع المخلوقات، ولا تشمل الذات والأسماء والصفات، لأنها لا تقبل تصريفاً ولا تبديلاً، وهذا مستثنى بالعقل .

(وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ .)

تبارك: تعظيم، بلغ في البركة نهايتها وغايتها . والبركة: كثرة النفع وكثرة الخير، يعني: بلغ فيها النهاية .

وهذه الصيغة تفاعل جاءت في القرآن مطّردة في حق الله تعالى

.....

خاصة، فلا يجوز إطلاقها على المخلوق، فلا يقال: تباركت علينا ونحو ذلك، فإن الله هو المتبارك والعبد هو المبارك.

(﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾) هذا أحد أسماء القرآن، وسمي فرقاناً لفرقه بين الحق والباطل.

(﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾) يعني: محمداً ﷺ، هذه هي العبودية الخاصة، وذلك أن أشرف حالات العبد، ما يكون فيه طاعة خالقه وموجده، فإن شرف المخلوق بطاعة خالقه.

(﴿يَكُونُ لِلْعَلَمِينَ﴾) للخلق، وهم الثقلان.

(﴿نَزِيرًا﴾) للذين فيهم أهلية للندارة وأهلية للتكليف.

(﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾) هذا فيه تفرده بملك السموات والأرض، فيفيد اتصافه بصفات الكمال، وتنزهه عن جميع النقائص والعيوب.

(﴿وَلَمْ يَنْحِذْ وَلَدًا﴾) نفي الولد لمنافاته صمديته تعالى.

(﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾) نفي الشريك لمنافاته لوحدانية الباري - جل جلاله - .

(﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾) فيه تفرده بخلق كل شيء.

(﴿فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾) هيئته تهيئة، كل شيء على ما يناسبه ويشاكله، فأول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: رب وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. فأفادت هذه الآية الإيمان بالقدر.

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١) عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿﴾ ،

(﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١) عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿﴾) هذا فيه نفي الولد عن الله، ونفي الإله مع الله. نفي الولد عن الله لمنافاة الولد لصمديته. و«ولد» نكرة في سياق النفي، وقد دخلت عليها «من» فصار من أبلغ النفي.

(﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ﴾) لجميع المخلوقات (﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾) لو قُدِّرَ - تعالى الله وتقدس - أن مع الله إلهاً ثانياً لهذا الوجود ويستحق أن يعبد، للزم أن يذهب كل إله بما خلق، لا تَتَّحِدُ ولا تتفق إرادتهما، ولو اتفقت وقتاً ما، ما اتفقت إلى الأبد، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ .

(﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾) وللزم من ذلك أن يعلو بعضهم على بعض، فلما كان الوجود خالياً من هذا، تبين أن الله هو المستحق أن يفرد بالعبادة.

وهذه الآية سيقت لتقرير توحيد الألوهية والعبادة، وأن الله هو المستحق أن يعبد وحده دون كل من سواه، كما قرره الشيخ تقي الدين وتلميذه ابن القيم.

وزعم طائفة من المتكلمين، أنها سيقت لنفي التمانع.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ .

والصحيح : أن دليل التمانع عقلي ، وأن الآية لم يقصد بها ذلك ، وإنما كان المقصود بها أفراد الله بالعبادة ، وإن كان يلزم من ذلك ويقتضي صحة التمانع من ضمنها ، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١) عَدِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا فيه منع ضرب الأمثال لله سبحانه وتعالى ، فيفيد أنه تعالى لا مثل له ، إذ لو كان له مثل - تعالى الله وتقدس عن ذلك علواً كبيراً - لما نهى عن ضرب الأمثال له ، فلما نهى عن ضرب الأمثال له ، عُلم أنه سبحانه لا مثل له ، وهذا من أعظم ضروريات العقل ، أنه لا يماثله شيء من خلقه تعالى .

وقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ هذه الآية الكريمة جمعت أصول المحرمات متنقلاً فيها من الأدنى إلى الأعلى . فأدنى المحرمات ﴿الْفَوَاحِشُ﴾ ، ثم ﴿الْإِثْمُ﴾ وهو أعظم من الفواحش ، ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهو أعظم من الإثم ، ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ وهو أعظم من البغي بغير الحق ، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ هذا أعظم من الشرك ، وإنما كان أعظم ؛ لأنه يستلزم الشرك وزيادة .

(أعظم
المحرمات
واقسامه)

فأعظم المحرمات : القول على الله بلا علم ، وإذا عرفت أنه

أعظم هذه المحرمات، فالقول على الله بلا علم أقسام:
القول على الله بلا علم في أوامره ونواهيه، وشرعه ودينه،
وتحليله وتحريمه.

والقول عليه بلا علم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.
فالقول على الله بلا علم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله،
أعظم من القول عليه بلا علم في أوامره ونواهيه، وشرعه ودينه،
وتحليله وتحريمه، وأعلى مرتبة في التحريم، وإن كان في الثاني ما
يرجع إلى تنقصه في أسمائه وصفاته، ومعلوم أن من أثبت لله صفة،
أو اسماً ما أثبتته لنفسه، أو نفى عنه ما اتصف به، فهو قائل عليه بلا
علم، وهو مخالف للكتاب والسنة والشرع والقدر، كاذب ضال عن
الصراط المستقيم، فإن قُوى العباد لا تقدر أن تصل إلى شيء من
ذلك بعقولها ولا بأفهامها، ولا طريق إلى ذلك إلا بالكتاب والسنة،
والسالم الناجي يوم القيامة، هو الناطق بما نطق به الكتاب والسنة
والواقف حيث وقف. فنؤمن بما جاء عن الله وبما جاء عن
رسول الله، نؤمن باللفظ والمعنى جميعاً، ونعتقد حقيقة على ما
يليق بجلال الله وعظمته.

(أهل السنة
والجماعة
يؤمنون
باللفظ
والمعنى
جميعاً)

وبهذا تعرف أن طائفتي الضلال والانحراف من نفاة الصفات،
هم أعظم القائلين على الله بلا علم، سواء بجحد أو تعطيل، أو
تكييف أو تمثيل.

وإنما سلم من القول على الله بلا علم، من اتبع النبي الكريم،
وأصحابه والتابعين، المقتفين لهديه الكريم.

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ في سبعة مواضع،

(إثبات استواء الله على عرشه استواء يليق بجلاله لا كاستواء المخلوقين)

(وقوله) تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ في سبعة مواضع) كل واحد فيه التصريح باستواء الله على العرش، وهو من أدلة علو الربِّ وفوقيته، وفسر السلف ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ بأربعة أشياء: بعلا، وبارتفع، وباستقر، وصعد، ولم يجيء في الكتاب والسنة أنه استوى على مخلوق آخر، أو على المخلوقات جميعها، بل ما جاء إلا خاصاً بالعرش فدل على إثبات الاستواء على العرش لا كاستواء المخلوقين. وكُنْه ذلك وكيفيته إلى الله، قال مالك - رحمه الله - لما أتاه رجل فسأله، فقال: استوى! كيف استوى؟ فسكت مالك - رحمه الله - حتى علت الرُّحْضَاءُ - العرق - فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ثم أمر بإخراجه عنه، وقال: أراك رجل سوء - يعني: مبتدع - أخرجوه عني» وهذا مثله لشيخه ربيعة، وروي عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً عليها، وروي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم والموقوف أصح. وهذا له بالحرف والمعنى، وهو لجميع أئمة أهل السنة السلف والخلف بالمعنى، كالإمام أحمد، والليث بن سعد، وإسحاق بن راهويه.

(معنى الاستواء معلوم والكيف مجهول)

وقوله: «معلوم» أي: لفظه ومعناه من كلام العرب الذي نزل القرآن بلغتهم، وليس المراد بمعرفة لفظه ومعناه، أن هذه الأحرف مجتمعة، معلومة الاجتماع وأن تركيبها كذا.

«والكيف مجهول» علمه وحقيقته موكولة إلى الله لا يعلمه الخلق، ولا يصلون إليه لا شرعاً ولا قدراً، بل لا يليق أن تصل قوى البشر أن يحيط المخلوق بكنهه الخالق؛ بل هو سبحانه يُعلم ولا

يُحاط به علماً، نعلمه بما أعلمنا، وأما إدراكه على ما هو عليه فلا، بل ممنوع التفكير في ذلك وعبث، فَمَنْعُ «كيف» في صفات الله كمنع «لِمَ» في أفعال الله، مُنِعَ «كيف» بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ومُنِعَ «لِمَ» بقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

ونعرف هذا في الذات ونعرفه في الصفات. ونقول: معنى الرضا والغضب والمحبة ونحو ذلك معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

(قاعدة في
جميع
الصفات)

فإذا عرفت أنه جاء استواؤه تعالى على العرش مطرداً في النصوص في القرآن والسنة، ولم يجيء استواؤه على غير العرش ولا في موضع واحد، وتفطنت لذلك وتنبهت له، عرفت صحة قول أهل السنة والجماعة في ذلك. هذا دليل واضح لأهل السنة والجماعة، في أنه استوى على العرش حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته.

وقد حرفت الجهمية وألحدت وقالوا: استولى على العرش، وزعموا أن هذه النصوص لا تدل إلا على الاستيلاء، فزادوا «لاماً» كما زادت اليهود نوناً^(١).

(الرد على
من حرف
الاستواء
بالاستيلاء)

ويقال لهؤلاء المبتدعة: الاستيلاء مشترك بين المخلوق والخالق، ثم أيضاً الاستيلاء لا يكون إلا لمن كان مغلوباً ثم غلب، وهذا لا يجوز في حق الله تعالى، فإنه ليس مغلوباً - تعالى على

(١) لما قيل لهم: ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ جعلوا يزحفون على استاهم وهم يقولون: حنطة في شعيرة.

عرشه - حتى يقهر من غلبه ويستولي عليه، وإنما يقال هذا في حق
المخلوق المغلوب على الشيء.

ثم يقال لهؤلاء المبتدعة: أثبتون استيلاءً من جنس استيلاء
المخلوقين؟

فإن قالوا: نعم، قيل لهم: شبهتهم، وهم لا يقولون ذلك.

وإن قالوا: لا كاستيلاء المخلوقين، فيقال لهم: لم لا تقولون
استواء يليق بجلال الله وعظمته، وتلجئون إلى ما أتى به الكتاب
والسنة وتسلمون من التشبيه؟!

وهذا خذُه معك في جميع الصفات، كالإرادة، فإنه ما من
محذور يظنه المبتدع، إلا ويقع في مثله ونظيره، أو شر مما فر منه
وأشد، ولو قصد التنزيه.

(حجة
دامغة على
منكري
الصفات)

وهذه الآيات السبع على قسمين:

منها: ما فاعلُ الاستواء فيها ضمير مستتر «هو» يعود على الله
سبحانه، يعني: ربكم.

(فائدة
بديعة)

ومنها: ما هو اسمٌ مُظَهَّر مرفوع، وهو في آية الفرقان
﴿الرَّحْمَنُ﴾، والسرف في ذلك - والله أعلم - : أن العرش أوسع
المخلوقات، ورحمته وسعت كل شيء، فاستوى بأوسع صفاته على
أوسع مخلوقاته.

في سورة الأعراف قوله: ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، وقال في سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، وقال في سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، وقال في سورة طه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ ،

(في سورة الأعراف قوله: ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾) وتعرف أن الإتيان بـ «ثُمَّ» على بابها، وقد حاول بعض المبتدعة أن لا يجعلها على بابها، فالاستواء أمر زائد على مطلق العلو، ومطلق العلو دل عليه السمع والعقل. والاستواء دل عليه السمع فقط، وهو صفة فعل زائد على مطلق العلو؛ فإن العلو أقسام ثلاثة: علو الذات على جميع المخلوقات وهو صفة فعل كما تقدم. والثاني: علو القدر والشرف. والثالث: علو السلطان والقهر والغلبة. وله سبحانه العلو بجميع الوجوه.

(الفرق بين الاستواء والعلو: الاستواء أمر زائد على مطلق العلو، وهو أخص منه ودل عليه السمع فقط)

(وقال في سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾).

(وقال في سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾).

(وقال في سورة طه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾).

وقال في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ ،
 وقال في سورة ألم السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، وقال
 في سورة الحديد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ .

(وقال في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾) ثم
 السر في اختصاص العرش بالاستواء، وذكر فاعل الاستواء باسم
 الرحمن، لأمرين: سعة الرحمة، وسعة العرش.

(وقال في سورة ألم السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾).

(وقال في سورة الحديد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي
 سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾).

والاستواء على العرش، نوع من أنواع العلو وهو أخص منه .
 وطرق إثبات العلو واحد وعشرون طريقاً، ذكرها ابن القيم في
 النونية .

أحدها: العقل الصريح .

والثاني: نصوص الاستواء على العرش، ويشير المؤلف إلى
 بعضها قريباً .

وكل دليل من أدلة العلو تحته أفراد أدلة، منها ما يبلغ مائة من
 الكتاب والسنة، وأقلها يبلغ إلى خمسة أدلة أو ستة، فجميعها يبلغ

.....

ألف دليل، وكلها نصوص تدل على أنه فوق مخلوقاته على عرشه،
من غير تكييف ولا تمثيل، كما قال ابن المبارك - رحمه الله - لما
سئل بماذا نعرف ربنا؟ قال: «بأنه فوق سمواته على عرشه، بئن من
خلقه».

وكل دليل يصلح للاستواء، فهو دال على العلو، ولا عكس.

وقوله: ﴿يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَرَافِعَكَ إِلَىٰ﴾ ، ﴿بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ، ﴿يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ .

(إثبات) (وقوله: ﴿يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَرَافِعَكَ إِلَىٰ﴾) هذا من جملة
نصوص العلو، إثبات علو الربّ وفوقيته، الرفع لا يكون إلا من
أسفل إلى فوق، - من الأدنى إلى الأعلى - . و﴿إِلَىٰ﴾ للانتهاء.
﴿بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾) كذلك هذه الآية مثلها.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾) هذه دالة
على علو الربّ وفوقيته من جهتين:

الأولى: قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ ، والصعود لا يكون إلا من
الأسفل إلى فوق .

والثاني: قوله: ﴿يَرْفَعُهُ﴾ فمن قال كلاماً طيباً، وشفعه العمل
الصالح، فإنه يرفعه العمل الصالح إلى الله، فدل على أن الله في
العلو .

فهذه ثلاث نصوص من أحد وعشرين .

وقوله: ﴿يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾﴾ أَسْبَابَ
السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ .

﴿يَهْمَنُ﴾ وزيره ﴿ابْنُ لِي صِرْحًا﴾ الصرح: هو البناء المرتفع،
﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ﴾ وأصل ﴿الْأَسْبَابَ﴾: الطرق ﴿أَسْبَابَ﴾: طرق

وقوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ .

﴿السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ﴾ فأشرف وأنظر ﴿إِلَىٰ إِلَهٍ مُّوسَىٰ﴾، هذا من حماقة فرعون وجهالته، ينكر ما جاء به موسى جُمْلَةً، وينكر ربه، وينكر علوه، وهذا كذب منه وتلبيس به على رعاياه من غير إتيان ببرهان، فهو إمام الجهمية والمعتزلة وفروعهم، كما أن إمام أهل السنة سيد المرسلين .

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ كَذَبَ موسى وهو الكاذب الجبّار الجاحد الكافر، وموسى ﷺ هو البارّ الصادق، وإنما قال ذلك؛ لأن موسى أخبره أن معبوده فوق السموات، فقال ذلك مكذباً لما قاله موسى، فإن فرعون معطل جاحد، ولهذا قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾، وهذا يفيد أن موسى ﷺ بيّن أن معبوده فوق السموات .

فعرفت أن إثبات العلو هو مسلك المرسلين وأتباعهم الصالحين، وجحده مذهب فرعون اللعين وأتباعه الجهميين الضالين، لأنه يرجع إلى لا شيء .

(وقوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ .)

﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع لمن أمن ذلك، أن يعاقب على كفره، ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ (١٦)

.....

أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿١٠﴾ .

هاتان الآيتان فيهما إثبات علو الربّ وفوقيته، فإن ﴿فِي﴾ في الآيتين إما أن تكون بمعنى «على» كما في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل، وكقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عليها، فالمعنى أأمنتُم من على السماء.

وإن كانت على بابها وهي الظرفية، فيكون المراد بالسماء العلو، فالله في العلو المطلق، وقد سئل ابن المبارك بماذا نعرف ربنا؟ فقال: «بأنه فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه».

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا

(إثبات معية
الله لخلقه)

قد تقدمت نصوص الاستواء، وكذلك نصوص العلم، ومقصوده بسياق هذه الآيات إثبات صفة المعية، وأن الله مع خلقه معية حقيقية تليق بجلال الله وعظمته.

والمعية: عامة، ومقتضاها: العلم والقدرة، والإحاطة والاطلاع.

وخاصة، ومقتضاها: مقتضى المعية العامة والحفظ والتأييد، والكلاءة والنصر. فهي تقتضي ما تقتضيه العامة وزيادة.

(وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾) هذه الآية فيها إثبات صفة المعية العامة، أن الله مع خلقه حيث ما كانوا على المعنى الذي يليق بجلاله.

﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا

عَمَلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾ ،

عَمَلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾ هذه كالتي قبلها في إثبات صفة المعية العامة، وفيها إثبات صفة العلم، وابتدأ به واختتمت به، وسيقت لمقتضاها وهو العلم.

والدليل على أن هذا مقتضاها: كونها مبدوءة بالعلم ومختتمة به، كما أن من مقتضاها القدرة والاطلاع ونحو ذلك.

وتطلق في حقه تعالى ولا تقتضي امتزاجاً ولا اختلاطاً أبداً، وليس معيته تعالى مع خلقه كمعية الخلق بعضهم مع بعض، واختلاط بعضهم ببعض، - تعالى الله وتقدس عن أن يشابهه شيء من خلقه -، فكما نقول: إن لله صفاتاً تليق بجلاله وعظمته مختصة به، لا يَشْرُكُهُ فيها أحد، ولا يشاكلة فيها أحد، فكذلك نقول في المعية.

والذي حمل بعض السلف على تفسيرها ببعض مقتضاها: (لماذا فسر

بعض السلف
المعية ببعض
مقتضياتها؟)

أولاً: أنهم ابتلوا بمن ينفي العلو ويقول: إنه ممتزج بالخلق، ففسروها بالعلم، رداً على الحلولية من الجهمية الذين زعموا أنه في كل مكان، وأنكروا علوه على خلقه واستواءه على عرشه. فهذا الذي من أجله قالوا بعلمه، وإلا فمعنى المعية عندهم واضح كالشمس.

ثانياً: أن التفسير بالمقتضى سائغ، ووجه من أوجه التفسير.

وأهل وحدة الوجود الذين يقولون: إن الوجود واحد ليس فيه خالق متميز عن مخلوق، هم وأهل الاتحاد شيء واحد، وهم أعظم من أهل الحلول. أهل الحلول يقولون: هنا إله، لكنه حل في

وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾، ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

المخلوقات - والعياذ بالله - . ويأتي فصل في بيان الجمع بين العلو والمعية^(١).

(وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾) هذه الآية فيها إثبات المعية الخاصة، ومقتضاها الحفظ والكلاءة، يعني: ولا يترك الأعداء يتولونا، بل يتولانا ويكلؤنا، فمقتضاها مقتضى العامة وتزيد على ذلك بما سيقت له وخص بها، وهي النصر والكلاءة، والحفظ والتأييد، ونحو ذلك كما تقدم.

(المعية
الخاصة)

وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾) يعني: موسى وهارون، وهذا من المعية الخاصة أيضاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾) هذه مثل ما تقدم، فيها إثبات المعية الخاصة أيضاً.

﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾) هذا فيه إثبات المعية الخاصة أيضاً.

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾) هذا مثل ما تقدم، فيه إثبات المعية الخاصة أيضاً،

(١) في ص ١٣١ .

.....

معية تليق بجلال الله وعظمته؛ كونه مع أهل القيام بما أمر به من الصبر والطاعة، وغير ذلك بحسب مواطنها، فإنها في الآيات كما بيّن لك. وتقدم بيان مقتضاها.

فالمعية في النصوص معيتان:

عامة: كما في آية الحديد والمجادلة.

وخاصة: كما في هذه الآيات ونظائرها.

وكلا المعيتين لا تقتضي الامتزاج والاختلاط، فهو تعالى على العرش حقيقة، ومع خلقه حقيقة.

وأما القرب فلم يرد إلا خاصاً، وهو قرب من عابديه وسائليه فقط، كما ورد في النصوص.

(المعيتان)
لا تقتضي
امتزاجاً
ولا
اختلاطاً
والفرق
بينها وبين
(القرب)

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ ، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ،

(وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾) فيه إثبات صفة الكلام، وأن الله متكلم حقيقة، وفيه تسميته بالحديث وهو مثل القول.

(إثبات
صفة
الكلام لله)

(﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾) فيه إثبات صفة الكلام، وتسميته «قِيلًا»، وأن الله «قِيلًا».

(﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾) فيه إثبات أن الله قال، فأسند القول إلى فاعله، وهو من صدر منه القول، فإنه قال ويقول.

(﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾) فيه إثبات صفة الكلام. الكلمة في لغة العرب لا تطلق إلا على الجملة المفيدة.

(﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾) فيه إثبات صفة الكلام، ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد لعامله ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾ وهو يرجع إلى التأكيد اللفظي، لرفع توهم غير إرادة الحقيقي.

والأصل في الكلام هو الحقيقة ولا يصار إلى المجاز إلا لموجب، وأن الله تعالى كلم موسى كلاماً حصل من الله تعالى وسمعه موسى، فدل على أن الله كلم موسى حقيقة، وأنه سمع كلام الله حقيقة.

وقد حاول بعض الجهلة المبطلين المنكرين لكلام الله، أن تكون القراءة بالنصب، يريد أن يكون موسى هو الذي كلم الله، وأن

﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ ، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ ،
 ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ، ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ
 مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن
 تِلْكَمَا الشَّجَرَةَ﴾ ،

يكون الله غير مكلّم، وقاله لأحدِ أهل السنّة فقال له: ما تصنع بقوله: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾؛ لأن قواعد العربية تأبى ذلك، فبهت الجاهل، فهو ظاهر في أن الله هو المتكلّم وأن موسى هو المكلّم، فهذه الآية لا يتمكن الجهمي من تحريفها.

﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ فيه إثبات صفة الكلام أيضاً.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ هذه الآية فيها إثبات صفة الكلام من وجهين:

الأول: قوله ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾، والنداء نوع من أنواع الكلام وهو من بُعد.

والثاني: قوله: ﴿نَجِيًّا﴾ وهو نوع من الكلام، وهو يكون من قُرب، وكلُّ جاء في القرآن، جاء الكلام مطلقاً وجاء النداء والنجاء.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه إثبات صفة الكلام.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكَمَا الشَّجَرَةَ﴾ فيه إثبات صفة الكلام.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

(﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾) ، وكذلك قوله :
﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فيه إثبات صفة
الكلام لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته من غير
تمثيل .

ومذهب أهل السنّة والجماعة أن الله موصوف بالكلام، وأنه
متعلق بمشيئته وقدرته، لم يزل متكلماً إذا شاء، ومتى شاء، فكما أنه
تعالى لا يشبهه شيء من مخلوقاته في ذاته ولا في أسمائه وصفاته،
فكذلك في كلامه .

(مذهب
أهل السنّة
في كلام
الله)

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ ، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّن نَتَّبِعُونَكَ كَذَلِكَ قَالِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ ، ﴿وَأْتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ ،

(القرآن كلام الله) ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ المراد به القرآن، فيه إثبات صفة الكلام. وفيه إضافة الكلام إلى الله، والكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئاً، لا إلى من قال وبلغ مؤدياً. الإضافة إنما تكون لمن صدر منه الكلام، وجاء ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وإضافته إلى الرسول إضافة تليغ.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾) فيه إثبات صفة الكلام كالتالي قبلها، فدل على أنه كلام الله حقيقة حروفه ومعانيه، بدليل ما في هذه الآية أنهم يحرفون اللفظ والمعنى.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّن نَتَّبِعُونَكَ كَذَلِكَ قَالِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾) فيه إثبات صفة الكلام، وفيه إضافته إلى الله، فدل على أن القرآن العزيز كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف.

هذه آيات ثلاث فيها إضافته إلى الله، والقرآن نزل بلغة العرب، إذا أضيف الكلام إلى أحد فإنه يدل على أنه أول من قاله.

﴿وَأْتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾)

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ﴾ .

فيه إثبات صفة الكلام، وفيه أن القرآن متلو، وأنه كلمات .

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ﴾ (فيه إثبات صفة الكلام .

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن الموجود أنه كلام الله حروفه
ومعانيه، إذ الإشارة إلى الجميع، والقرآن هو ما بين الدفتين، المنزل
على رسول الله ﷺ، المحفوظ في صدور المسلمين، الذي يتلوه من
حفظه من المسلمين، المسموع بالآذان، فالإشارة إلى مراتبه كلها
موجود محفوظ متلو مسموع، فالقرآن له أربع نسب: متلو،
ومسموع، ومكتوب، ومحفوظ، وكل واحدة من هذه النسب لا
تخرجه عن أن يكون كلام الله حروفه ومعانيه .

(مراتب
القرآن)

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ ، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٧٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيَّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٧٣﴾﴾

(القرآن) ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾) كذلك، هذه إشارة إلى القرآن
 مفزل غير مخلوق) حروفه ومعانيه، وفيه أن القرآن منزل غير مخلوق. وفيه الدلالة على
 علو الله وفوقيته.

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾) الإشارة إليه بجميع مراتبه كلها، وإلى حروفه ومعانيه.
 ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾)
 الآيات. دال على أنه منزل. وجاء في القرآن تسميته سوراً كما في قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ الآية. وجاء في هذه الآية وغيرها أنه آيات وكلمات وحروف، كما في قوله ﷺ: «من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات» الحديث^(١)، فدل على أن القرآن كلام الله: السور والآيات والكلمات، والحروف والمعاني.

(١) رواه الطبراني في الأوسط ٣٠٧/٧ عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أعربوا القرآن، فإنه من قرأ القرآن فأعربه، فله بكل حرف عشر حسنات، وكفارة عشر سيئات، ورفع عشر درجات».

وقوله: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّاظِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ، ﴿عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ ، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ،

(وقوله ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّاظِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ .

﴿نَّاظِرَةٌ﴾ - بالضاد - من النظارة وهي الحسن، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ من النظر وهو المعاينة، يراه المؤمنون في الجنة ولا يحيطون به رؤية لعظمته وجلاله، كما أنه يعلم ولا يحاط به علماً، وقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ معناه لا تحيط به، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، ففيه إثبات صفة النظر إلى الله تعالى عياناً بالأبصار، وهو أعظم لذة في الجنة.

(﴿عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾) الأرائك: جمع أريكة، يعني: في مجالسهم ينظرون إلى ربهم، - من النظر وهو المعاينة -، فلا نعيم ينظر إليه، ولا سماع ألدّ من سماع كلامه ونظره تعالى، كما جاء في الحديث «اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك»^(١)، كما أنهم كانت أعظم لذتهم في الدنيا سماع كلامه، وكما رأته عين بصائرهم في الدنيا حتى كأنهم يرونه على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل، والكفار ما رأته عين بصائرهم في الدنيا، فكذا في الآخرة لا تراه أعين أبصارهم، فأهل الشقاء في جحيم الدنيا قبل جحيم الآخرة، وأهل الإيمان في جنة في الدنيا وفي الآخرة.

(﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾) الزيادة: هي النظر إلى وجه

الله تبارك وتعالى .

(١) رواه النسائي في الكبرى ٣٨٧/١، رقم ١٢٢٨، وابن حبان ٣٠٥/٥، رقم ١٩٧١.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

(﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾) والمزيد: هو النظر إلى وجه الله تعالى، ومن قال إن الزيادة على حسب الأعمال فلا منافاة بينهما؛ لأن أعلى المزيد هو النظر إلى وجه الله تعالى.

ففي هذه النصوص الأربعة إثبات الرؤية. فدل على أن المؤمنين يرونه في الجنة، ويرونه في عرصات القيامة كما يشاء الله.

وهذا الباب في كتاب الله كثير، من تدبر القرآن طالباً
للهدى منه، تبين له طريق الحق.

(وهذا الباب) باب الآيات المشتملة على الصفات (في كتاب
الله) القرآن (كثير، من تدبر القرآن طالباً للهدى منه، تبين له طريق
الحق)، ولا أراد أن هذا الذي سيق وأُثبت لإثبات الصفات هو الذي
في القرآن كله، بل في القرآن آيات كثيرة غير محصورة هنا، ساق
المصنف منها طرفاً صالحاً، وهو كثير بالنسبة إلى هذه العقيدة
المختصرة.

ومع أن هذه وجيزة مختصرة، فقد أتى بنوع كثير منها، وله
غرض في الإكثار من الآيات:
أولاً: أنه يصير من محفوظاته^(١) غير حفظه للقرآن.
ثانياً: أهل البدع أثقل شيء عليهم سماع نصوص الصفات^(٢).

(الآيات
المشتملة
على
الصفات في
القرآن
كثيرة)

(لماذا أكثر
المصنف
من إيراد
آيات
الصفات؟)

(١) أي: طالب العلم.

(٢) (عبارة أخرى) بل المصنف كرر وأكثر في هذه العقيدة بالنسبة إليها، وإلا فالنص
الواحد كافٍ، لكن لأجل كونه صواعق على الجهمية حتى تعرف الحق، ثم هذه
النصوص ساقها المصنف من القرآن على إثبات الصفات وبالآيات الكثيرة، لتكون
صواعق عليهم.

فصلٌ في سنَّة رسول الله ﷺ

فالسنة تفسر القرآن وتبينه، وتدلل عليه، وتعبّر عنه، وما وصف الرسول به ربه عز وجل من الأحاديث الصحاح

(فصل)

(في سنَّة رسول الله ﷺ) يعني: فيما ورد من نصوص الصفات من الأحاديث النبوية، فإن النبي ﷺ أوتي الكتاب والحكمة، والمراد بها السنة كما جاء في الحديث: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^(١) يعني: السنة، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَطُّقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

لما ذكر المصنف - رحمه الله - القسم الكبير، والمقدار الكثير من نصوص الكتاب العزيز المثبتة لصفات الله تعالى، ذكر من السنة المطهرة مقداراً كثيراً وقسماً كبيراً، ليكون قد جمع في صفات الله سبحانه وتعالى بين ما أثبتته الكتاب والسنة، وإن كان أحدهما يكفي لكن بهما أبلغ.

(فالسنة تفسر القرآن) ولا تخالفه أبداً، (وتبينه): إيضاح له، (وتدل عليه): دلالة عليه (وتعبّر عنه).

(وما وصف الرسول به ربه - عز وجل - من الأحاديث الصحاح

(١) رواه أحمد ٤/١٣٠.

التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول، وجب الإيمان بها كذلك .

التي تلقاها أهل المعرفة) والإيمان (بالقبول، وجب الإيمان بها كذلك)، كما وجب الإيمان بالقرآن وهما الوحيان، وغلظ ﷺ فيمن اكتفى بالقرآن والدلالة به ويترك السنّة، فقال ﷺ: «إن ما حرم رسول الله كما حرم الله»^(١).

(١) رواه الترمذي ٣٨/٥، رقم ٢٦٦٤.

مثل قوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفري فأغفر له؟» متفق عليه.

(إثبات) نزول الرب إلى السماء الدنيا كل ليلة على ما يليق بجلاله) مثل قوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفري فأغفر له؟» متفق عليه) هذا حديث صحيح شهير، قال ابن عبد البر ما معناه: «إنه حديث شهير تلقته الأمة بالقبول»^(١).

هذا الحديث فيه وجوب الإيمان بجمل من الصفات:

ففيه إثبات صفة نزول ربنا كل ثلث الليل الآخر على ما يليق بجلال الله وعظمته، نزول حقيقي لا يعلم كنه ولا كيفية نزوله إلا هو، وكذلك سائر صفاته.

فإذا قال لنا المبطل الجاحد النافي: كيف ينزل ربنا؟

قلنا: كيف هو؟ فإن القول في الصفات كالقول في الذات، يُحتذى حذوه ويقاس عليه، فكما أن إثبات الذات إثبات وجود حقيقة لا يعلم كنهها وكيفيةها إلا هو تعالى، فإثبات النزول إثبات وجود حقيقة لا يعلم كنهه إلا هو تعالى.

(١) التمهيد ١٢٨/٧ ونصه: «وهذا حديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث في صحته، وهو حديث منقول من طرق متواترة ووجوه كثيرة، من أخبار العدول عن النبي ﷺ».

(هل يخلو
منه
العرش أو
لا؟
السكوت
عنه أولى)

ثم كونه يخلو منه العرش أو لا؟ في الحقيقة السكوت عنه
أولى .

وفيه إثبات صفة الكلام، وصفة السمع من جهتين:
الأولى: قوله: «من يدعوني»؛ لأن دعاء من لا يسمع عبث .
والثانية: قوله: «فأستجيب له»، ومن لا يسمع كيف يجيب
السائل له؟! .

وصفة المغفرة . وفيه إثبات كمال جوده وفضله .
وفيه إثبات قربه تعالى لسائليه كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي
عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية .
وفيه الحث والتحريض على التعرض لنفحات مغفرة الربّ آخر
الليل، فلا يفوت هذا الخير الكثير والفضل العظيم .
وهذه الثلاثة بعضها أخص من بعض فقوله: «من يدعوني»
شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة .
«من يسألني» هذا أخص من الذي قبله، وهذا السؤال يعني:
أي سؤال ديني أو دنيوي .
والثالث قوله: «من يستغفرني فأغفر له» . وهذا أخص من
الذي قبله .

وقوله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن التائب من أحدكم براحلته» الحديث متفق عليه.

وقوله ﷺ: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة» متفق عليه.

(إثبات
صفة
الفرح لله)

(وقوله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن التائب من أحدكم براحلته» الحديث متفق عليه)^(١) فيه إثبات صفة الفرح، بل إثبات شدة فرح الله بتوبة العبد ورجوعه إلى ربه، والباعث عليه ليس إلا مجرد إحسان ومحبة للطاعة. فصار فيه الحث على الرجوع عن معاصي الله وتوبة العبد إلى ربه. فالربّ تعالى هو الذي وفقه للتوبة، وحرك قلبه لها، ويسّر له أسبابها وهداه إليها، ثم مع هذا كان شديد الفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من المعاصي، من أحدكم إذا ضلت راحلته ثم وجدها، ففرح هذا بدابته من المعلوم أنه أعظم من فرح كل فرح، وفرح رب العالمين أعظم من فرح هذا براحلته، فرح يليق به لا كفرح العباد.

(إثبات
صفة
الضحك
لله)

(وقوله ﷺ: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة» متفق عليه). هذا الحديث فيه إثبات صفة

(١) رواه البخاري ٢٣٢٥/٥، رقم ٥٩٥٠، ومسلم ٢١٠٤/٤، رقم ٢٧٤٧ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرحة: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرحة».

.....

الضحك، أن الله يضحك حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته، كما أنه يفرح حقيقة تليق بجلاله وتختص به، ومثله حديث: «ضحك الله الليلة من فعالكما»^(١).

وتقدم قول أهل السنّة في الصفات، أنهم يثبتونها لله تعالى من غير تمثيل، كما أنهم ينفون عن الله ما لا يليق بجلاله وعظمته من غير تعطيل.

وأما معناه: فإن الكافر يقتل المؤمن، ثم يمنّ الله على الكافر فيسلم، فيكون هو وقتيله يدخلان الجنة.

(١) رواه البخاري ١٣٨٢/٣ رقم ٣٥٨٧ في قصة إكرام الأنصاري لضيفه.

وقوله: «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غَيْرِهِ، ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب» حديث حسن.

(إثبات
صفة
العَجَب
الله)

(وقوله: «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غَيْرِهِ، ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب» حديث حسن).
«قنوط عباده» القنوط: شدة اليأس، وهو استبعادهم ويأسهم من حصول المطر.

«وقرب غَيْرِهِ» أي: قرب تغييره للحال التي أنتم عليها إلى الحال التي أحسن منها، تغيير حال السوء إلى حال الخصب والفرح.
هذا الحديث فيه إثبات عدة صفات من صفات الله تعالى:
إحداها: العَجَب، وأن الله يَعْجَب عجباً يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل.

«ينظر إليكم» فيه إثبات صفة النظر.
«أزلين» الأزل: شدة الضعف. والحال - والله أعلم - يعني: شديدي الحال.

«قنطين» يعني: آيسين من الغيث.

«فيظل يضحك» فيه إثبات صفة الضحك.

«يعلم أن فرجكم قريب» فيه إثبات صفة العلم.

وقوله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله - وفي رواية - «عليها قدمه» فينزوي بعضها إلى بعض، فتقول: قط قط» متفق عليه .

(وقوله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله - وفي رواية - «عليها قدمه» فينزوي بعضها إلى بعض، فتقول: قط قط» متفق عليه).

(إثبات
صفة
الرجل
والقدم لله)

«لا تزال جهنم يلقى فيها» يعني: دوام اتصافها بذلك .

«وهي تقول: هل من مزيد؟» تطلب وتسأل الزيادة، باقية ما امتلكت تطلب .

«حتى يضع رب العزة فيها رجله - وفي رواية - عليها قدمه» هذا الحديث فيه إثبات صفة الرجل، وصفة القدم لله تبارك وتعالى، من غير تكليف ولا تمثيل ولا توهم . يجب علينا أن نعلمه ونعتقده ونجزم به، كما أتى عن رسوله ﷺ .

ولا يمكننا أن نحيط بخالقنا تبارك وتعالى علماً، بل الخلق يعلمون خالقهم بما أوحاه إليهم على ألسن رسله، ولا يعلمون ما هو عليه . ومعرفة ما هو عليه من أمتع الممتنعات، بل هم ممنوعون أن يخوضوا في صفات الله تعالى، مأمورون بالتفكر في آياته، ممنوعون عن التفكير في كيفية صفاته، فإن الله لم يجعل لهم إليه سبيلاً، وأيضاً السبيل ليس حجاباً إذا كشف علموا ما هو عليه، بل لا يحيطون به علماً كما في الآية الكريمة .

(قاعدة في
الصفات)

.....

ونعرف أن القول في الصفات كالقول في الذات كما تقدم، بل ما يثبت له سبحانه يختص به ويليق به وإن اتفق في اللفظ، وكذلك ما يضاف إلى المخلوق يختص به ويليق به، فإثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف.

قوله: «فينزوي بعضها إلى بعض» وتتضايق «فتقول: قط قط» أي: كافيي، وهو اسم فعل.

وقوله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار» متفق عليه، وقوله: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان».

(وقوله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم) فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته، كلام حقيقة مسموع بالأذان، فإن آدم سمعه بأذنيه فيجيب آدم (فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار» متفق عليه) فيه إثبات صفة الكلام؛ لأن النداء نوع منه، وهو الذي سبحانه ينادي.

وفيه أنه بحرف وصوت، وفي رواية «فيناديه» ففيه إثبات صفة الكلام، ومن أدلة ذلك: «أما إني لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(١).

جرت محاوراة بين بدعي وسني، فقال البدعي: إذا قال الله لك: ما دليلك على أن الله يتكلم بحرف وصوت؟ فأجاب السني بقوله: أقول ها أنا ربي، أسمع كلامك بحرف وصوت.

(وقوله: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان») متفق عليه، كما تكلم في الدنيا يتكلم في الآخرة على ما يليق بجلاله وعظمته. وهذا التكليم في الآخرة من غير ترجمان ولا واسطة، بل كفاحاً. فهو تكلم ويتكلم وسيتكلم، ومذهب أهل السنة أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، وهذه عبارتهم.

(١) رواه الترمذي ١٧٥/٥ رقم ٢٩١٠.

وقوله ﷺ في رقية المريض: «ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض،

(إثبات
علو الرب
وفوقيته)
وقوله ﷺ في رقية المريض: «ربنا الله الذي في السماء» فيه إثبات علو الرب وفوقيته، وجاء في علوه وفوقيته أكثر من ألف دليل.

«في السماء» إما أن يراد به مطلق العلو وتكون على بابها، وإما أن تكون بمعنى على، أي: عليها وفوقها.

(تقدس اسمك) هذا فيه إثبات أن لله أسماء تسمى بها كما قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وقال ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً» فدل على أن لله أسماء، وأنها دلت على الكمال إلى الغاية، ولا يجوز أن يتسمى بها أحد.

ومذهب أهل السنّة: إثبات الأسماء الواردة في الكتاب والسنّة، وتقدم لكم وجوب الإيمان بها لفظها ومعناها، ويُقرّ ويعتقد معناها ولفظها.

«تقدس اسمك» معنى التقديس: التطهير، وهو مفرد مضاف، يشمل جميع الأسماء المثبتة في النصوص، وأنها كلها مقدسة ليس المراد تقدس واحد من أسمائك فقط والآخر لا؛ بل جميع الأسماء كلها، ففيه إثبات الصفات وأنها مقدسة، المعنى تقدست أسماؤك عن نقص وعيب.

وفيه إثبات كمال أسماء الله تعالى، فإن المراد جنس الأسماء، ولهذا في الآيات: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

(أمرك في السماء والأرض) فيه إثبات صفة الكلام؛ لأن أمره

كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا
حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك،
وشفاء من شفائك على هذا الوجع، فيبراً» حديث حسن رواه
أبو داود وغيره، وقوله: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في
السماء» حديث صحيح.

بكلامه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

(كما رحمتك في السماء) فيه إثبات صفة الرحمة.

(اجعل رحمتك في الأرض) فيه إثبات صفة الرحمة.

(اغفر لنا حوبنا وخطايانا) الحوب: هي الذنوب والخطايا،
وعطف الخطايا على الحوب، إما أنه نوعان، نوع ونوع... الخ،
والله أعلم.

وفيه إثبات صفة السمع.

(أنت رب الطيبين) فيه إثبات صفة الطيب، فهو الذي خلق
الطيبين والطيب، فهو أولى بالطيب على وجه الكمال وعدم مماثلته
للخلق بوجه.

(أنزل رحمة من رحمتك) فيه إثبات صفة الرحمة.

(وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبراً» حديث حسن رواه
أبو داود وغيره) الشفاء: هو البرء.

(وقوله: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء» حديث صحيح)
في هذا إثبات علو الرب وفوقيته.

وقوله: «والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه» حديث حسن رواه أبو داود وغيره.
وقوله للجارية: «أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة» رواه مسلم.

«في» هنا بمعنى على، وهي تجيء في العربية بمعنى الاستعلاء كما في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾.

و«السماء» المراد بها السموات، يعني: فوق السموات.

«من في السماء» يعني: من على السماء. وقد تكون على بابها وهو الظرفية، يعني: في العلو.

(وقوله: «والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه» حديث حسن رواه أبو داود وغيره) وهذا أيضاً فيه إثبات علو الربّ وفوقيته من غير تمثيل.

(وقوله للجارية: «أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة» رواه مسلم) هذا فيه جواز السؤال عن الله بلفظ «أين»، وأهل التجهم والاعتزال يشهدون لمن يقول: أين الله بالكفران، والنبي ﷺ أقرها على ذلك وشهد لها بالإيمان، فذلك على أن مثبت الصفات أتباع ولد عدنان، ومنكريها أتباع جهنم بن صفوان.

ففي هذا النص إثبات لعلو الربّ وفوقيته.

وقوله: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت» حديث حسن.

(وقوله: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك») مع كل عبد (حيثما كنت» حديث حسن) هذا فيه إثبات صفة المعية العامة. وهي معية تليق بجلال الله وعظمته، وهو مستور على العرش، معية - من غير امتزاج ولا اختلاط ولا مماسة - في جميع أحوالك، ما يكون من حالة إلا والله معك، ومقتضى المعية العامة: العلم والإحاطة على خفاياتك وجلياتك.

وفيه من الفوائد: أن الإيمان يزيد وينقص، ثم هذه الزيادة تارة تكون عن فعل، وتارة تكون عن ترك، والنقص تارة يكون من غير اختيار كالحائض وغيرها، وأن كماله بشيئين:

الأول: في الكمية، وهي القيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات.

والثاني: بالكيفية، وهو التفاضل بتفاضل ما في القلوب كما في خبر أبي بكر.

وفيه من الفوائد: دخول أعمال القلب في الإيمان، ولهذا أحد تعاريف الإيمان أنه قول وعمل. الخ. فهذا من قول القلب؛ علمه وإقراره أن الله معك حيثما كنت؛ ثم ما دل عليه من كونه أفضل الإيمان لكونه يكسب مقام الإحسان، فإن الدين مراتب ثلاث أعلاه الإحسان، كما في حديث جبريل، والإحسان كما وضحه النبي ﷺ «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»^(١).

(١) رواه البخاري ٢٧/١، رقم ٥٠، ومسلم ٣٦/١، رقم ٨.

.....

وفائدة أخرى: أن التقسيم الذي في حديث جبريل يفيد أن
الإحسان ليس خارجاً من الإيمان بل منه، كما أنه من الإسلام، فإذا
أفرد دخل فيه الآخر، وإذا اقترنا فكلُّ له مرتبة.

وقوله: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فلا يبصق قبل وجهه، ولا عن يمينه، فإن الله قبل وجهه، ولكن عن يساره، أو تحت قدمه» متفق عليه.

وقوله ﷺ: «اللهم ربّ السموات السبع والأرض، وربّ العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة

(وقوله: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فلا يبصق قبل وجهه، ولا عن يمينه، فإن الله قبل وجهه، ولكن عن يساره، أو تحت قدمه» متفق عليه) فيه إثبات صفة القرب وأن الله تعالى قبل وجه المصلي في صلاته، على ما يليق بجلاله وعظمته، لا نعلم كنهه وكيفيته، فلا تظن أن هذا ينافي ما ورد في النصوص من علو الربّ تعالى وفوقيته، فإن السموات والأرضين كلها في يده كالخردلة، فلا يمتنع عليه تعالى شيء من مثل هذه الأمور، فكل هذا وهذا حق، وإنما يمتنع ذلك على المخلوق، فنشبهته حقيقة كما أثبتته المصطفى ﷺ ودلنا عليه، فهو تعالى مع كمال علوه قبل وجه المصلي وهو فوق سمواته من غير تمثيل.

وفيه نهى المصلي أن يبصق قبل وجهه الخ.

وقوله ﷺ: «اللهم ربّ السموات السبع والأرض، وربّ العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة

(إثبات
صفة
القرب لله
لا ينافي
علوه
وفوقيته)

أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر» رواه مسلم.

أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر» رواه مسلم).

هذا الحديث فيه هذا الدعاء النبوي، وفيه إثبات عدة أسماء للربِّ سبحانه وصفات، منها: صفة العلو في قوله: «مُنزَّل» فإن النزول لا يكون إلا من أعلى.

وفيه أن القرآن والتوراة والإنجيل منزلة غير مخلوقة.

وفيه إثبات صفة السمع، وأن الله تعالى يسمع حقيقة فلا يُدعى إلا الذي يَسْمَع دعاء الداعي.

وفيه إثبات هذه الأسماء الأربعة الحسنی لله سبحانه، وهي المذكورة في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾.

وفيه بيان تفسير كل من الأسماء الأربعة، وأن تفسير اسمه «الأول»: الذي ليس قبله شيء.

ومعنى «الآخر»: الذي ليس بعده شيء.

ومعنى «الظاهر»: الذي ليس فوقه شيء.

ومعنى «الباطن»: الذي ليس دونه شيء.

وقوله ﷺ - لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر - : «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً،

فلا يسوغ تفسير هذه الأسماء إلا بهذا التفسير النبوي، ومعنى الظهور: العلو، فإن كل مكان أعلى فهو أظهر.

وقول النبي ﷺ: «الباطن» مثل «أن تعلم أن الله معك»، ومثل «قَبْل وجهه»، فإن بطونه على ما يليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل.

وذكر ابن القيم أن الأول مقابل الآخر، والظاهر مقابل الباطن، وأن المراد بالباطن بذاته، كما أنه الظاهر بذاته، وكما أنه الأول بذاته فهو الآخر بذاته.

ولا يظن أن هذا يدل على الحلول كما ذكره بعض المبتدعة، فإن المخلوقات في يده سبحانه وتعالى كالذرة، فإن المخلوقات لا تحول دونه جل وعلا، فإنه الذي لا أكبر ولا أعظم منه.

(وقوله ﷺ - لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر) في بعض الأسفار -: (أيها الناس اربعوا على أنفسكم) اقصروا على أنفسكم، والرَّبْع: القَصْر، وارفقوا بها، يعني: لا ترفعوا هذا الرفع.

(فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً) فيحوجكم ذلك إلى رفع الأصوات، وإنما يحتاج رفع الصوت للأصم الذي لا يسمع والغائب، أما القريب فليس في رفع الصوت له فائدة.

إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم
من عنق راحلته» متفق عليه .

(إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم
من عنق راحلته» متفق عليه) في هذا إثبات صفة السمع، وإثبات
قُرْبِ الرَّبِّ تَعَالَى مِنْ دَاعِيهِ، وَهَذَا هُوَ الْقَرَبُ، فَإِنَّهُ أَتَى فِي الْقُرْآنِ
خَاصُّ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾
الآية، وكما في هذا الحديث، وكما في حديث: «أقرب ما يكون
العبد من ربه وهو ساجد»^(١). والقرب لا ينقسم كما تنقسم المعية .

(القرب لا
ينقسم كما
تنقسم
المعية
وإنما هو
خاص)

(١) رواه مسلم ١/٣٥٠، رقم ٤٨٢ .

وقوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة
البدر لا تضامون في رؤيته،

(وقوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا
تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع
الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا» متفق عليه) هذا فيه إثبات رؤية
الرب سبحانه في القيامة عياناً بالأبصار، ويُرى في الجنة عياناً
بالأبصار.

(إثبات
رؤية الرب
في القيامة
وفي الجنة
عياناً
بالأبصار)

(كما ترون القمر ليلة البدر) وهذا أظهر وأجلى ما يكون في
رؤية القمر ليلة أربعة عشر، لكبره ولاارتفاعه وظهوره، أي: كما أن
رؤيتكم عياناً بالأبصار مقابلة.

(لا تَضَامُونَ) بضم التاء وتخفيف الميم، أي: لا يلحق أحد
منكم ضيم أو ضيق أو مشقة عند رؤيته، فكل يراه من غير ضيم
يلحقه، وذلك أنه جلي ظاهر، كل يراه في مكانه بخلاف الشيء
الخفي.

ويروى «لا تَضَامُونَ في رؤيته» أي: لا ينضم بعضكم إلى
بعض، أي لا يحوج هذا كنظر الشيء الخفي؛ لأنه شيء أجلى.
وفي رواية أخرى: «لا تضارون» أي: لا يلحقكم ضرر عند
رؤيته.

وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية، لا تشبيه للمرئي بالمرئي، لأنه لم
يرد في النصوص تشبيه الباري بخلقه، ورؤية الناس للقمر معلوم أنها
من غير إحاطة، فلا يدركون كنهه ولا كيفيته وهو مخلوق، فالباري

فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس،
وصلاة قبل غروبها فافعلوا» متفق عليه.

يُرى ولا يحاط به رؤية، فإن الله تعالى أجل وأعظم من أن تحيط به
أبصار المخلوقين لضعفها كما في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ
يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فنفي الأخص وهو الإحاطة، ولا يلزم من نفي
الأخص نفي الأعم وهو الرؤية.

(فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس) وهي
صلاة الفجر.

(وصلاة قبل غروبها) وهي صلاة العصر، يعني: أن لا
تؤخروها عن وقتها التي شرعت فيها.

(فافعلوا) فإن كل الصلوات الخمس فريضة، وكل من
الواجبات وواجب المحافظة عليها؛ لكن بعضها أفضل من بعض،
كما أن المحرمات بعضها أشد تحريماً من بعض، ففيه أفضلية هاتين
الصلواتين، وأفضلية المحافظة عليهما في أوقاتها.

وكل منهما قيل: إنها الوسطى، وقد ذكر ابن كثير الأقوال
وبسط تعدادها في قوله: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾، وثبت عن
النبي ﷺ أنها العصر.

وجاء في الحديث الآخر ما يدل على أفضليتهما: «من صلى
البردين دخل الجنة»^(١)، وهما العصر والفجر، وكان أول ما فرض
هاتان الصلاتان في أول النهار وفي آخره.

(١) رواه البخاري ٢١٠/١، رقم ٥٤٨، ومسلم ٤٤٠/١، رقم ٦٣٥.

ومناسبة ذكر هذا: أن أهل الجنة يرون الله بكرة وعشياً، وهذا وجه قرن هذه الجملة بما قبلها.

وفيه ما يشعر أن أكمل المؤمنين رؤية، أشدهم محافظة على هاتين الصلاتين، وجاء في الحديث: «أن الله يتجلى لهم يوم الجمعة»^(١)، وهذا لا ينافي هذه الرؤية، لأن رؤيتهم لربهم يوم الجمعة نظراً إليه أسبوعي، وهذه رؤية يومية، وأيضاً ذاك أخص من هذا. وأما النساء فجاء حديث أنهن يرينه من العيد إلى العيد^(٢).

ورؤيته تعالى أعظم نعيم أهل الجنة؛ بل ما طاب لهم نعيم إلا برؤيته تعالى، كما أن أهل الجحيم أعظم عذابهم أن حجبوا عن رؤيته. ويرى سبحانه في عرصات القيامة.

(١) كما في الترمذي ٥٩١/٤ رقم ٢٥٤٩، وابن ماجه ١٤٥٠/٢ رقم ٤٣٣٦، وابن أبي عاصم في السنّة ٢٥٨/١ رقم ٥٨٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم، ثم يؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون ربهم، فيبرز لهم عرشه ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة، فتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أذنهم وما فيهم من ديني، على كئبان المسك والكافور، وما يرون أن أصحاب الكراسي أفضل منهم مجلساً، قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، هل نرى ربنا؟ قال: نعم، قال: هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟ قال: لا، قال: كذلك لا تمارون في رؤية ربكم».

(٢) رواه الدارقطني في كتاب الرؤية ص ٨٢ رقم ٥٢ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إذا كان يوم القيامة رأى المؤمنون ربهم عز وجل فأحدثهم عهداً بالنظر إليه في كل جمعة، وتراه المؤمنات يوم الفطر ويوم النحر».

إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه بما يخبر به، فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة

(أهل السنة والجماعة يؤمنون بجميع ما ثبت عن النبي ﷺ في الصفات) (إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه بما يخبر به).

ذكر المؤلف - رحمه الله - أمثلة من أحاديث الصفات تدلنا على ما وراءها، ثم قال: «إلى أمثال هذه الأحاديث... الخ، يريد: أنها ليست هذه الأحاديث وحدها، بل هي قليل من كثير، ونقطة من بحر، وحصر الأحاديث التي يصف بها رسول الله ﷺ ربه عز وجل على الحقيقة لا على المجاز بما يناسبه ويليق به، يستدعي أسفاراً.

والمصنف ذكر القسم الكبير من الكتاب العزيز بالنسبة إلى هذه المختصرة، ثم ذكر القسم الكبير من السنة بالنسبة إلى هذه المختصرة، لتكون معك أصول تستدل بها على ما وراءها، ولتأخذها براهين لما يذكر من المسائل.

(فإن الفرقة الناجية) هي (أهل السنة والجماعة)، والشتان والسبعون كلها في النار، ليس الناجي غير أهل السنة والجماعة، الذين درجوا على ما درج عليه النبي ﷺ، ولهذا لما سئل النبي ﷺ من هم؟ قال: «من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(١)، وحديث «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذي يلونهم»^(٢)، وحديث «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين

(١) رواه الطبراني في الأوسط ٢٢/٨، رقم ٧٨٤٠.

(٢) رواه البخاري ٩٣٨/٣، رقم ٢٥٠٧، ومسلم ١٩٦٤/٤، رقم ٢٥٣٥.

يؤمنون بذلك، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

يلونهم»^(١)، وما عداهم فهم على جور وانحراف.

(يؤمنون بذلك) كله، يعني: بجميع ما ثبت عن النبي ﷺ في الصفات.

(كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه) يعني: القرآن، فالكتاب والسنة أخوان شقيقان يجب الإيمان بهما جميعاً؛ فإن النبي ﷺ أوتي الكتاب والحكمة وهي السنة.

(من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل)^(٢) فيؤمنون بها، ويعتقدون مدلولها على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(١) رواه البخاري ١٣٣٥/٣، رقم ٣٤٥٠.

(٢) قلت: تقدم معنى التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل في ص ٢٣ - ٢٦.

بل هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم.

فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى: بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة.

(مكانة أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة)

(بل هم الوسط في فرق الأمة) يعني: العدل الخيار في فرق هذه الأمة المحمدية التي افتقرت على ثلاث وسبعين فرقة، أما بقية الفرق الثنتين والسبعين فهم أهل انحراف عن الصراط المستقيم. منهم من خرج به عن الدين، ومنهم من خرج به عن بعضه، ومنهم من مال به.

(كما أن الأمة هي الوسط) العدل الخيار (في الأمم)، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، فشهادتهم مقبولة على البقية، والبقية لا تقبل شهادتهم عليهم، وكما قال ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»^(١).

(الناس في باب الصفات)

(فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى) عدل خيار: (بين أهل التعطيل الجهمية) النفاة، (وأهل التمثيل المشبهة).

ثلاث فرق أهل السنة هم الوسط بينهم)

هذا الباب باب الصفات باب عظيم كبير، والناس في هذا الباب ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: أهل التحريف والتعطيل، نفوا وجحدوا، وهم الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، وإن كانوا يتفاوتون.

(١) رواه أحمد ٤/٤٤٧، والترمذي ٥/٢٢٦، رقم ٣٠٠١، وابن ماجه ٢/١٤٣٣، رقم ٤٢٨٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/٥.

وقابلتهم الفرقة الثانية: وهم أهل التشبيه والتمثيل من الرافضة وغيرهم .

والثالثة: أهل الوسط، وهم أهل السنّة والجماعة، توسطوا فأثبتوا ما أثبتته الله لنفسه وأثبتته له رسوله، إثباتاً لا يقتضي التمثيل، ونفوا عن الله ما لا يليق بجلاله وعظمته، نفيّاً لا يقتضي التعطيل، فصاروا أهل الوسط في هذه الفرق .

فالأولون نفوا حتى غلوا في النفي، فعطلوا صفات الله سبحانه، زعموا منهم أن إثباتها يقتضي التشبيه، أو خوفاً من التشبيه، فوقعوا في تشبيه شر منه كما يأتي .

وأهل التمثيل أثبتوا وغلوا في الإثبات فوقعوا في التشبيه والتمثيل، قالوا: يد كيدي، وسمع كسمعي، وبصر كبصري، ونحوه .

وكل من الطائفتين يضرب النصوص بعضها ببعض، ووفق الله أهل السنّة للطريق المستقيم، أهل الدين القويم، أتباع سيد المرسلين، الذين اقتدوا واتبعوا الصحابة والتابعين، وما جاء به سيد المرسلين عن رب العالمين .

س: ما الفرق بين مذهب الأشاعرة والجهمية .

ج: مذهب الأشاعرة في الصفات إثبات الأسماء جميعها، وإثبات سبع صفات، والجهمية ينكرونهما جميعاً، فوافقوهم في النفي ما عدا السبع والأسماء .

(الفرق بين
مذهب
الأشاعرة
والجهمية)

.....

وليس عند أهل السنّة بحث ولا تفتيش، بل آمنوا بالجميع على ما يليق بجلال الله وعظّمته، فالصدر الأول الصحابة ومن بعدهم، قبلوا ما جاء به الكتاب والسنّة، وآمنوا به من غير تمثيل، ثم لمّا ظهرت المعطلة والمشبهة احتاج أهل السنّة للكلام في الصفات والبحث فيها، فبينوا أن طريقتهم هي إثباتها مع العلم بمعانيها، وأنها حق، وضلّلوا وبدعوا وكفروا أهل التعطيل وأهل التمثيل، ومن كلام بعضهم: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن نفى عنه ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله تشبيه»، ومن كلام بعضهم: «المعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً، والموحد يعبد إلهاً واحداً فرداً صمداً»، وعابد العدم شر من عابد الصنم كما تقدم.

فعرفت كفر كلّ من الطائفتين، وعرفت أن كفر المعطلة أعظم؛ لأنه محفوف بتشبيهين، شبهوا أولاً، وعطلوا ثانياً، ولزمهم في تعطيلهم التمثيل بالجمادات والمعدومات، بل والممتنعات.

وهم وسط في باب أفعال الله : بين الجبرية ، والقدرية وغيرهم .

(وهم) أهل السنّة (وسط في باب أفعال الله) في شمول مشيئته وخلق لأفعال العباد^(١) : (بين الجبرية) الذين يجعلون أفعال العبد فعل الله وليس للعبد فعل أصلاً، وإنما هو كالميت أدرج في الأكناف، (والقدرية وغيرهم) الذين يقولون: الأفعال فعلها العبد، فما شاء فعل وما لم يشأ لم يفعل ولم يخلقها الله .

(أهل
السنّة
وسط في
باب أفعال
الله بين
الجبرية
والقدرية)

فأفعال الله تعالى قد غلا في إثباتها قوم، وهم القدرية المجبرة من الجهمية والأشاعرة ومن وافقهم، حتى جعلوا العبد مجبوراً على أفعاله، وأنه كالألة، وكالمستدير في يد مديره، لا فعل له، ولا إرادة له، ولا قدرة، ولازم قولهم: أن أفعالهم هي أفعال الله، وغلاتهم يقولون: أفعالهم عين فعل الله .

وقابلهم قوم، وهم القدرية النافية للقدر، فأخرجوها عن أفعال الله وأنها ليست بتكوينه، وقالوا: إن الذي يفعل العبد، من غير قضاء الله وقدره، فلازم قولهم: أن العبد يخلق مع الله .

فهدى الله أهل السنّة، فأثبتوا أفعال الله ولم يغلوا فيها . فأمنوا أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن العبد له فعل ومشية وقدرة، لكنها تابعة لمشيئة الله وقدرته ومشمولة بالخلق^(٢) .

(١) (عبارة أخرى) في عموم مشيئته وتخليقه وتكوينه .

(٢) قلت: ويأتي مبحث خاص بالقدر والإيمان به، مبسوط فيه ما يتعلق بأفعال الله هناك في ص ١٦٨ .

وفي باب وعيد الله: بين المرجئة، والوعيدية من القدرية وغيرهم.

(و) أهل السنة وسط (في باب) نصوص (وعيد الله) بالعذاب
أو بالنار لعصاة الموحدين (بين) طرفين: (المرجئة، والوعيدية).
فالمرجئة: يعطلون نصوص الوعيد، ولا يعتقدون حقيقة
الوعيد وأن عصاة المؤمنين على خطر إن لم يتجاوز الرب عنهم، بل
يُغلبون جانب الرجاء ويتأخر منهم العمل.

(أهل السنة
وسط في باب
نصوص
الوعيد بين
المرجئة
والوعيدية)

والوعيدية (من القدرية وغيرهم) يثبتون نصوص الوعيد ويغلبون
في إثباتها ويزيدون فيها، ويرون أن من توعد فيها من عصاة
الموحدين فهو من المخلدين في النار، حكمه حكم الكفار
والمشركين.

وأهل السنة يثبتون نصوص الوعيد، ويمرونها كما جاءت ولا
يعطلونها، مع مراعاة شيء آخر وهو أن كل ذنب دون الشرك فهو
تحت المشيئة، ولا يُغلبون جانب الرجاء فيتأخر منهم العمل، ولا
يرون أن عصاة الموحدين مثل الكفار ولكن يخشون عليهم.

ويأتي في آخر الكتاب إيضاح هذا الباب في باب مستقل^(١).

(١) في ص ١٨٤.

وفي باب أسماء الإيمان والدين : بين الحرورية والمعتزلة ، وبين المرجئة والجهمية .

(وفي باب أسماء الإيمان والدين) كنصوص التكفير، وهذه يقال لها: «مسألة الأسماء والأحكام» مثل الإسلام والإيمان والكفر والفسق . والمرجئة ما بالوا بها ولا أشفقوا، وأهل السنة أعطوها حقها وخافوا ارتكابها .

(أهل
السنة
وسط في
مسألة
الأسماء
والأحكام
بين
الحرورية
والمعتزلة
وبين
المرجئة
والجهمية)

فأهل السنة وسط بين طرفين : (بين الحرورية) نسبة إلى حروراء وهم الخوارج ، (والمعتزلة ، وبين المرجئة) قيل : من الإرجاء وهو التأخير (والجهمية) .

فالخوارج والمعتزلة طرف ، والمرجئة والجهمية طرف .

المعتزلة والخوارج قالوا: إن الإيمان قول وعمل لكن لا يتبعض ولا يتجزأ، قالوا: إن ترك المعصية وفعل الطاعة إيمان، فإذا فعل الموحد المعصية، أو ترك الطاعة زال عنه الإيمان كله .

ثم الخوارج تكفروه، والمعتزلة تجعل له منزلة بين المنزلتين . وافقوا أهل السنة في أصل الإيمان أنه قول وعمل، لكن خالفوهم فقالوا: لا يتبعض ولا يتجزأ .

والمرجئة والجهمية قالوا: الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، أو القول فقط، وأنه لا يزيد ولا ينقص، ولا يتبعض ولا يتجزأ .

فيلزم على القول بأنه العلم بالحق والمعرفة، أن إيمان جبريل وإبليس واحد .

.....

ويلزم على القول بأنه القول فقط، أن إيمان جبريل وإيمان
المنافقين واحد.

وأهل السنّة وسط بين هذين الطرفين، فقالوا: إن الإيمان قول
باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، وهو يزيد بالطاعة
وينقص بالعصيان، ويتبعض ويتجزأ، وأن التصديق بالقلب وحده
ليس بإيمان، وأن الذي يقول بلسانه ما ليس في قلبه ليس بمؤمن،
وأن الفاسق المّلي لا يكفر بمطلق المعاصي والكبائر وغير ذلك مما
تقتضيه أصولهم^(١).

(١) قلت: ويأتي فصل خاص بمسألة الإيمان والأحكام، وبسط الأقوال في حد الإيمان،
وحكم الفاسق من أهل الملة عند الفرق الثلاث في ص ١٨٤.

وفي أصحاب رسول الله ﷺ: بين الرافضة، والخوارج.

(وفي أصحاب رسول الله ﷺ: بين الرافضة والخوارج).

الرافضة غلوا في علي وأهل البيت، حتى قال بعضهم بالهيتهم أو نبوتهم، أو عصمتهم، فالرافضة يغلون في أهل البيت بتعظيمهم، ويجفون بقية الصحابة إلا نفرًا قليلاً، ومسلكهم فيهم التكفير.

ومسلك الخوارج في أصحاب رسول الله ﷺ معلوم معروف، يكفرونهم أو يفسقونهم - أهل البيت وغيرهم - لما وقع منهم من التحكيم وغيره، خصوصاً علياً ومعاوية وأهل الشام.

وأهل السنة والجماعة وسط، وعلى هدى مستقيم بين ضاللتين، يترضون عن جميع أصحاب رسول الله ﷺ، ويعرفون حقهم وينزلونهم منازلهم، ولا يرون فيهم ما يراه الخوارج والروافض من تكفيرهم.

وكذلك أهل السنة والجماعة توسطوا في أهل بيت رسول الله ﷺ، ورأوا أن لهم مزية لقربهم من النبي ﷺ كما قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرايتي»^(١)، ولا يرون ما يراه الروافض من الغلو في أهل البيت، ولا ما يراه الخوارج والنواصب من العدا لأهل البيت.

(١) رواه الإمام أحمد ٢٠٧/١ رقم ١٧٧٧، وابن أبي شيبة ٣٨٢/٦ رقم ٣٢٢١٣ بلفظ: «والله لا يدخل قلب امرئ إيمان، حتى يحبكم لله ولقرايتي».

فصل

وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله، الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة، من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه، عليّ على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا، يعلم ما هم عاملون،

(فصل)

(وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله، الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة، من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه، عليّ على خلقه) يعني: منفصل من خلقه بائن منهم، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته.

(من أعظم الإيمان بالله: الإيمان بعلم الله ومعرفته مع خلقه، وانها لا تنافي علوه وفوقيته)

(وهو سبحانه معهم أينما كانوا) معية تقتضي العلم والإحاطة والاطلاع.

(يعلم ما هم عاملون) هذا تفسير لقوله: «وهو سبحانه معهم»، وألجأهم إلى أن يفسروها باللائم، لرد محذور أكبر، من أجل أنهم يتكلمون مع الجهمية القائلين بالحلول وإنكار العلو، فبينوا أنه ليس بالخلق مختلطاً، هذا مقتضى المعية، وكذلك الإحاطة والقدرة وملكه وقبضه.

والإيمان بذلك من أعظم الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فهو مع كمال علوه وفوقيته بكمال علمه ومعيته مع خلقه.

كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجه اللغة،

(كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾)، واستواؤه على عرشه هذا فيه إثبات علوه على خلقه، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ إثبات كمال العلم.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ إثبات صفة المعية.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إثبات صفة البصر.

(وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه مختلط بالخلق) ممتزج بالخلق كما تقوله حلولية الجهمية، حاشا وكلا، بل معية الله تعالى لا تقتضي ذلك، فإنها وردت مطلقة في وصف الله.

(فإن هذا لا توجه اللغة) التي نزل بها القرآن من أن المراد بها الامتزاج، بل ترد ويراد بها هذا، وترد ويراد بها هذا^(١).

(معية الله لا تقتضي الامتزاج بإجماع السلف والفطرة دلت على ذلك واللغة لا توجهه)

(١) قلت: بحسب الإطلاق والتقييد، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسية، أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني، دلت على المقارنة في ذلك المعنى فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو والنجم معنا، =

وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان.

(وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة) فإنهم مجمعون على أن الله فوق عرشه، بائن من خلقه، فلو قلت: المعية لها معنيان؟، قلت لك، لكن يدل على أن المراد الأول إجماع المسلمين. ولما سئل ابن المبارك بماذا نعرف ربنا؟ قال: «بأنه فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه».

(وخلاف ما فطر الله عليه الخلق) عربهم وعجمهم، صامتهم وناطقهم، فإنهم مطبقون على معرفة خالقهم ومزيل الضر عنهم، فوق السموات على العرش، فإنهم إذا حذب أحدهم حازب، رفع رأسه إلى السماء، حتى البهائم العُجم إذا حذبها حازب رفعت رؤوسها إلى السماء.

(من) (بل القمر آية من) جملة (آيات الله) المشاهدة في الدنيا، (من) أصغر مخلوقاته) بالنسبة إلى السموات، (وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان)، ويصح أن يكون مع المسافر وغير المسافر وهو في موضعه، فمعية القمر مع المشي وغيره تخصه وهو في فلكه، فكيف برب العالمين؟ يقول السفار:

= ويقال: هذا المتاع معي لمجامعتي لك وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة» مجموع الفتاوى ١٠٣/٥.

وهو سبحانه فوق العرش، رقيب على خلقه، مهيم عليهم، مطلع عليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

«سافرنا ومعنا القمر» وهو ليس مختلطاً بهم، بل في فلكه. والعرب تقول: «ما زلنا نسير والقمر معنا» ولا يريدون أنه حال فيهم ممزوج، وإذا كانت معية القمر تطلقها العرب ولا يريدون ما تقدم، فلأن لا تفيد النصوص ذلك في حق الله بطريق الأولى، فإن الشخص يكون معه القمر وليس فيه القمر وليس معه إلا نوره.

ويقال: «فلان مع فلان» إذا كان يميل إليه وإن كان بينهما مسافة بعيدة.

ويقال: «هذه المرأة مع فلان» وإن كان بينهما مسافة.
«وفلان مع الأمير» كذلك.

فبطريق الأولى رب العالمين، فكما أن ذاته لا كذوات المخلوقين، فكذلك صفاته، بل هي معية موافقة مطابقة لائقة به. فالمراد شيء واحد وهو: أن المعية لا تقتضي امتزاجاً واختلاطاً، فإنه صح في لغة العرب أنه معهم من قولهم: «سرنا والقمر معنا».

(وهو سبحانه فوق العرش، رقيب على خلقه، مهيم عليهم، مطلع) مشرف (عليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته).

وكل هذا الكلام الذي ذكره الله سبحانه من أنه فوق العرش وأنه معنا. حق على حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يسان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أن السماء تُقَلُّه أو تظله، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض،

(الله فوق العرش وهو مع خلقه شيان متوافقان لا يتنافيان كلاهما حق على حقيقته) وكل هذا الكلام الذي ذكره الله سبحانه من أنه فوق العرش وأنه معنا، حق على حقيقته) كل حق على حقيقته، هو على العرش حق على حقيقته، وهو معنا حق على حقيقته، فهما شيان متوافقان لا يتنافيان أبداً، فليس معنى قوله: «حق على حقيقته» كما يتبادر في الذهن من صفات المخلوقين، فبين صفات الله وصفات المخلوقين أعظم تباين يوجد.

(لا يحتاج إلى تحريف) أي: الذي يسميه المحرفون تأويلاً.

(الله يسان عن الظنون الكاذبة) ولكن يسان عن الظنون الكاذبة، فإن بالظنون الكاذبة يكثر الاختلاف.

فهو الغني بذاته ولا يحتاج إلى شيء من مخلوقاته) مثل: أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أن السماء تُقَلُّه: تحمله، وأنها لو سقطت لسقط - تعالى الله وتقدس - .

(أو تظله): تكون له كالظلة - تعالى الله وتقدس - .

(وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان؛ فإن الله) هذه فاء التعليل (قد وسع كرسيه السموات والأرض) الكرسي: موضع

وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾.

القدمين، وجاء في الحديث «ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة»^(١) وهو صغير بالنسبة إلى العرش كما في الحديث «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة»^(٢)، فكيف يظن أن السموات تقله أو تظله؟! بل السموات السبع كلها كالخردلة في يد أحدنا كما في الحديث^(٣).

فيظهر بهذا أن جميع مخلوقاته مفتقرة محتاجة إليه من العرش إلى الثرى، ولولا إقامته لها لاندك بعضها على بعض، فهو تعالى الغني بذاته عن جميع مخلوقاته من عرشه حتى الحضيض، بل كل المخلوقات مفتقرة إليه.

(وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ فلا قامت إلا بأمره وقدرته وإمساكه، فكيف يظن أنه محتاج إليها وهو الغني الكامل بذاته؟!)

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ٧٦/٢.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه ٧٦/٢، «وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة».

(٣) الذي رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في السنة ٤٧٦/٢، رقم ١٠٩٠، وابن بطة في الإبانة ٣/٣٠٨، رقم ٣٠٨، موقوفاً على ابن عباس «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن في يد الله عز وجل، إلا كخردلة في يد أحدكم».

فصل

وقد دخل في ذلك: الإيمان بأنه قريب مجيب، كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وقوله ﷺ: «إن الذي تدعونه أقرب إلي أحدكم من عنق راحلته»

(فصل)

(اثبات) (وقد دخل في ذلك) يعني: في الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسوله، فإن الإيمان بالله يشمل الإيمان بذاته وأسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، وأشياء من جملتها (الإيمان بأنه قريب) من سائليه، (مجيب) لداعيه.

صفة قرب
الله الخاص
وانه لا
ينافي علوه
وفوقيته

(كما جمع بين ذلك) أي: قربه وإجابته (في قوله): ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

(وقوله ﷺ) - لما رفع الصحابة أصواتهم بالذكر -: «أيها الناس: اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، (إن الذي تدعونه أقرب إلي أحدكم من عنق راحلته) وهذا القرب هو القرب الخاص، قربه من عابديه ومن سائليه، يعني سواء كان ذلك الدعاء دعاء عبادة، أو دعاء مسألة، والقرب لم يرد في الكتاب والسنة إلا لهذين: العابدين والسائلين، وجاء في الحديث «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(١).

(١) رواه مسلم ١/٣٥٠ رقم ٤٨٢.

وما ذكر في الكتاب والسنة، من قربه ومعيته، لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثل شيء في جميع نعوته، وهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه.

(وما ذكر في الكتاب والسنة، من قربه ومعيته، لا ينافي ما ذكر) في الكتاب والسنة (من علوه وفوقيته) بل كلٌّ من هذا وهذا، حق على حقيقته، فله سبحانه كمال القرب وكمال المعية، مع كمال العلو والفوقية.

(فإنه سبحانه ليس كمثل شيء في جميع نعوته) يعني: ليست نعوته كنعوت الخلق، ولا تصل تقديرات الخلق إلى معرفة كُنْهِ صفاته، والمخلوق هو الذي نعوته ليست كذلك.

(وهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه) يعني: وهو مع كمال علوه قريب، ومع كمال قربه عليٌّ، ولا منافاة بين هذا وهذا، فهو سبحانه على كل شيءٍ قدير، فلا يعجزه شيء، ولا يشق عليه شيء، بل السموات في يده كالخردلة في يد أحدنا.

فصل

ومن الإيمان بالله وكتبه: الإيمان بأن القرآن كلام الله
منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود،

(فصل)

(ومن الإيمان بالله وكتبه: الإيمان بأن القرآن) الموجود الذي
في المصاحف (كلام الله منزل) من الله، يعني: أن الله نزله بواسطة
جبريل، وجبريل سمعه من رب العالمين، وسمعه محمد ﷺ من
جبريل، وبلغه العالمين، هذا هو طريق ورثة سيد المرسلين - بخلاف
ورثة فرعون اللعين - نزل به الروح الأمين، بلسان عربي مبين، ولا
منافاة بين هذا، وبين كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ.

(غير مخلوق) والقول بأنه مضاف إلى الله إضافة خلق، هو
قول الجهمية والمعتزلة، قالوا: إنه مخلوق يخلقه في بعض
الأجسام، إما في الشجرة أو على لسان القاريء، فمن ذلك الجسم
بدأ لا من الله، ولا يقوم بالله عندهم كلام ولا إرادة.

(منه بدأ) قولاً، ولهذا في الآيات ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾،
﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

(وإليه يعود) في آخر الزمان، كما جاء في الأحاديث أنهم إذا
نسوا الآية أو الشيء، أنهم يرجعون إلى المصاحف، فلا يجدون
شيئاً، ثم يرفع - بعد تعطله وترك العمل به في آخر الزمن - إلى من

وأن الله تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله، أو عبارة عنه،

تكلم به، من الصدور ومن المصاحف، يرفع من صدور من يقرؤه، وإذا نُظر في المصاحف فإذا هم لا يجدونه فيها.

(وأن الله تكلم به حقيقة) لا مجازاً.

(وأن هذا القرآن) الذي هو المكتوب (الذي أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة) هو كلام رب العالمين (لا كلام غيره)، وعبارة أهل السنة: أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، وأن هذا القرآن كلام الله.

(القرآن
كلام الله
حقيقة)

(ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله) كما أطلقتها الكلابية، يعني: أنه يشبهه وإلا ليس كلام الله.

وبعضٌ تحاشى كلمة حكاية وقال: هو (عبارة عنه) أي: عن كلام الله وإلا ليس كلام الله كما أطلقتها الأشاعرة.

وهذا كله بناءً على القول بالكلام النفسي وأنه شيء واحد، لا فرق بين أمره ونهيه، وخبره واستفهامه، وتوراته وإنجيله، وهم الذين ألّف المصنف في الرد عليهم «التسعينية»، وهذا القول أشرف من قول الجهمية، وقد أضحكوا الأمم وخرجوا به عن المعقول، والأشاعرة فرع عن الكلابية في هذه المسألة، والماتريدية قولهم يقارب قول الأشاعرة، إلا أن بين القولين فروق عديدة، بعض المؤلفين صرح بكثير منها.

بل إذا قرأه الناس، أو كتبوه في المصاحف، لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً، لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً.

(بل إذا قرأه الناس)، أو حفظوه في صدورهم، (أو كتبوه في المصاحف، لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة)، فالصوت صوت القاريء، والمداد والورق مخلوق. وأما هذا المحفوظ فهو كلام الله، هذا المسموع هو كلام الله، هذا المرسوم هو كلام الله، هذا المتلو هو كلام الله تعالى.

فله أربع مراتب: الوجود الذهني وهو حفظه في الصدور، والوجود العيني، والوجود النطقي، والوجود السمعي، فما في الصدور منه هو كلام الله، وهذا الذي تراه في المصاحف هو كلام الله، والذي تتلفظ به هو كلام الله، والذي تسمعه هو كلام الله.

والمراد أنه بكل مراتبه ووجوهه لا يخرج عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، سواء وجوده في المصحف، أو التلاوة، أو غير ذلك، فهو كلام الله موجود في المصاحف، محفوظ في الصدور، مسموع بالأذان، متلو باللسان، والورق والمداد مخلوق، والصوت صوت القاريء، والكلام كلام الباري.

(فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً، لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً) عن غيره، فالذي يقوله الأول ينسب إليه، وقد جاء في القرآن إضافة القرآن إلى الله كقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾. والكلام في لغة العرب إذا أضيف فالمراد إلى من قاله مبتدئاً، فإنك

وهو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف.

إذا قلت: قال الشافعي، فالمراد أنه أول من قال هذا القول، وأما قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فهذا جاء في موضعين فالمراد التبليغ.

فإن قيل: أضافه إلى الرسول؟ قيل: نعم، فيه أن الرسول في آية: جبريل، وآية أنه: محمد ﷺ، فيدل على أنه ليس كلامه إنما بلغه عن غيره، فإضافته إلى مبلغه إضافة تبليغ، لا إضافة قول وابتداء لأحدهما دون الآخر.

(وهو كلام الله حروفه ومعانيه) جميعاً.

(ليس كلام الله الحروف) فقط (دون المعاني) كما يقول طوائف من أهل الكلام والحديث: أنه حروف وأصوات قديمة أزلية لها معانٍ تقوم بذات المتكلم^(١).

(ولا المعاني) فقط (دون الحروف) كما تقوله الكلابية والأشاعرة، بل هو كلام الله - مجموع الأمرين - حروفه ومعانيه.

(١) قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «طوائف من أهل الكلام والحديث من السالمية وغيرهم يقولون: إن كلام الله حروف وأصوات قديمة أزلية، ولها مع ذلك معانٍ تقوم بذات المتكلم، وهؤلاء يوافقون الأشعرية والكلابية، في أن تكليم الله لعباده ليس إلا مجرد خلق إدراك للمتكلم، ليس هو أمراً منفصلاً عن المستمع» مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٦٦/١٢.

فصل

وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله: الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم، كما يرون الشمس صحوماً ليس دونها سحب، وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته،

(فصل)

(وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته (الإيمان برؤية المؤمنين رؤية حقيقية) كما يرون الشمس صحوماً ليس دونها سحب) وذلك لظهور الباري لكل أحد.

(وكما يرون القمر) في الدنيا (ليلة البدر لا يضامون في رؤيته) كما في الحديث «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته»^(١).

قوله: «لا تضامون» بضم التاء وتخفيف الميم، أي: لا يلحقكم ضيم ومشقة في ذلك، وفي رواية «لا تضامون» أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض كنظر الشيء الخفي.

كما أن رؤية القمر ليلة البدر ظاهرة وذلك لظهور البدر لكل أحد، وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية لا تشبيه للمرئي بالمرئي؛ لأن الله تعالى لا مثل له.

(١) رواه البخاري ٢٠٣/١، رقم ٥٢٩، ومسلم ٤٣٩/١، رقم ٦٣٣.

يرونه - سبحانه - وهم في عرصات القيامة، ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله .

(يرونه - سبحانه - وهم في عرصات القيامة) في موقف القيامة .

(ثم يرونه بعد دخول الجنة) فأعلى لذة أهل الجنة هو النظر إلى وجه الله الكريم، فإنه لا لذة أعظم من اللذة بالنظر إليه سبحانه، كما أنه لا لذة لأهل الجنة أعظم من لذة السماع لكلامه، بل ما طاب لأهل النعيم نعيمهم إلا بذلك .

ثم هذه الرؤية للمؤمنين والحجب للكافرين، الرؤية للمؤمنين هي بما كان في قلوبهم من معرفة الله وإجلاله ونظره بالبصائر، وفي الآخرة بالأبصار .

أما أهل البدعة أعمت قلوبهم الشبهات والأوهام والبدع، فكذلك تحجب أبصارهم في الآخرة عن رؤية الله، كما حُجبت بصائرهم في الدنيا، ثم المؤمنون إذا رأوه في الآخرة لا يحيطون به رؤية، لعظمته وجلاله وكبريائه كما قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، وليس معناه لا تراه بل المراد أنها لا تدركه عما هو عليه، فالإدراك أخص من الرؤية ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم .

المراد: أن الرؤية الثابتة في الكتاب والسنة المجمع عليها بين سلف الأمة هي من غير إحاطة، بل لو اجتمعت أبصار العوالم فكانت في بصر شخص واحد لم يدركه تعالى على ما هو عليه جل جلاله .

(كما يشاء الله) وكيف يشاء .

فصل

ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فيؤمنون بفتنة القبر، وبعذاب القبر ونعيمه.

(فصل)

(الإيمان بما يكون بعد الموت من الإيمان باليوم الآخر) (ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت).

هذا هو الأصل الخامس من أركان الإيمان الستة، وهو يعم ويشمل الإيمان بجميع ما يكون بعد الموت، وغير ذلك من أحوال البرزخ وما بعده، فإن هنا ثلاث دور، دار الدنيا، ودار الآخرة، ودار بين الدارين وهي البرزخ والحاجب.

«الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت»، ومنه ما يحصل للميت في القبر، وهو مجمع عليه ويجب الإيمان به، والإيمان به من جملة الإيمان باليوم الآخر.

(الإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه) (فيؤمنون بفتنة القبر) الفتنة: الاختبار والامتحان، من قولك: فتنت الذهب، إذا عرضته على النار وعرفت جودته من رداثته. فيؤمنون أن المقبور يفتن، ويفتن الميت ولو لم يقبر.

(وبعذاب القبر ونعيمه). تواترت عن النبي ﷺ الأخبار والأحاديث فيه وثبوتها، وهو في الحقيقة روضة من رياض الجنة

.....

لأهل الطاعة، أو حفرة من حفر النار لأهل المعصية. روضة لمن
كان على الصراط المستقيم في الدنيا، أو حفرة لمن كان على الشك
والريب والزيغ عن الصراط المستقيم والقول الثابت في الحياة الدنيا.
ثم العذاب والنعيم في البرزخ للروح والجسد جميعاً؛ لأنهما
اللذان تساعد على الطاعة أو على المعصية، للروح بالأصالة
وللجسد بالتبع، بكيفية الله أعلم بها، فإن الروح قد انفصلت عن
الجسد، ولكن لها اتصال به كما يأتي.

فأما الفتنة، فإن الناس يفتنون في قبورهم، فيقال للرجل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ف﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فيقول المؤمن: ربي الله، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ نبيي. وأما المرتاب

(فتنة
الناس في
قبورهم)

فأما الفتنة، فإن الناس يفتنون) ويختبرون (في قبورهم) عن أعمالهم في الدنيا، وإن كان الله سبحانه قد علم ما هو كائن من الخلق قبل أن يخلقهم، فيأتيه ملكان عظيمان هائلان فطيعٌ منظرهما، وغليلةٌ أصواتهما، أحدهما اسمه منكر والآخر اسمه نكير، فهما بمنظرٍ ومسمعٍ وبحالٍ لا يقوى على إجابتهما إلا أهل التثبيت. والسؤال يكون عن مسائل القبر الثلاث، فيثبت بها قوم، ويزاغ بها آخرون.

(فيقال للرجل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ف﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾) من كان في الدنيا على الثبات والحجة والبرهان.

(فيقول المؤمن) - الذي كان على ثقة ويقين ثابت في الدنيا - : (ربي الله، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ نبيي)؛ لأنه كان عاش على الإيمان بذلك، ولهذا يقال له في الجواب على هذا عشت. . الخ. (وأما المرتاب) الذي هو على ريب وشك^(١) في الدنيا فهو بعكس ذلك عند هذه الفتنة العظيمة، يكون له الريب والشك

(١) قلت: في أحد التقريرات قال: «وأما المرتاب الذي على الريب والميل، فله الريب والميل عند هذه الفتنة». أثبت هذا لئلا يكون بينهما فرق في المعنى، وقد يكون الشاك نوعاً، والزائغ نوعاً آخر.

فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته،
فيضرب بمرزبة من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء
إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق.

(فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته)، دينه
دين المدينة، وهو ما كان عليه أهل مدينته، يعني: فلولا أنه وجدهم
عليه ما دان، ليس معه إيمان واصل إلى قلبه ومصداقه جوارحه.

(فيضرب بمرزبة) بمطرقة عظيمة (من حديد، فيصيح)
المضروب (صيحة يسمعها كل شيء) من خلق الله (إلا الإنسان، ولو
سمعها الإنسان لصعق) لسقط مغشياً عليه أو ميتاً من فظيع تلك
الصيحة، وفي الحديث: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم
من عذاب القبر»^(١). لكن من رحمة الله ولطفه وحكمته في عمارة
هذه الدار، أن الإنسان لا يسمع ما لأهل القبور، فلو سمع لما
استقام لهم حياة، ولا قر لهم قرار على وجه الأرض.

(١) رواه مسلم ٤/٢١٩٩، رقم ٢٨٦٧.

ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب، إلى أن تقوم
القيامة الكبرى، فتعاد الأرواح إلى الأجساد.

(مآل
الناس بعد
فتنة القبر)

(ثم بعد هذه الفتنة) وهي سؤال الملكين الفتانين اللذين هما
بالمنظر الفطيع، وكذلك انتهارهم المسؤول.

(إما نعيم) وهذا هو نعيم البرزخ لأهل الثبوت.

(وإما عذاب) - والعياذ بالله - لغير المثبت، فالكافر في جحيم.

والبرزخ: هو الفاصل بين شيئين، فقبر الإنسان هو دار البرزخ
بين أهل الدنيا وأهل الآخرة، والعذاب والنعيم فيه لأهله، للأرواح
والأجساد جميعاً، فالأحكام في البرزخ للأرواح، والأجسام تبع لها،
وفي الدنيا للأبدان، والأرواح تبع لها، وفي الآخرة لهما جميعاً،
واتصال الروح بالجسد له خمس مراتب^(١).

(إلى أن تقوم القيامة الكبرى فتعاد الأرواح إلى الأجساد) هذا
النعيم للمُثَبَّت، والجحيم للكافر، يستمر إلى أن تقوم القيامة
الكبرى، فإن القيامة قيامتان، صغرى وهي الموت فإن من مات فقد
قامت قيامته، وكبرى.

(١) قال ابن القيم - رحمه الله -: «الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة
الأحكام، أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً، الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى
وجه الأرض، الثالث: تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من
وجه، الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقت وتجردت عنه فإنها لم تفارقه
فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها النفثات إليه البتة، الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد،
وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ تعلق لا
يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً» كتاب الروح ص ٤٣.

وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون . فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً، وتدنو منهم الشمس، ويلجمهم العرق، وتُنصَب الموازين فتوزن فيها أعمال العباد .

(وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون . فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين) وهذه هي القيامة الكبرى كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

(القيامة
الكبرى)

(حفاة) لا نعال لهم، وأين النعال يومئذٍ؟

(عراة) وأين الثياب يومئذٍ؟

(غرلاً) غير مختونين، وهذا كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُمْ﴾ .

(وتدنو منهم الشمس) فتكون قرب ميل، ويزاد في حرارتها، وكلهم تَضَلَّاهُ الشمس غير السبعة، ويكون كل إنسان في ظل صدقته، وما أثبتت النصوص أنهم يُظَلُّون وإلا فلا ظل .

(ويلجمهم العرق) يبلغ موضع اللجام من الفرس وهو الفم، وذلك لهول ذلك اليوم وكربه .

(وتُنصَب الموازين) الإيمان بنصب الموازين من الإيمان باليوم الآخر؛ فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل أنواعاً منها هذا، ونصوص الكتاب والسنّة في ذلك معروفة .

(نصب
الموازين)

(فتوزن فيها أعمال العباد) نفس الحسنات والسيئات، ولا ينفاني

﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾، وتشر الدواوين، وهي صحائف الأعمال، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره،

هذا ما جاء في وزن الصحائف والأبدان، فإن خفتها وثقلها إنما هي بالأعمال كما قاله ابن كثير.

﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾) ولو بحبة واحدة، بأن رجحت حسناته بسيئاته فإنه ناج، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾) الفائزون. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾) من الموحدين فإنه تحت المشيئة، إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء عامله بالعدل.

ومن عذبه ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾) خلود مؤبد للكافرين، أما الموحد فلا يخلد في النار.

(وتنشر) يعني: تُفَلُّ (الدواوين) جمع ديوان وهي الورقة التي قيدت فيها أعمال العبد - حسناته وسيئاته التي كتبتها الحفظة - كما في الآية ﴿يَلَّا وَرُسُلَنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

(وهي) هنا (صحائف الأعمال) صحائف أعمال العباد وأقوالهم الصادرة منهم، المترتب عليها الثواب والعقاب، للنظر والاطلاع على ما فيها لعاملها، فيقرؤها من كان يقرأ في الدنيا ومن لم يكن يقرأ مسطورة.

(فأخذ كتابه بيمينه) وهم أهل السعادة.

(وأخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره) وهم أهل الشقاوة

- والعياذ بالله -.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِبَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۖ﴾ .

(كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِبَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ﴾) يعني: ما طار له وما قدر له ملازم له ملازمة لا انفكاك له منه بحال، فهو لازم في عنقه وهو ما قدر وكتب له في الأزل.

(﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾) يعني: مفلولاً بمقتضى ذلك، ولا حجة له في ذلك على القدر، فإن الحجة قائمة على العباد (﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾)، وفي الآية الأخرى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۖ﴾ .

وينقسم الناس حينئذٍ إلى قسمين: أخذ كتابه بيمينه، وهم أهل السعادة والنجاة، وأخذ كتابه بشماله ومن وراء ظهره.

فمن أوتي كتابه بيمينه فهو من أصحاب اليمين. ومن أوتي كتابه بشماله فهو من أهل الشقاوة كما في الآيات ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۖ﴾ ، وكما قال: ﴿فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْتِيَكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۖ﴾ ، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أقرءوا كِتَابِيهِ ۖ﴾ .

والإيمان بنشر الصحائف وأخذ الصحائف بالإيمان أو الشمالي، الإيمان بذلك من جملة الإيمان باليوم الآخر.

ويحاسب الله الخلائق، ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه، كما وصف ذلك في الكتاب والسنة، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنه لا حسنة لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها.

(الحساب من أعظم أمور الآخرة) (ويحاسب الله الخلائق) الإيمان بالمحاسبة على الأعمال حسناتها وسيئاتها وعددها من جملة الإيمان باليوم الآخر. والحساب من أشهر وأهم وأعظم أمور الآخرة، فإن الإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان الإيمان يشمل الإيمان بالمحاسبة.

(خلو الرب بعبده المؤمن) (ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه) وخطاياها، حتى يقر بها ويعرفها، يقول: فعلت في يوم كذا وكذا في مكان كذا وكذا.

(كما وصف ذلك في الكتاب والسنة) وعلى تفاصيل في الخلوة، فيستر ويغفر لمن يشاء بفضله، ويعذب من يشاء بعدله.

ومحاسبة المسلمين تتضمن: وزن حسناتهم وسيئاتهم وتوقيفهم على سيئاتهم، فصارت المحاسبة تتضمن: تقريرهم ومجازاتهم.

والمسلمون بعرضة المجازاة عليها، عدل بالنسبة إلى السيئات، والعفو عنه تجاوزاً.

(محاسبة الكفار) (وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنه لا حسنة لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها ويقررون بها) أنهم فعلوها (ويجزون بها) فلا يُعذب أحدٌ إلا مقراً

.....

معتزلاً بذنبه، حتى تنطق أبعاضهم بذلك من كمال عدله .

هذه المسألة - المحاسبة للكفار - :

من أهل العلم من قال : ليس لهم حسنات يحاسبون عليها .

ومنهم من قال : يحاسبون كما يحاسب المسلمون .

والإطلاق في الطرفين غلط ، لا يصح إطلاق أنهم يحاسبون ، ولا يصح إطلاق أنهم لا يحاسبون ، فالذي يُثبت أنهم يحاسبون ويُطلق ، يتناول أنهم يحاسبون مثل المسلمين الذين توزن حسناتهم وسيئاتهم واحدةً واحدةً ، وكذلك إذا قيل إنهم لا يحاسبون ، فإن هذا الإطلاق يشمل أنهم لا تعد أعمالهم ولا تحصى . . الخ ، وإن لم يقصده القائل .

فالصحيح : قول المصنف المتقدم .

وأما المسلمون فيحاسبون ؛ لأن لهم حسنات صحيحة ثابتة ، فمن زادت حسناته دخل الجنة ، ومن نقصت : إما أن يعفو الربّ ويتجاوز عنه ، أو يعذبه على قدر سيئاته .

وفي عرصات القيامة: الحوض المورود للنبي ﷺ،
ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد
نجوم السماء، طوله شهر وعرضه شهر، من يشرب منه شربة
لا يظماً بعدها أبداً.

(وفي عرصات القيامة) العرصات: جمع عرصة، والعرصة
المجتمع فيه سعة وانفساح، ومنه عرصة الدار وهو المتسع الذي
حواليها الذي يراد للاجتماع فيه، ومنه قول الشاعر:
فلما حَوَّثَهَا عَرِصَةُ الدَارِ سَلَّمْتُ (١)

وعرصات القيامة: متسع القيامة وهي المواضع التي يجتمع
فيها الخلق، وهي الأرض كلها، تُمدد الأديم العُكَاظِيَّ.

(الحوض المورود للنبي ﷺ) والحوض الكوثر لنبينا
محمد ﷺ، وجاء في الحديث صفته وآنيته والشرب منه وأهل
الشرب.

(ماؤه أشد بياضاً من اللبن).

(و) طعمه (أحلى) طعماً (من العسل).

(وآنيته) التي عليه (عدد نجوم السماء).

مسافة (طوله شهر، وعرضه شهر).

(من يشرب منه شربة لا يظماً بعدها أبداً) يعني يستمر به ربه

(١) القائل أحمد بن مشرف وتمام البيت:

فلما حَوَّثَهَا عَرِصَةُ الدَارِ سَلَّمْتُ سلام حبيب زائر ذي تودد

ديوان ابن مشرف ص ٢.

.....
أبداً لا يظماً حتى يدخل الجنة، فإذا دخل الجنة فَرِيَّ على رِيٍّ،
وأحاديث الحوض معلومة كثيرة شهيرة ثابتة عن النبي ﷺ.

فالإيمان بالحوض وصفاته المذكورة من الإيمان باليوم الآخر
كما سبق لكم، فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بجميع ما
يكون بعد الموت.

والصراط منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار، يَمُرُّ الناس عليه على قدر أعمالهم،

(الإيمان
بالصراط
ونصبه على
متن جهنم)

(والصراط منصوب على متن جهنم) الإيمان بالصراط،
والإيمان بنصبه على متن جهنم، من الإيمان باليوم الآخر.

(وهو الجسر الذي بين الجنة والنار) الصراط: هو الطريق،
وسمي الصراط طريقاً؛ لأنه يُعبر منه إلى الجنة. يَمُرُّ على وسط النار
حتى ينتهي إلى الجنة، ولا يَمُرُّ إلى الجنة إلا منه، والصراط
صراطان: حسي وهو هذا، ومعنوي وهو في الدنيا.

(يَمُرُّ الناس عليه على قدر أعمالهم) والثبات على الحسي
حسب الثبات على المعنوي في الدنيا، وجاء في الأحاديث أنه أدقُّ
من الشعر، وأحدُّ من السيف، وأحرُّ من الجمر، وأنه دحض مزلة.

والقوى الحسية لا استطاعة لها على المرور عليه، لا يمر معه
إلا بالقوى المعنوية الإيمانية، وهو بحسب الاستقامة على هذا
الصراط المعنوي في الدنيا.

والمرور عليه على حسب الأعمال ثباتاً وسقوطاً، وسرعة
وإبطاء واستقامة، سواء بسواء، ولهذا قال: «على قدر أعمالهم»، لا
على قدر أجسامهم، كما أن الصراط في الدنيا أحظى الناس به
أقواهم إيماناً لا أجساماً.

(أقسام
الناس في
المرور على
الصراط)

والناس في سرعة المرور عليه على أقسام، فأهل السير: هم
الذين استقاموا على الطريق المعنوي ولم يتثقلوا عنه.

فمنهم من يمر كالمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف ويلقى في جهنم، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم،

(فمنهم من يمر) عليه (كالمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف) حتى إن منهم من إذا عبر خُطف خُطفاً (ويلقى في جهنم).

(فإن الجسر) - الصراط - (عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم) قد حف به كلاليب، هو مثل السير على الصراط المعنوي، وهي شُبهُ التردد والتثاقل والسير بالهويناء، فكما أن الكلاليب في هذا الصراط المعنوي في الدنيا من الشبهات والشهوات تخطفهم، فتلك الكلاليب تخطف الناس على قدر ما تخطفهم الشبهات والشهوات في تلك الأعمال وبسبب الأعمال، فكما خطفتهم في الدنيا خطفتهم في الآخرة، ومن خُطف سقط في جهنم.

فمن مر على الصراط دخل الجنة، فإذا عبروا عليه، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة.

(فمن مر على الصراط دخل الجنة) بكل حال ولا يرد إلى النار أبداً.

والظاهر أن المرور إنما هو لأهل الإسلام، وأن الذي يخطف هو صاحب المعاصي والشبهات والشهوات؛ لأن الكفار لم يدخلوا في هذا الصراط المعنوي في الدنيا.

(الوقوف على القنطرة والحكمة من ذلك)

(فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة) الظاهر أنها جسر يقفون عليه (بين الجنة والنار).

والسر في الوقوف على هذه القنطرة: (فيقتص لبعضهم من بعض) فإنه لا بد من أخذ الحقوق فلا أحد يدخل الجنة أو النار حتى تؤخذ الحقوق التي له، أو التي عليه ويؤديها، فلا يدخلونها من تلك القنطرة حتى يهذبوا وينقوا.

(متى يدخل أهل الجنة الجنة؟)

(فإذا هذبوا ونقوا) من درن الذنوب وأرجاس المعاصي ويصلحون لمجاورة الربّ الكريم في دار الخلد.

(أذن لهم في دخول الجنة)؛ لأن الجنة دار طيبة في جوار الطيب سبحانه، ولا يدخلها إلا طيب، كما قال سبحانه: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ فالفاء للسببية فلا يدخلها أحد عنده دَرَنٌ: ذنب أو مظلمة.

وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته .

(وأول من يستفتح باب الجنة) يعني : يطلب فتحها ودخولها نبينا (محمد ﷺ)، فلا أحد يطلب ويسأل فتحها ليدخل فيها قبل نبينا محمد ﷺ .

(أول من يطلب فتح باب الجنة ودخولها نبينا محمد ﷺ)

(وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته)، فإنها أول الأمم دخولاً وإن كانت آخرها وجوداً، كما عرف ذلك من الأحاديث الصحاح، كما في قوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»^(١)، وذلك لأن الله شرع لهذه الأمة أعمالاً لم تشرع لمن قبلهم تفضلاً عليهم بأن كانوا هم أول الأمم دخولاً الجنة، وليس أنهم أكثر الأمم أعمالاً، ففي هذا فضيلة هذه الأمة كونها آخر الأمم وجوداً وأولها دخولاً الجنة .

(١) رواه البخاري ٢٩٩/١، رقم ٨٣٦، ومسلم ٥٨٥/٢، رقم ٨٥٥ .

وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات: أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن تتراجع الأنبياء - آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم - عن الشفاعة، حتى تنتهي إليه .

(وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات) اشتقاق الشفاعة من الشفع (الإيمان بالشفاعات) خلاف الوتر، والشفع: الاثنان، سُمي شفعاً؛ لأن طالب الحاجة يكون اثنين بعد أن كان واحداً.

والإيمان بالشفاعات من جملة الإيمان باليوم الآخر .

وللنبي ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات بالنسبة إلى الشفاعات العمومية، وإلا هناك شفاعات غير ما ذكره المصنف، كشفاعته في عمّه لتخفيف العذاب لا إخراجهم، فثنتان مختصتان به، وواحدة مشتركة .

(أما الشفاعة الأولى: فيشفع) إلى الله (في أهل الموقف حتى يقضى بينهم) فيستريحوا من كرب الموقف الذي تقدم من صفته قرب الشمس والعرق . الخ .

(بعد أن تتراجع الأنبياء - آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم - عن الشفاعة) كلُّ من هؤلاء يعتذر (حتى تنتهي إليه)، فيقول ﷺ: أنا لها، قال ﷺ: فيفتح عليّ من المحامد ما لا أحسنه الآن، قال: فيقال: اسأل تعط، واشفع تشفع . الخ، وهي التي في الحديث «وأعطيتُ الشفاعة»^(١)، وهذه الشفاعة العظمى، وهي المقام

(١) رواه البخاري ١٢٨/١ رقم ٣٢٨، ومسلم ٣٧٠/١ رقم ٥٢١ .

.....

المحمود الذي أوتيه ﷺ، يعني: الذي يحمده الأولون والآخرون،
يعني: الذي يُغبط به، الذي فيه فضل ومرتبة عليا، فإن هذا المقام
ليس لأحد سواه، بل هو مختص به ﷺ.

وقيل: إنه إجلاله معه على العرش، جاء في الحديث أنه
يقعد مع الله تعالى على العرش كما ثبتت به السنة^(١)، ويكون هذا
أيضاً من المقام المحمود.

والظاهر أنه لا منافاة بين القولين، فيتقدم فيشفع بإذن الربّ
- جل وعلا - في أهل الموقف ليحاسبوا، فإن الربّ تعالى لا يأتي
الخلق في الفصل إلا بعد شفاعته ﷺ. فإن أهل الموقف إذا اشتد
بهم الكرب العظيم ينظرون ويتراجعون من هو الذي يشفع لنا عند
ربنا ليفرج عنا من كرب هذا الموقف فيذكرون أباهم آدم. . الخ.

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٦/٣٠٥ رقم ٣١٦٥٢، وابن أبي عاصم في السنة
١/٣٠٥ رقم ٣٦٥، وابن جرير في تفسيره ٨/١٣٢ موقوفاً على مجاهد.
قال ابن جرير في تفسيره ٨/١٣٤: «ما قاله مجاهد من أن الله يُقعد محمداً على
عرشه، قولٌ غير مدفوع صحته، لا من جهة خبر ولا نظر».
وقال شيخ الإسلام: «حدّث العلماء المرضيون، وأوليأوه المقربون، أن محمداً رسول
الله يجلسه ربه على العرش معه، روى ذلك محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد في
تفسيره ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، وذكر ذلك من وجوه أخرى مرفوعة،
وغير مرفوعة، قال ابن جرير: - وهذا ليس مناقضاً لما استفاضت به الأحاديث من أن
المقام المحمود هو الشفاعة، باتفاق الأئمة من جميع من ينتحل الإسلام ويدعيه لا
يقول إن إجلاله على العرش منكرٌ -، وإنما أنكره بعض الجهمية، ولا ذكره في
تفسير الآية مُنكراً». مجموع الفتاوى ٤/٣٧٤.

وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان خاصتان له ﷺ.

وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم،

(وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة)، فإن أهل الجنة الذين استوجبوها بسبب الأعمال الصالحة لا يدخلونها إلا بعد استفتاحها فيشفع لهم (أن يدخلوا الجنة)، وكذلك أهل الجنة من سائر الأمم. (شفاعته الثانية: في أهل الجنة الذين استوجبوها أن يدخلوها وهي خاصة به ﷺ)

(وهاتان الشفاعتان) الأولى: الشفاعة في محاسبة الخلائق، وهذه الثانية في الذين استحقوا دخول الجنة بفضل الله ورحمته وتوفيقه لهم للأعمال الصالحة في حياتهم وموتهم على الإيمان، (خاصتان له ﷺ).

(وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار) من عصاة الموحدين خاصة. (شفاعته الثالثة: فيمن استحق النار من عصاة الموحدين أن لا يدخلها، ومن دخلها أن يخرج منها، وهي ليست خاصة بالنبي ﷺ)

(وهذه الشفاعة) هو فيها سيد الشفعاء وأكملهم فيها، وليست مختصة، بل هي (له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم)، فيشفع الأنبياء والرسل والأولياء والملائكة والأقراط وغيرهم ممن أذن الله لهم أن يشفعوا كما جاء في النصوص، وهذه هي التي ينكرها المعتزلة.

وأما أهل السنة فإن قولهم فيها هو ما دل عليه الكتاب والسنة، وهو أن أحكامهم في الدنيا حكم المسلمين إن قام عليهم حدٌ أقيم

فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها
أن يخرج منها.

عليهم، وفي الآخرة مُعَرَّضُونَ للوعيد وَمَخُوفٌ عليهم، ومع ذلك
يؤمنون بالأخبار المتواترة عن النبي ﷺ في الآخرة من الشفاعة
للعصاة.

(فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها)
منهم (أن يخرج منها) قبل أن يُطَهَّرُوا من أَوْضار^(١) الذنوب، فإذا
طُهِرُوا أُخْرِجُوا، إذا كانوا ماتوا على التوحيد، كما بَيَّنَّ في الأحاديث
أن من مات على التوحيد غير مشرك فالشفاعة تتناوله، قال ﷺ:
«وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله
من لا يشرك بالله شيئاً»^(٢).

(١) الأوضار: الأوساخ. لسان العرب مادة وضر.

(٢) رواه مسلم ١٨٩/١ رقم ١٩٩.

ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعه، بل بفضله ورحمته، ويبقى في الجنة فضلُ عمن دخلها من أهل الدنيا، فينشيء الله لها أقواماً فيدخلهم الجنة .

(إخراج بعض عصاة الموحدين من النار بفضل الله ورحمته من غير شفاعه) (ويخرج الله من النار أقواماً) ممن استحق النار من الموحدين (بغير شفاعه، بل بفضلهم ورحمته) بمحض فضل من الله ورحمته، كما جاءت بذلك النصوص الثابتة عن النبي ﷺ، وذلك لسبق الرحمة الغضب كما في الحديث «إن رحمتي سبقت غضبي»^(١).

(وينشيء الله لها أقواماً) لم يعملوا خيراً قط، لأنها وعدت ملئها، (فيدخلهم الجنة) بفضلهم ورحمته، كما أن الأولين يدخلون الجنة بفضلهم ورحمته، أبلغ من أن يعفى عن أناس؛ لأن الجنة وعدت ملئها وليس فيها تضايق كالنار.

والفرق بين هذه وهذه، من سبق الرحمة للغضب من إدخال قوم الجنة بغير شفاعه، وأن النار لا تدخل إلا بذنوب فتمتليء كما في الحديث:

وهذا لما سبق، من سبق الرحمة للغضب، فإن جانب الفضل والرحمة، أغلب من جانب العدل والغضب، وأما النار فلا تمتليء بل لا تزال تطلب الزيادة حتى يكمل أهلها فيها، ولا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله، فينزوي بعضها إلى بعض

(١) رواه البخاري ٦/٢٧٠٠، رقم ٦٩٨٦.

.....

فيصرون ملئها بضيق، فتقول: قط قط، ولا ينشيء الله لها كما أنشأ للجنة.

ولنعرف أنه جاء في حديث أبي هريرة انقلاب على بعض الرواة «أنه ينشيء للنار من يشاء فيلقون فيها» وهذا انقلاب بل صواب الحديث وصحيحه الثابت: «أن الله ينشيء للجنة خلقاً فيسكنهم فضل الجنة».

وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة، من الحساب،
والثواب والعقاب، والجنة والنار، وتفاصيل ذلك مذكورة في
الكتب المنزلة من السماء، والآثار من العلم المأثور عن
الأنبياء، وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ، من ذلك ما
يشفي ويكفي، فمن ابتغاه وجده.

(تضمن
الكتاب
والسنة
تفاصيل
اليوم
الآخر)
وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة)، وما أُعدّ فيها (من
الحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار، وتفاصيل ذلك) كلها
معلومة (مذكورة في الكتب المنزلة من السماء، و) في (الآثار من
العلم المأثور عن الأنبياء).

(وفي العلم الموروث عن) النبي (محمد ﷺ، من ذلك ما
يشفي ويكفي) مما تضمنه الكتاب والسنة، بل في القرآن والسنة
أعظم وأكثر مما سواهما من الكتب. بل ما جاء عن النبي ﷺ أشمل
مما جاء في الكتب السابقة وأخبار الماضين.

(فمن ابتغاه) فمن تطلّبه وتبعه في مظانه فيها (وجدته) مبيناً
موضحاً في كتب التفاسير والسنن والصحاح وغيرها من كتب
الحديث، فإن في ذلك من التفاصيل شيء كثير.

وكان المصنف رأى أنه أقلّ في المقام، ولكن المقام لا يتحمل
وينبغي أن يُتطلب، فأحال بقوله: «وتفاصيل ذلك... الخ».

وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره

وشره .

(وتؤمن الفرقة الناجية) - من النار، والناجية من بين الفرق (أهل السنة والجماعة - بالقدر) وهذا آخر أصول الإيمان الستة المتقدم ذكرها في أول هذه العقيدة المختصرة، وتقدم لك ما يتعلق بالخمسة الأول، وهذا الفصل مما يتعلق بالسادس وهو القدر، والمصنف - رحمه الله - ذكر الأصول الستة، وما بعد ذلك شرح، منه ما هو ببسط ومنها دون ذلك، فالذي تكلم فيه ووقع فيه النزاع وكثر بين أهل السنة والمبتدعين أطال فيها، والتي لم يتنازع فيها ذكر منها كالإشارة .

ولم يقل: «فصل ومن أصول أهل السنة، الإيمان بقدره الله، والإيمان بكتب الله، والإيمان برسول الله»، وذلك لأن المبتدعة لم يكن لهم كلام فيه ولا نزاع، إنما ذكر الذي فيه النزاع «القدر» مسألة الإيمان به، فإن القدرية النفاة والمجبرة، انحرفوا عن الصراط المستقيم فاحتجج لبعض التطويل في ذلك .

والقدر: من التقدير وهو التهيئة .

(خيره وشره) كما جاء في بعض ألفاظ الحديث . قدر مقادير الخلائق بما يلائم الخلق من أمور دينهم ودنياهم، جميع ما كان في الأديان والأبدان، والخير والشر، والصحة والمرض، ونحو ذلك، فهو بقضاء الله وقدره . فما من خير في الأديان والأبدان فهو بقضاء الله وقدره، وما من شر في الأديان والأبدان فهو بقضاء الله وقدره .

(الإيمان
بالقدر)

والإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون، بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي، والأرزاق والآجال، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق،

(الإيمان
بالقدر على
درجتين،
وكل درجة
تتضمن
شيئين)

(والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة) واحدة منهما (تتضمن شيئين)، فمن آمن بها كلها حقيقة فقد آمن بالقدر، ومن كفر بها أو ببعضها فقد كفر بالقدر.

(الدرجة
الأولى: العلم،
والشيء
الأول منه
علم الله
السابق
للأشياء
علماً
تفصيلاً)

(فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون) من خير وشر، وجارين عليه من خير أو شر.
عَلِمَهُ (بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزْلاً، وَعِلْمُ جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي، وَالْأَرْزَاقِ) سَعَتِهَا وَضَيْقُهَا، (وَالْأَجَالِ) طُولُ الْأَعْمَارِ وَقَصْرُهَا، وَالْأَجْسَامِ صِحَّتِهَا وَسَقَمُهَا، وَكَذَا وَكَذَا إِلَى مَا لَا يَحْصَى، وَالْآثَارِ، وَجَمِيعِ تَفَاصِيلِ مَا هُوَ صَائِرٌ مِنْهُمْ وَعَلِمَهُ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ. فَعَلِمَ تَفَاصِيلَ مَا هُوَ صَادِرٌ مِنْهُمْ وَمَا هُوَ جَارٍ مِنْهُمْ، وَمَا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ.

(الشيء
الثاني من
الدرجة
الأولى:
الإيمان
بالكتابة)

وهذا الشيء الأول من هذه الدرجة الأولى: الإيمان بعلم الله الأشياء، أنه علمها في الأزل علماً تفصيلاً.
ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق، والشيء الثاني من الدرجة الأولى: الإيمان بالكتابة، أنه كتب ما هو عالم،

فأول ما خلق الله القلم قال له : اكتب ، قال : ما أكتب؟ قال :
اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . فما أصاب الإنسان لم
يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، جفت الأقلام ،
وطويت الصحف ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾

ورسم أن الخلق عاملوه ، ويأتي الشيطان ، فتجتمع حقيقة الإيمان
بالقدر في هذه الأربعة .

فصار الإيمان بالقدر في الحقيقة ينتظم الإيمان بأربعة أشياء .

(فأول ما خلق الله القلم) بالنسبة إلى هذا الكون المشاهد ، وإلا
فالعرش موجود مخلوق قبله كما في الأحاديث .

(قال له : اكتب ، قال : ما أكتب؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى
يوم القيامة) هذا من جملة الأحاديث المثبتة للقدر .

(فما أصاب الإنسان) مما علم الله وكتبه (لم يكن ليخطئه) ولو
اجتمع أهل السموات والأرض ، (وما أخطأه لم يكن ليصيبه) هذا
نتيجة وحقيقة الإيمان بالقدر .

(جفت الأقلام) التي كتبت بها المقادير .

(وطويت الصحف) على ما كتب فيها ، فلا تغيير ولا تبديل
(كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ
ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾) هذا هو الكتاب الأول ، يعني : أن ما علمه كائناً
من العباد ، كتبه في الكتاب الذي فيه المقادير ، فأول الآية فيه إثبات
العلم السابق ، وآخرها فيه إثبات الكتابة السابقة .

(نتيجة
الإيمان
بالقدر)

إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١﴾، وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢﴾ وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع، جملة وتفصيلاً، فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء،

ثم قال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

(وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴿٤﴾﴾ قبل أن نبرأ الأرض، وقيل: الأنفس، وقيل: المصيبة، والحقيقة: أنه يعود إليها كلها^(١)، ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٥﴾﴾.

فهذان شيان تتضمنهما هذه الدرجة.

(وهذا التقدير) أي: قدر الكتابة التي هي الثاني من أنواع القدر (التابع لعلمه سبحانه)، فإن الكتابة تابعة لعلمه سبحانه، (يكون في مواضع):

(جملة): يعني: أنه أقسام وأنواع، بعضها جملة، وبعضها تفصيل لبعض.

(وتفصيلاً): منها ما هو كتابته جملة، ومنها ما كتابته تفصيلاً، ولكن ما بعد الجملة يكون تابعاً للجملة.

(الكتاب
الأول:
الجملة)

(فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء) وهذا الكتاب الأول،

(١) (عبارة أخرى) «والصحيح: أنه عام في كل شيء».

وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكاً،
فيؤمر بأربع كلمات، فيقال له: اكتب رزقه، وأجله، وعمله،
وشقي أم سعيد، ونحو ذلك، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة
القدرية قديماً،

ليس فيه تغيير أبداً، ألا ترى أنه قال: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ هذا
هو الجملة، ومن هذه الجملة تفاصيل، منها عند تخليق الجنين .

(وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكاً،
فيؤمر بأربع كلمات، فيقال له: اكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي
أم سعيد)، وجاء أنه يقال لَمَلَكِ الأرحام: ارجع فانظر إلى قصة هذه
النطفة .

(الكتاب
الثاني:
التفصيل)

(ونحو ذلك) هذا نوع من أنواع التفصيل من الجملة الأولى،
وهو راجع إليها .

ومنه ما يكون في ليلة القدر، وكذلك الذي في خبر ابن عباس
ينظر الله فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة . الخ^(١)، فهذا كله
تفصيل من القدر .

(فهذا القدر) يعني: الكتابة (قد كان ينكره غلاة القدرية
قديماً)، يعني: الذين خرجوا في زمن الصحابة كمعبد الجهني،

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن مما خلق الله لوحاً محفوظاً من درة بيضاء، دفتاه من ياقوتة
حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة أو مرة، ففي
كل مرة منها يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويزل، ويفعل ما يشاء، فذلك
قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾» رواه الحاكم في المستدرک ٥١٦/٢، رقم
٣٧٧١، والطبراني في الكبير ٢٦٠/١٠، رقم ١٠٦٠٥ .

.....
وعمر بن عبيد وأتباعهما يقولون: لا قدر، يعني: أن الأمر أنف (الرد على من أنكر ذلك) - مستأنف - .

وقال الإمام الشافعي: «ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصِّمُوا، وإن جحدوه كفروا» .

يعني: أن كفرهم من هذه الناحية أشهر، فإنهم إن جحدوا العلم فقد جحدوا سابق علم الله .

ويقول الإمام أحمد - رحمه الله - : «القدر: قدرة الله»، واستحسنه ابن عقيل .

ومراده أن هذه جملة هامة عظيمة في هذا الباب، وفي ضمنها بطلان ما سلكوه من إنكار أن الله على كل شيء قدير .

ومراد أحمد - رحمة الله عليه -، يعني: من آمن بالقدرة فإنها حجة على القدر، ومن أنكر قدرة الله على الأشياء فقد أنكر قدر الله، يعني: فمن أنكر القدر فقد أنكر قدرة الله، يعني: وأي شيء يستنكر من كتب الله تعالى إذا كان قد علمه فما المانع من الكتابة؟! .

وحدِيث: «إن الأمر أنف»^(١)، يعني: يستأنف الله ما يقضيه إذا

(١) عن يحيى بن يعمر قال: خرجت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين، أو معتمرين، وقلنا: لعلنا لقينا رجلاً من أصحاب محمد ﷺ فنسأله عن القدر، فلقينا ابن عمر رضي الله عنهما، فظننت أنه يكل الكلام إليّ، فقلنا: يا أبا عبد الرحمن قد ظهر عندنا أناس يقرؤون القرآن، يتقفرون العلم تقفراً، يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: «فإن لقيتهم فأعلمهم أنني منهم بريء، وهم مني براء، والذي يحلف به ابن عمر، لو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهباً ثم لم يؤمن بالقدر لم يقبل منه» رواه ابن حبان ٣٨٩/١، رقم ١٦٨ .

ومنكروه اليوم قليل .

أرادته، يعني: يجد له قدراً، يعني: وأن لا قدر سابق.

«يتقفرون العلم»: يعني: يخوضون فيما لم يسبقهم إليه أحد،
وفي رواية: «يفقرون» يعني: يتكلفون، لكونهم بحثوا فيما لم يتعبد
الخلق العلم بها، بل تعبدوا بالسكوت عنها.

(ومنكروه اليوم قليل) في زمن الشيخ ومن يليه . فالذين في
زمن المصنف نفاة لا ينكرون هذا، بل ينكرون غيره من أنواع القدر،
أو المجبرة وهم أكثر من النافية .

وأما الدرجة الثانية: فهو مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون، إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات

(الدرجة الثانية) (وأما الدرجة الثانية) تقدم أن الإيمان بالقدر على درجتين، وتقدمت الدرجة الأولى، وأنها تتضمن شيئين، وأن أحدهما: أن الله عَلِمَ . . الخ، والثاني: أنه كتب ما علمه في اللوح المحفوظ . . الخ. وهذه الدرجة الثانية، وهي تتضمن شيئين: الأول: الإيمان بالإرادة والمشيئة، والثاني: الإيمان بخلق الله الكائنات بقدرته سبحانه وتعالى.

(الشيء الأول من الدرجة الثانية: الإيمان بالإرادة والمشيئة) (فهو مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، و) حقيقة ذلك وإيضاحه: (هو الإيمان بأن ما شاء الله كان)، ولا يريد شيئاً إلا يكون بكل حال، (وما لم يشأ لم يكن) وهذه كلمة المسلمين ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومقتضى أن ما شاء الله كان، أن ما لم يشأ لا يكون.

(وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون، إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد) فما من شيء واقع إلا وقد شاءه الله ولا بد، وما لم يشأ فلا يكون أبداً، ولا يكون شيء طاعة أو معصية إلا الله شاءه.

(وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات

والمعدومات، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء
إِلَّا اللهُ خالقه سبحانه، لا خالق غيره ولا ربّ سواه.

والمعدومات) التي لم تفعل والممكن وجوده. أما المستحيلات
فليست شيئاً حتى تشمل بالعلم والقدرة.

(فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه
سبحانه) وموجده، هذا من مضمون ما شاء الله كان.

(لا خالق غيره ولا ربّ سواه) فشاء ما في الكون وأوجده
بقدرته ومشيتته، فصار ما في الكون بهذين الشئيين.

فصار الإيمان بالقدر ينتظم أربعة أشياء :

الأول: الإيمان بعلم الله القديم.

الثاني: الإيمان بأن ما علمه كتبه في السابق.

الثالث: الإيمان بأن ما شاء الله كان.

الرابع: الإيمان بأن ما من موجود إلا الله موجده^(١).

فما من موجود من الموجودات إلا وهو مشمول بهذه الأربعة:
الإيمان بعلمه تعالى السابق، والإيمان بأن الله كتب في الأزل ما
عَلِمَهُ كائناً، والإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، والإيمان بأنه
ما من موجود إلا وهو موجده.

(الشيء
الثاني من
الدرجة
الثانية:
الإيمان
بخلق الله
الكائنات
بقدرته)

(١) (عبارة أخرى): «الرابع: أن الله كَوَّنَ ما في الوجود، أجزاءه وأفعاله وصفاته».

ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم
عن معصيته.

(ومع ذلك) يعني: ما تقرر لك من الأصل العظيم - وهو
الإيمان بالقدر، وأنه أحد أركان الإيمان الستة، وما اشتملت عليه
الأشياء الأربعة السابقة - يأتي بعد ذلك عدم منافاة القدر للشرع،
وأتهما أخوان مصطحبان لا ينافي أحدهما الآخر، وأنه ما ضاق به
صدرٌ إلا المبتدعة، نظروا بعين واحدة وأغضوا عيناً، أخذوا جانباً
من النصوص وتركوا جانباً، وهدى الله أهل السنّة والجماعة فنظروا
بالعينين جميعاً وآمنوا بالشرع والقدر جميعاً.

(فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته)
ومعصية رسله، فوجب الإيمان بشرعه وقدره جميعاً، بأن يؤمن أن
هذا شرعه ويمثله ويفعله، فإذا امتثل صار من أهل السعادة، والقدر
لا حجة فيه، وهو تام وماضٍ، ولا راد له، وسبق أن لا يكون الخلق
على طريق واحد؛ بل أن يكون الخلق متفاوتين كما قال: ﴿وَمِنْ
كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ كجنة ونار لتسكنا، وهو اللائق
بجلاله، وسواه ليس بكمال.

ولا منافاة بين الشرع والقدر، فإنها ضاقت أعطان القدرية ولم
تتسع للشرع والقدر جميعاً.

فالقدرية النفاة من المعتزلة وغيرهم أثبتوا الحكمة والشرع
وغلوا فيهما، ونفوا القدر أو بعضه، وقالوا: إن الأمر والنهي بيد
الإنسان، فإنها زعمت أنها إذا أثبتت القدر صارت معطلة للشرع.
وقابلها طائفة القدرية الجبرية، فغلبت جانب القدر وغلت فيه،

وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى
عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا
يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى
لعباده الكفر، ولا يحب الفساد.

وعطلت جانب الشرع، وقالوا: إن العبد مجبور لا فعل له، وإنما
هو كالأشجار في مهب الريح . . الخ.

وأهل السنة قالوا: له فعل صحيح، واختيار صحيح، ويحمد
على فعل الخير، ويذم ويعاقب على فعل الشر.

فهدى الله أهل الحق أهل السنة والجماعة فأمنوا بالشرع والقدر
وقالوا: ما في الكون كله خلق لله، فالأفعال فعل للمخلوق، خلق
للرب، فأفعالهم نسبتها إلى الله نسبة خلق وإيجاد، ونسبتها إلى العبد
نسبة فعل.

فالشرع والقدر متلازمان ولا حجة في القدر على الشرع، بل
قد ركز الله في عقول العباد معرفة النافع من الضار، وأحدهم يعرف
الضار ويجتنبه، والنافع فيأتيه.

(وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى
عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى
عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر،
ولا يحب الفساد)، ففرق بين المحبة والإرادة لا كما زعمه المبتدعة
الذين يقولون: ما شاءه فقد أحبه^(١)، بل يريد سبحانه وتعالى أشياء

(يريد
سبحانه
أشياء
يجبها
وأشياء لا
يجبها)

(١) قلت: القدرية النفاة يقولون: لا معنى لمشيئته إلا أمره، فما شاءه فقد أمر به، وما =

.....

لا يحبها، وقد أراد كُفْر إبليس وكُفْر الكفار، ومع ذلك لا يحبه لكونه ظلماً وفساداً، فهو سبحانه لا يحب الكافرين، ومع ذلك أفعالهم بقدرته وقضائه، يحبه قدرأً ولا يحبه شرعاً، فإنه يحب ذلك ولا يحب المفعول، يحب القضاء والقدر في أهل الشقاء، وما يترتب عليه مبغوض له، فعلمه وقضاؤه كله جميل، والله يحب كل جميل.

= لم يشأه لم يأمر به، والجبرية قالوا: إن مشيئته وإرادته بمعنى واحد، وقد شاء ما وقع من المعاصي فهو يحبها ويرضاها.
مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/٣٤٠.

والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، والعبد هو
المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم، وللعباد
قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة،

(والعباد فاعلون حقيقة) إذا عرف ما تقدم من القدر والإيمان
به، وعرف أن الله أمر بطاعته وطاعة رسله، وأنه لا تعارض بين
القدر والشرع، وأن أهل السنة آمنوا بهما جميعاً، فاعلم أن العباد
لهم أفعال حقيقية تقول: صلى زيد، زنى زيد. خلافاً للأشاعة، فإن
عندهم القول بالكسب^(١).

(العباد
لهم أفعال
حقيقية
والله
خالقها)

(والله خالق أفعالهم) نعم هي منه خلق وإيجاد. ففرق بين
الخلق والفعل.

فأفعال العباد لها نسبتان: نسبة فعل وعمل، ونسبة خلق
وإيجاد، فنسبة الخلق لله ونسبة الفعل إليهم.

(والعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي
والصائم) وإن كان مدبراً بل هو حقيقة إذا صلى فهو المصلي، وإذا
قتل فهل القاتل غير من فعل القتل؟! فالفعل إنما يضاف إلى من
باشره، كما تقول: قام زيد، كفر زيد، قعد زيد، هذا هو المعروف
في لغة العرب التي نزل بها القرآن، فما صدر من المخلوق فهو فعل
له، ليس فعلاً لرب العالمين.

(وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة)، لهم تصور واختيار وفعل.

(١) وهم مضطربون في تعريف الكسب، فقال بعضهم: «هو تعلق القدرة الحادثة في المقدور في محلها من غير تأثير»، ولهم فيه تعاريف أخرى وكلها لا حقيقة لها، وحقيقة قولهم: قول
جهم أن العبد لا قدرة له ولا فعل ولا كسب. انظر النبوات ٤٦٢، شفاء العليل ص ٤٩.

والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ .

وهذه الدرجة من القدر، يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة،

(والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم) كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، فهي لرب العالمين خلق وإيجاد وتكوين، وللمخلوق فعل وتصور، فهي قضاء الله وقدره، وهي للعبد فعل، فجانب الخلق إلى الله، وجانب الفعل إلى من صدر منه وباشره. كما تقدم وكما يأتي.

ومما يدل على ذلك (قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾) دل على أن للعبد مشيئة حقيقية، ودل على أن له استقامة، ودل على أن العبد لا يملكها استقلالاً، فوجود وتصور المشيئة من العبد لا يكون إلا بمشيئة الله. فإرادته تابعة لإرادة الله، ومشيئته تابعة لمشيئة الله.

(القدرية

النفاة من

المعتزلة

وغيرهم،

يخرجون

أفعال العباد

عن أن تكون

مخلوقة لله،

وزعموا أن

العبد يخلق

فعل نفسه)

(وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية) أي: النفاة

من المعتزلة وغيرهم (الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة)،

وإنما سموا مجوس هذه الأمة، لمضارعة مذهبهم لمذهب

المجوس، لإخراج المجوس بعض مخلوقات الله عن الله، فإن

المجوس هم القائلون بالأصلين، النور والظلمة، وأن النور خلق

الخير، وأن الظلمة خلقت الشر، فهؤلاء ضارعوهم، أخرجوا أفعال

ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه، حَكَمَهَا ومصالحها.

العباد عن أن تكون مخلوقة لله، ورأوا أن العبد هو الذي يفعل الطاعات والمعاصي ويخلقها، والذي ألجأهم - زعماً منهم - لإثبات الشرع، غلّو منهم في أفعال العباد. قالوا: لو كانت خلقاً لله لكان ذلك للعبد ظلماً، ويريدون الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ باء العوض، وهؤلاء مشبهة الأفعال، وضعوا أوضاعاً جعلوا الخالق فيها مثل المخلوق، والباء للسبب كما في الحديث: «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله» الحديث^(١).

(ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات) وهم الجبرية، ويقولون: إن العبد لا فعل له أصلاً، أثبتوا هذه الدرجة من القدر وغلوا فيها.

(الجبرية)
يسلبون
العبد
قدرته
واختياره

(حتى سلبوا العبد قدرته واختياره) قالوا: لا قدرة له ولا اختيار، فهذا مسلك الجبرية ومنهم الجهمية ومن مسلك المنتسبين إلى أبي الحسن الأشعري، وإن كان قد رجح عما كان قد قال به أولاً، والمنتسبون ليسوا على ما كان عليه، فإنه صرح أنه على مذهب أهل السنة.

(ويُخرجون عن أفعال الله وأحكامه حَكَمَهَا ومصالحها) فينفون الحكمة.

(١) رواه أحمد ٢/٢٥٦، رقم ٧٤٧٣: «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل».

.....

والخلاصة: أن القدرية النافية أثبتوا الفعل للعبد ولم يثبتوا أنها خلق لله، وقابلهم المجبرة في ذلك، فالكل منهم رد النصوص من الكتاب والسنة.

وهدى الله أهل السنة، فأمنوا بالشرع والقدر جميعاً، ووفَّقوا (أهل السنة آمنوا بالشرع والقدر جميعاً) بين النصوص.

فصل

ومن أصول أهل السنّة والجماعة: أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب

(فصل)

(ومن أصول أهل السنّة والجماعة: أن الدين والإيمان) الدين هو الإيمان، من عطف الصفة على الصفة، وفي ذلك مزية وهو أنه يسمى الدين ويسمى الإيمان.

(معتقد
أهل السنّة
والجماعة
في حد
الإيمان أنه
قول
واعتقاد
وعمل
يزيد
وينقص)

ولنعرف مسألة، وهي أدلة جاءت في القرآن ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾، ﴿فَأَمِنَ لَمْ يُطُ﴾ هذا المعنى باللام: التصديق، وما تعدى بالباء فهو الشرعي، وبعض عرفه بأنه تصديق خاص وهو ناقص.

وأهل السنّة لهم عبارات في حد الإيمان نحو خمس عبارات منها: الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان. وكلها ترجع إلى شيء واحد، ومن أحسنها وأجمعها وأشملها ما عرفه به شيخ الإسلام هنا.

(قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح)

(قول القلب) علمه وتصديقه وإقراره.

(معنى
قول القلب
وعمله)

(وعمل القلب) عمل القلب انقياده بمقتضى ما أقرّ به من الأعمال القلبية، كالخشية والخضوع والرغبة والرغبة، والتوكل عليه

واللسان والجوارح،

ورجائه ومحبته، وأشياء غير ذلك من أعمال القلوب، فإنه أولاً يصدق ثم ينقاد لما صدق به، وكونه يصدق ولا ينقاد من الحجة عليه كما قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فلا بد من أن ينقاد ويعمل.

(و) قول (اللسان) نطقه بما يدخله في الإسلام. (الفرق بين قول اللسان وعمله) وأما عمله فهو نطقه بالشيء الزائد على كلمة الإسلام من أنواع العبادة كالذكر ونحو ذلك^(١).

فدخل في ذلك فعل الواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات.

فقول اللسان وعمله قسمان:

قسم: لا يصح الإسلام إلا به، وهو كلمة الإسلام.

وقسم: هو من واجباته ومندوباته ولا يفتقر في صحته إليها.

فالكل من الإيمان، كل خصلة إيمان، وسواء كان من الظاهر أو الباطن.

وهذا الحد عرفت أنه شامل الإسلام، فإنه ما من خصلة من خصال الإيمان، إلا وهي داخلة في الإسلام.

(و) عمل (الجوارح) ظاهر، كالمشي بالرجل إلى الصلوات، (معنى عمل الجوارح)

(١) (عبارة أخرى): «وعمله: انقياده».

وأن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية،

وإعطاء اليد في الصدقات، وما يعمل بالأركان من صلاة وحج، وغير ذلك من الأعمال الظاهرة من البدن، فدخل في هذا الحد جميع الطاعات من فرض ومندوب، والانكفاف عن جميع المحرمات، فترك خصلة من المحرمات من الإيمان، وعمل خصلة من الواجبات من الإيمان، والمندوبات من مندوباته، وهذا الحد يوافق عليه المعتزلة والخوارج، خلافاً للمرجئة من أعظمهم الجهمية.

ومرجئة الفقهاء أقل ما فيها أنها بدعة، ويعد منهم أبو حنيفة عرفوا الإيمان بالنطق بالشهادتين والتصديق.

(وأن الإيمان يزيد بالطاعة) بفعل الطاعات، (وينقص بالمعصية) وينقص بفعل المعاصي.

(الإيمان
يزيد
بالطاعة
وينقص
بالمعصية)

وزيادته ونقصانه تارة من جهة الشرع، وتارة من جهة العامل، وتارة لا من هذا، ولا من هذا.

فالأول: إذا شرّع شيء صار من الإيمان وزاد بذلك وقت التشريع. فالذين ماتوا من المسلمين في أول الهجرة آمنوا بالإيمان جميعه، والذي نزل بعد ذلك زيادة في الإيمان.

والثاني من جهة العامل: إذا زاد خصلة من خصال الإيمان زاد إيمانه، وإذا عصى نقص إيمانه.

والثالث: المرأة إذا حاضت، وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى، قال:

.....

فذلك من نقصان دينها»^(١) ولا تأثم عليه، فهذا نقصان من الإيمان الواجب، ومع ذلك هو نقص ولا تأثم، وتارة نقصانه بالمعاصي كما تقدم.

ويتبعض ويتجزأ وهذا هو الذي عليه أهل السنّة، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهذا الحد مختص بقول أهل السنّة والجماعة. وخالف في ذلك المرجئة والجهمية، والمعتزلة والخوارج. فالمرجئة والجهمية يقولون: هو تصديق فقط، أو قول فقط، أو هما معاً، وأنه لا يزيد ولا ينقص، ولا يتبعض ولا يتجزأ، ولا يدخلون أعمال الجوارح في مسمى الإيمان، فإيمان جبريل وفرعون سواء.

والنصوص من الكتاب والسنّة ظاهرة أنه منه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ يعني: صلاتكم لبيت المقدس.

والمعتزلة والخوارج يقولون: لا يزيد ولا ينقص، ولا يتبعض (الإيمان عند المعتزلة والخوارج) وهم يجعلون العفو ذنباً، والذنب كفراً.

المعتزلة والخوارج يوافقون المرجئة والجهمية في أنه لا يزيد ولا ينقص، وبنوا عليه أصلاً وهو أنه إذا زال زال بالكلية، وإذا وجد وجد بالتمام، ويوافقون أهل السنّة والجماعة في أنه قول وعمل، ويخالفون أهل السنّة في أنه يتبعض ويتجزأ.

(١) رواه البخاري ١١٦/١ رقم ٢٩٨.

وأهل السنّة يقولون: إنه يزيد من ناحية الصلاح والتصديق،
- من ناحية العمل وما في القلوب -، فالتصديق الذي في قلب أبي
بكر ليس مثل غيره.

وكذلك النقصان من ناحية المعاصي، نظير البصر، زيد مثلاً
يعرف فلاناً من نصف كيلو، وعمر يُميّز أنه رجل لا امرأة، وخالد
يرى الشخص لكن لا يميز أرجل أو امرأة.

وأدلة الزيادة والنقصان في القرآن معلومة، والسنّة كذلك،
منها: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين»^(١).

فالإيمان يكسب القلب ليناً لأجل كمال حياته فيزيد، والمعصية
تُظلم بالقلب فينقص الإيمان، وفي الآية ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ
وَقُلُوبَهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

(١) رواه البخاري ١١٦/١، رقم ٢٩٨، ومسلم ٨٦/١، رقم ٧٩.

وهم مع ذلك، لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، كما قال تعالى - في آية القصاص -: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْعَٰهُ

(أهل السنة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج) (وهم) أهل السنة (مع ذلك) مع القول بهذا الحد (لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر)، يعني: كونه تصدر منه معصية أو معاصٍ فليس كافراً بذلك. فعند أهل السنة: أن من خصال الإيمان ما يزول كله بزوالها، كأركان الإسلام والإيمان. ومنها ما يزول كماله الواجب، كفعل بعض المعاصي والكبائر التي لا توصل إلى الكفر.

ومنها ما يزول كماله المندوب بترك مندوبات الإيمان.

فالأعمال مع الإيمان بمنزلة الشجرة إذا زال الأصل زالت الشجرة وكذا الإيمان، فإن قطع شيء من أوراقها وأغصانها كانت ناقصة، فهي بعد ذهاب الورق شجرة، وبعد ذهاب الأغصان شجرة، لكن كاملة وناقصة.

(كما يفعله الخوارج) بناءً على أصلهم السابق أن الإيمان لا يتبعض ولا يتجزأ، فبزوال خصلة منه يزول كله، فيخرج من رتبة الإيمان فيكفرونه بمطلق المعصية أو الكبيرة.

(الرد على الخوارج) (بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع) وجود (المعاصي) منهم (كما قال تعالى - في آية القصاص -: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْعَٰهُ

بِالْمَعْرُوفِ ﴿٩﴾ ، وَقَالَ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴿٩﴾ .

بِالْمَعْرُوفِ ﴿٩﴾) سَمَاهُ أَخَاهُ مَعَ وَجُودِ الْقَتْلِ ، وَجَعَلَ الْأَخُوَّةَ الْإِيمَانِيَّةَ بَيْنَهُمَا ، (وَقَالَ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴿٩﴾) ، وَكَذَلِكَ سَمَاهُمْ إِخْوَةٌ لَهُمْ مَعَ وَجُودِ التَّقَاتِلِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْأَخُوَّةَ الْإِيمَانِيَّةَ ثَابِتَةٌ مَعَ وَجُودِ الْمَعَاصِي ، فَظَهَرَ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَأَمْثَلَهُمَا ضَلَالُ الْخَوَارِجِ وَأَمْثَالِهِمْ .

وَمِنْ جَمَلَةٍ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ الْخَوَارِجُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الْآيَةَ وَأَشْبَاهَهَا .

وَالرَّدُ عَلَى الْخَوَارِجِ مِنْ غَيْرِ مَا تَقَدَّمَ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ صَدَرَ مِنْهُ مَعَاصٍ مِنَ الزَّانِ وَالسَّرِقَةِ وَالسُّكْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَثَبَّتَ لَهُمْ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ مِنْ تَوْرِيثِهِمْ ، وَمَنْ دَفَنَهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَمِنْ الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَكُونُوا كَفَارًا .

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الضَّلَالِ تَكْفِيرَ عَصَاةِ الْمُوَحِّدِينَ ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَقْبَلُ التَّبَعُضَ وَالتَّجْزَأَ .

ولا يسلبون الفاسق الملي الإيمان بالكلية، ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة

(أهل السنة لا يسلبون عصاة الموحدين اسم الإيمان بالكلية) - (ولا يسلبون الفاسق الملي) - الذي من أهل ملتنا وهو فاسق - اسم (الإيمان بالكلية)، لا يسلب اسم الإيمان بالكلية ويقال: ليس بمؤمن كما تقوله المعتزلة.

المعتزلة يقولون - بأصل الخوارج -: إنهم خرجوا من الملة، تتفق مع الخوارج في خروجه من الإيمان، ولكن الخوارج يقولون: يخرج من الإسلام والإيمان، ويدخل في الكفران.

والمعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان ويقفون، يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وردوا بذلك نصوص الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وأهل السنة بخلاف القولين: - القول بخروجه من الإيمان والوقوف، والقول بدخوله في الكفر، بريئون من مقالة الطائفتين -، ويقولون: إنه تحت المشيئة كما في الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فعصاة الموحدين تحت المشيئة، إن شاء الربّ عذبهم على قدر جرائمهم وطهرهم منها، وإن شاء تجاوز وعفا وسمح عنهم وأدخلهم برحمته الجنة.

(ولا يخلدونه في النار) أهل السنة لا يقولون: بخلوده في النار (كما تقوله المعتزلة) والخوارج، فالمعتزلة متفقون مع الخوارج في حكمه في الآخرة أنه مخلد في النار.

وهذه المسألة يقال لها: مسألة أسماء الدين وأحكامه.

وحد الإيمان سبق لك ما هو حدّه عند أهل السنة وعند الخوارج

بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله :
﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ ، وقد لا يدخل في اسم الإيمان
المطلق كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ
اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ،

والمرجئة . وتقدم أن الأخوة تبقى معهم ولو على المعاصي .

(بل الفاسق) الملي ، الذي يجاهر بالمعاصي ويكابر بها ،
يحكم عليه بالفسق ويتغلظ بحسبها ، ومن تكرر منه حبس عليها
(يدخل في اسم الإيمان المطلق) لا كما يقوله هؤلاء ، ولا هؤلاء .

(كما في قوله : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾) ، ووجه دلالتها : أنه
لو أعتق رقبة فاسقة ذات معاص ، أجزاء بإجماع أهل العلم ، فصار
داخلاً في هذه الآية وهو قوله : ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ .

(وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق) لعصيانه ، (كما في
قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾) ، فإن الفاسق الملي لا يجل قلبه ، وليس
ممن إذا تليت عليه الآيات زادته إيماناً على الحقيقة ، فما دخل في
الإيمان الذي يستحق أن يثنى عليه ويمدح به ، إنما يثنى على من أتى
بالإيمان الكامل . فالفاسق ما دخل في هذا ، إذ لو كان ممن إذا ذكر
الله وجلت قلوبهم لما دخل في المعاصي .

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ أي : القرآنية السمعية ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾
فلم يدخل في هذا ، فإنه ليس بمؤمن الإيمان المطلق .

فالفاسق لا يخرج من الإيمان بالكلية ، وإن خرج من الإيمان

(الفاسق)
الملي لا
يخرج من
الإيمان
بالكلية ،
ولا يدخل
في الإيمان
المثنى به)

وقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن».

ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان،

المُشْتَى به لا يخرج عن الثاني وهو مطلق الإيمان، والمُشْتَى به هنا هو الواجب، فإيمانه ناقص، إذ لو كان مؤمناً بالإيمان الواجب لزرجه عنها، فإنه لم يباشرها إلا عن نقص إيمانه.

(وقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن») فهذا الحديث فيه نفي الإيمان عن أهل الكبائر.

قول بعض السلف: «إن الإيمان يخرج كالظلة فوقه» المراد به: خرج ما يستحق به الثناء عليه.

(ونقول) كأن قائلًا قال: إذا كان الفاسق قد يدخل في اسم (العاصي) يقال له: مؤمن ناقص الإيمان المطلق، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق، فهل تقولون إنه مؤمن، أو تقولون: إنه كافر؟

فنقول: لا نقول: إن العاصي كافر، ولا نقول: إنه مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته له، (ناقص الإيمان) لنقصه بعض واجبات الإيمان، فلا يستحق أن يثنى عليه به، لا نفي لأصل الإيمان عنه.

أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم.

(أو) نقول: (مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته)، ونكون قد خرجنا من بدعة الخوارج الذين يقولون: هو كافر، ومن بدعة المرجئة الذين يقولون: إنه مؤمن كامل الإيمان، فنصير وسطاً بينهم.

فالزاني والسارق مثلاً يقال: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من الفسق أو الكبيرة، إحدى هاتين العبارتين.

وبعض السلف قالوا: نقول إنه مسلم، ولا نقول: إنه مؤمن، وهذا يشبه أن يكون عدم تعرض للمسألة وحياداً عنها، والذي ذكره شيخ الإسلام تصريح فيها، وهو أحسن.

(فلا يعطى الاسم المطلق) ويقال: مؤمن ويسكت، (ولا يسلب مطلق الاسم) فيقال: ليس بمؤمن ويسكت.

أما قول: ليس بمؤمن، فهذا ظلم وهضم لحقه وتعد عليه، لأن معه أصل الإيمان.

وإن قيل: هو مؤمن، فهذا إعطاء له ما ليس بحق له، وهو لا يستحق أن يثنى عليه به، وإدخال له في آية المدح: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وهو ليس كذلك.

فدخوله في الإيمان باعتبار، وعدم دخوله باعتبار، فبذلك يكون هذا القول جامعاً بين النصوص جميعاً، وموافقاً للكتاب والسنة.

.....

ولعل قائلاً أن يقول: كيف يدخل الفاسق في الآيات في اسم الإيمان المطلق، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق.

فيقال: إن آية ﴿فَتَحْرِيْرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ على وجه إثبات الإيمان له، لا على وجه المدح والكمال.

وعدم دخوله في آية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنها على وجه المدح والكمال كما تقدم.

والضابط: أنه إذا ذكرت الآيات التي فيها الأحكام، فالمطلق يدخل فيها.

فصل

«ومن أصول أهل السنّة والجماعة: سلامة قلوبهم
وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ،

فصل

(ومن أصول أهل السنّة والجماعة: سلامة قلوبهم) وطهارتها
لأصحاب رسول الله ﷺ، سلامة قلوبهم من الغل والحقد، والبغض
والعداوة، واعتقاد السوء في الصحابة.

(و) سلامة (ألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ)، فألسنتهم
سالمة من أن تتلوث بالطعن والوقيعه في أعراض أصحاب
رسول الله ﷺ، بل هم أحب طائفة إليهم.

يعني: خلافاً للروافض الذين قلوبهم مفعمة من بغض أصحاب
رسول الله ﷺ وعداوتهم، وألسنتهم مسلقة في سب أصحاب
رسول الله ﷺ، فمن مذهب الروافض: تكفير أصحاب رسول الله ﷺ
إلا بضعة عشر.

فمذهبهم في أصحاب رسول الله ﷺ أشنع مذهب وأفظعه،
ولهذا صاروا أشر من اليهود والنصارى في هذا الباب، فإنهم لو
سئلوا مَنْ شركم؟ لقالوا: أصحاب محمد ﷺ، واليهود لو سئلوا من
خيركم؟ لقالوا: أصحاب موسى، والنصارى لو سئلوا من خيركم؟
لقالوا: أصحاب عيسى.

(من
أصول أهل
السنّة
والجماعة:
سلامة
قلوبهم
وألسنتهم
للصحابه
ﷺ)

(مذهب
الرافضة في
أصحاب
رسول
الله ﷺ)

كما وصفهم الله في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ

وذهب بعض أهل العلم إلى تكفير الروافض، واستدل بقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ . (كفر الروافضة)

هذا التكفير في بدعة التفضيل من دون بدعة التخوين، وأيضاً هناك شيء آخر وهو عبادة الأوثان - والعياذ بالله - .

(كما وصفهم الله) يعني: أهل السنة والجماعة بسلامة قلوبهم (في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾) يعني: من بعد المهاجرين والأنصار.

فمن بعد البعثة المسلمون على ثلاث طبقات: مهاجرين، وأنصار، وتابعين إلى يوم القيامة، فمن صفة الطبقة الثالثة: أنهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾، فإن الآية الأولى في المهاجرين ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، والآية بعدها في الأنصار ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، فأثنى الله على من جاء بعد المهاجرين والأنصار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ .

فهذا وصف أهل السنة وهذه مقالته، يدعون للصحابة بالمغفرة كما يسألونها لأنفسهم، فمدحهم الله بهذه المقالة، وهي

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾
وطاعة النبي ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي»

باقية في أهل السنة إلى يوم القيامة، والرافضة ليسوا كذلك، بل
يقعون فيهم أشد الوقعة، بل يكفرونهم إلا النفر القليل.
ولهذا استدل مالك بالآية على منعهم الفيء.

ثم وصفهم بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا
إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾) والغل في قلوب الروافض، حتى - صاروا في هذا
الباب - يظهر منهم عند ذكر الصحابة من الأقوال والأعمال مضحكات
من شدة الغيظ في قلوبهم. وبهذا ينبغي لولاة الأمور أن لا يجعلوا
لهم رفاة ولا شيئاً أبداً، اللهم إلا أن يزول رفضهم أولاً، بما يُظهرون
أولاً، فيعطون.

(وطاعة النبي ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي) والخطاب مع
من؟ مع خالد بن الوليد رضي الله عنه وأصحابه في قصة بني جذيمة، لما
قتلوا من قتلوا، - ظناً منهم أنهم لم يسلموا -، أنكر عليه عبد الرحمن
ابن عوف رضي الله عنه قتله لهم، فسبه خالد، فقال النبي ﷺ: «لا تسبوا
أصحابي» يعني عبد الرحمن بن عوف، مع أن خالداً وأصحابه من
الصحابة، لكن عبد الرحمن أسبق صحبة، فما الظن فيمن بعده في
الزمن والفضل؟!)

(أهل السنة
والجماعة
أشد الناس
طاعة للنبي
ﷺ في محبة
الصحابة)

فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

(فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل) جبل (أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم) من البر ونحوه ينفقه (ولا نصيفه) لغة في النصف، وذلك أن تفاوت الأعمال إنما هو بالنسبة إلى ما في القلوب، لما فيها من صريح الإيمان والصدق ما لا يكون لمن بعدهم.

فالأجل الآية، ولأجل طاعة النبي ﷺ في هذا الحديث، الذي فيه أعظم تغاير بين الصحابة ومن بعدهم، كان مسلك أهل السنة في الصحابة هو ما تقدم.

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع، من فضائلهم ومراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح - وهو صلح الحديبية - وقاتل،

(ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة) المطهرة (والإجماع، من) مناقب الصحابة و(فضائلهم ومراتبهم)، وفضائل الصحابة جمعة، جاءت نصوص عامة لجميعهم، وجاءت نصوص خاصة، منها ما هو تفضيل لهم عموماً، ومنها خصوص طائفة على طائفة بالتفضيل، مثل المهاجرين فضلوا على الأنصار، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، ومنها ما هو تفضيل أشخاص على أشخاص، وأهل السنة يقبلون ذلك كله ويعرفون لكل واحد من الصحابة فضله.

(فضائل
الصحابة
عامة
وخاصة)

(ويفضلون) من الصحابة (من أنفق من قبل الفتح - وهو صلح الحديبية -) سماه الله فتحاً، فإن الناس دخلوا في الدين، وكانوا في غزوة بيعة الرضوان ألفاً وأربعمائة، وبعدها كانوا نحواً من عشرة آلاف، فإن الصحابة لما اجتمعوا بالكفار وبينوا لهم وقاتلوا كانوا أفضل ممن أنفق من بعده وقاتل.

(من أنفق
من قبل
الفتح وقاتل،
أفضل وأرفع
ممن أنفق
من بعده
وقاتل)

فمن كان قبل صلح الحديبية من الصحابة بادروا ولم يبالوا بكثرة الأعداء، فأنفقوا وقاتلوا مع الشدة والقلّة، وبذلوا المهج والنفس والنفيس، ومَن بعدهم أنفقوا وقاتلوا، ولكن مع الكثرة والقوة فبهذا كانوا أفضل.

فالأولون في ضيق العيش وشدة العدو وقلة النصر.

فهذا جنس المراتب، فجنس من أنفق من قبل الفتح (وقاتل)،

على من أنفق من بعده وقاتل ، ويقدمون المهاجرين على الأنصار ،

أفضل وأرفع (على من أنفق من بعده وقاتل) ، لقوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ فهو لاء أفضل .

ومنهم السابقون ، وإنما كانوا أفضل ، لأنهم كانوا سابقين ، ولأنهم اختاروا الإسلام وقت القلة والشدة ، ففرق بين من دخل في حال الضيق والشدة ، ممن قد كثر الناصر والداخل في الدين ، فإن النبي ﷺ حين صالح أهل الحديبية ليتمن الناس ، فدخل بذلك خلق كثير ، ولهذا كان ما بين صلح الحديبية وبين فتح مكة سنتان ، وفي الحديبية عددهم ألف وزيادة ، وفي فتح مكة عشرة آلاف .

(المهاجرون) (ويقدمون المهاجرين على الأنصار) أهل السنة يرون أن الكل أفضل من الأنصار) له فضيلة وخير ، ولكن يرون أن المهاجرين أفضل ؛ لأن الله قدم المهاجرين على الأنصار في مواطن الثناء عليهم في عدة آيات - والله لا يقدم إلا الأفضل - كما في سورة الحشر ، ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هم أهل المدينة ، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ .

وإنما قدموا المهاجرين لأجل النصوص ، فالمهاجرون أقدم في الفضيلة لكون الله قدمهم ، فالتقديم يفيد التفضيل كما تقدم ، والحكمة في ذلك أنهم باثروا من الشدائد ما لم يباشره الأنصار ،

ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر - وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر - : «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»

ولكونهم فارقوا مآلوفاتهم من المساكن والأوطان والأموال والعشائر وغير ذلك، كله نصرة لله ورسوله، وبعضهم فارق والديه كما في قصة سعد وقصتهما معروفة.

والأنصار آووا المسلمين ونصروهم بالمال والأبدان، ولكن في أوطانهم وعشائرهم فكانوا في الفضل دون المهاجرين، فبهذا يعرف سبب تفضيلهم وسبقهم أيضاً رضي الله عن الكل وأرضاهم.

(ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر) وبدر: ماء معروف غير بعيد من المدينة، وجرت فيه الوقعة الشهيرة، وهو المذكور في الآية الكريمة.

(لأهل بدر)
رتبة
عالية

(وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر) الذي شهدها من الصحابة هم هذا العدد.

(اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) يعني: فيؤمنون بأن النبي ﷺ قال ذلك، وبأنهم ممتازون بالفضيلة على غيرهم من الصحابة، فهي رتبة عالية لشهودهم هذا المشهد الكبير الذي فرَّق فيه بين الحق والباطل.

لكن لا بد من معرفة معنى ذلك، فليس معناه عند أهل العلم أنه مرخص لهم في الكفر والمعاصي، لكن من ثواب الله لأهل بدر أن المعاصي المتجددة إذا وقعت من أحدهم فإنه يوفق للتوبة، وكذلك توفيقه للحسنات، كله من ثواب الله، فهذا معنى التكفير في باقي العمر بعد ذلك.

(معنى)
مغفرة الله
لأهل بدر)

وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، كما أخبر به النبي ﷺ. بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه،

فلا تظن أن الواحد من البدرين مأذون لهم في المعاصي، بل إيمانهم أعظم من غيرهم، وعصيان من انقطع إلى الله أعظم؛ لامتيازه بالمعرفة، والشكر في حقه أكد، لكن مغفرة ذلك من أجل ما جرى على أيديهم من النفع، أي: وما عملتم من عمل لا يصل إلى الكفر مغفوراً لكم، والكفر لو قدر وجوده من بدري حبط عمله، وهم متفاوتون في الأجر، فلِعَمَر من سنامه ما ليس لغيره.

(و) كذلك أهل السنّة والجماعة يؤمنون (بأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) وذلك سنة ست، فلما صدّ المشركون النبي ﷺ عن البيت وهم هذا العدد، أخذ النبي ﷺ عليهم أن لا يفروا، فبايعوه تلك البيعة فرضي الله عنهم، (كما أخبر به النبي ﷺ) في قوله: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»^(١)، وهؤلاء هم أهل بيعة الرضوان.

(أهل السنّة
والجماعة
يؤمنون
بأنه لا
يدخل النار
أحد بايع
تحت
الشجرة)

أما قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فالمراد المرور على الصراط، فإنه منصوب على متن جهنم؛ وجميع الخلق يعبرون عليه، فالورود أعم من الدخول، فالدخول أخص، فلا يلزم من الورد الدخول.

(كل من
بايع تحت
الشجرة في
الحديبية
فإن الله قد
رضي عنه)

(بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه) كل منهم قد رضي الله عنه، وغير خاف أن الرضا درجة فوق المغفرة كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ

(١) رواه مسلم ٤/١٩٤٢ رقم ٢٤٩٦.

وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة .

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴿المعروفة في صلح الحديبية، فإن النبي ﷺ في سنة ست خرج قاصداً مكة في ذي القعدة معتمراً، ولما بلغه أن قريشاً يريدون أن يصدوه عن العمرة، عزم على أن من قاتله أن النبي ﷺ يقاتلهم، فبايعهم تحت الشجرة على ألا يفروا إذا لقوا قريشاً في مكة، فصالحهم النبي ﷺ أن يعتمر من القابلة .

المقصود أنهم بايعوه تحت الشجرة، (وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة) فيؤمن أهل السنة أن الله رضي عنهم .

فهؤلاء هم أهل بيعة الرضوان لهم مزية على من لم يحصل له ذلك، هذه فضيلة عمومية لأهل بيعة الرضوان، كما أن موقعة بدر عمومية لأهل بدر على غيرهم، وكذلك فضيلة المهاجرين على من ليسوا مهاجرين كذلك، ومنها باعتبار تفضيل العشرة، فهي خاصة لهم بالنسبة إلى غيرهم وعامتهم .

وفي الصحابة من له فضائل خاصة به، كأبي بكر وعمر وغيرهم، وكذلك الملازمون له في الصحبة، وهذا غالب فيهم ليس في كل فرد منهم، بل من اجتمع بالرسول ﷺ ولو لحظة وهو مؤمن به فإنه من الصحابة .

ونشهد بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ، كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماس،

(مسألة الشهادة بالجنة والنار) هذا أصل من أصول أهل السنة، لأنه شهد له الرسول بوحى من الله فنجزم. وبشهادة المعصوم له عُرف أنه لا يأتي عليه ما ينقض هذه.

(كالعشرة)، جاء في بعض الأحاديث تعدادهم في حديث واحد ومتفرقة، والعشرة هم: أبو بكر الصديق، والفاروق، وذو النورين، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، والزيبر، وطلحة، وأبو عبيدة، ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: أبو بكر في الجنة، عمر في الجنة^(١). الخ فنشهد ونجزم أنهم من أهل الجنة.

(وثابت بن قيس بن شماس) وله قصة شهيرة، فإنه كان يخطب للنبي ﷺ، وكان ثقیل السمع ولما نزلت ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية خشى أن يكون ممن يرفع صوته في القرآن فاحتبس في بيته يبكي، ففقده النبي ﷺ وسأل عنه، فقيل له: إنه لما نزلت هذه الآية احتبس في بيته وخشى أن يكون ممن رفع صوته فحبط عمله وأنه من أهل النار، فأرسل إليه النبي ﷺ وبشره بالجنة وقال: «أخبروه أنه من أهل الجنة»^(٢).

(١) رواه الإمام أحمد ١٩٣/١ رقم ١٦٧٥.
(٢) رواه البخاري ١٣٢٢/٣، رقم ٣٤١٧، ومسلم ١١٠/١، رقم ١١٩.

وغيرهم من الصحابة .

وكعكاشة بن محصن^(١)، ومعاذ للحديث^(٢)، وبلال^(٣)،
ولذلك قال المصنف: (وغيرهم من الصحابة)، فكل ما ثبت لأحد
نص أنه من أهل الجنة فهو من أهل الجنة .

ثم هنا مرتبة بين الشهود الكلي والتعيين، كأهل بيعة الرضوان
وكأهل بدر، فإنه يشهد لهم بمثل هذا، فهي عمومية من وجه
خصوصية من دون غيرهم من المسلمين، وعموم من حيث أنه لم
يقبل في واحد بعينه بل يقال فيهم ذلك عموماً .

ومن لم يشهد له بالتعيين من الصحابة أو غيرهم فلا نشهد له
به وإن بلغ ما بلغ، لأنه لا يُدرى عن الخواتيم، للحديث في
ذلك^(٤)، بخلاف الشهادة بالصلاح والخير، كما جاء عن علي لما
سئل وهو على المنبر، والرؤيا تثبت الخيرية إذا تواترت ولا يشهد له
بمجردها؛ لأنه لا يدرى ما خاتمته، وكذلك السوء .

(لا نشهد
لأحد بجنة
أو نار ما
لم تشهد
له
النصوص
بذلك)

(١) كما في حديث السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقام
عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم»
رواه البخاري ٢١٥٧/٥، رقم ٥٣٧٨، ومسلم ١/١٩٧، رقم ٢١٦ .

(٢) روى الطبراني في المعجم الصغير ١/٣٣٥، رقم ٥٥٦: «يجيء معاذ بن جبل يوم
القيامة أمام العلماء برتوة» .

(٣) لقول النبي صلى الله عليه وسلم لبلال رضي الله عنه: «سمعت دفّ نعليك بين يدي في الجنة» رواه البخاري
٣٨٦/١، رقم ١٠٩٨، ومسلم ٤/١٩١٠، رقم ٢٤٥٨ .

(٤) في قوله عليه الصلاة والسلام: «وإن الرجل منكم ليعمل، حتى ما يكون بينه وبين
الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه
وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة» رواه البخاري
١١٧٤/٣، رقم ٣٠٣٦، ومسلم ٤/٢٠٣٦، رقم ٢٦٤٣ .

.....

فلا يقال: فلانٌ من أهل الجنة، بل يرجي له أنه من أهل الجنة رجاء قريباً من الجزم، وأما الجزم لغير معين فجائز، كما تقول: من مات من أهل التوحيد فهو من أهل الجنة، فنشهد شهادة عمومية لكل من مات على التوحيد أنه من أهل الجنة على أحد تقادير ثلاثة^(١).

وكذلك النار لا نشهد لأحد إلا لمن شهد له الرسول ﷺ، فمن شهد له الرسول ﷺ أنه من أهل النار، فنشهد أنه من أهل النار، كأبي لهب، وأبي طالب، وأما على العموم فنشهد لمن مات على الكفر أنه من أهل النار الخالدين المخلدين.

فنشهد شهادة عمومية أن من مات على الكفر مصيره إلى النار، فالكافر وإن بلغ كفره من الكفر ما بلغ، لا نقول: إنه من أهل النار، لأننا لا ندري ما باطنه، ولا ندري ما يموت عليه.

(١) إما أن يُدخَله الله الجنة بغير حساب ولا عذاب، وإما أن يدخل النار على قدر ذنبه ثم يدخل الجنة، وإما أن يدخل النار ثم يخرج منها بشفاعَةٍ أو بفضل الله ورحمته.

ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر، ويثلاثون بعثمان، ويربعون بعلي رضي الله عنه، كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة،

(ويقرون) - كذلك يقر أهل السنة والجماعة - (بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر) قال المصنف: صحَّ عن علي من نحو ثمانين طريقاً حين سئل من خير هذه الأمة بعد نبيها؟ فقال: أبو بكر، قيل: ثم من؟ قال: ثم عمر، حتى إنه سئل عن ذلك وهو على منبر الكوفة، بل هي من المتواتر.

(مراتب
الخلفاء
الأربعة في
الفضل)

ومقصده بيان أن الذين ينتسبون إلى أنهم يعظمونه وهم الشيعة لا يعبئون بأقواله، مع أنهم لا يعبئون بالكتاب والسنة في ذلك.

(ويثلاثون) - أهل السنة - (بعثمان، ويربعون بعلي رضي الله عنه، كما دلت عليه الآثار) كما قال ابن عمر: كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي: أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، وهذا بالنسبة إلى الخيرية، وأما بالنسبة إلى الخلافة فشيء آخر.

(وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة)، وهم لا يجتمعون على تقديم أحدهما إلا أنه أفضل، وهذه المسألة يقال لها: مسألة التفضيل، فإن أهل السنة يقدمون أبا بكر، ثم عمر، فإن النصوص يستفاد منها بعد خلافة أبي بكر وعمر، ولكن بعض أهل

مع أن بعض أهل السنّة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما - بعد اتفاهم على تقديم أبي بكر وعمر - أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان وسكتوا، أو ربعوا بعلي، وقدام قوم علياً، وقوم توقفوا، لكن استقر أمر أهل السنّة على تقديم عثمان ثم علي، وإن كانت هذه المسألة - مسألة عثمان وعلي ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنّة، لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة،

السنّة قال بالنص، وبعضهم قال بإجماعهم عليهم.

(مع أن بعض أهل السنّة) والجماعة (كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما) في وقت من الأوقات، ثم استقر الأمر على ما يأتي وزال الاختلاف (- بعد اتفاهم على تقديم أبي بكر وعمر - أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان وسكتوا أو ربعوا بعلي).

(وقدم قوم علياً، وقومٌ توقفوا، لكن استقر أمر أهل السنّة على تقديم عثمان ثم علي) ورجع الأمر إلى نصابه.

(وإن كانت هذه المسألة - مسألة) التفضيل بين (عثمان وعلي - ليست من الأصول التي يُضلّل المخالف فيها عند جمهور أهل السنّة) والجماعة؛ لأنها مسألة تفضيل، والتفضيل أمره أسهل من غيره.

(لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة) إنما الذي يضلل فيها مسألة الخلافة، فمسألة الخلافة هي التي فيها من القدح في الصحابة؛ بل القدح في الأمة ما لا يخفى.

وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر، ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله.

(وذلك أنهم يؤمنون) - أهل السنّة - يقطعون (أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر، ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله). يعني: فرق بين مسألة الخلافة والتفضيل.

فمسألة الخلافة ما جرى فيها خلاف يذكر، أما مسألة التفضيل، فجرى كما تقدم ثم زال.

أما أبو بكر وعمر فلا خلاف في خلافتهما وفضلهما على سائر الصحابة ومن بعدهم أبداً، ولكن بعض أهل العلم قال: بالنص، وبعضهم قال: بإجماعهم عليهما، وكذلك خلافة عثمان.

أما فضيلة عثمان على عليّ: فجرى فيها خلاف وزال ولكن استقر، هذا هو تفضيله.

ومن تفضيل عثمان على عليّ: تقديمه عليه في الخلافة، فإنه لا يقدم في الخلافة إلا الأفضل.

ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ويحفظون
فيهم وصية رسول الله حيث قال يوم غدیر خم: «أذكرکم الله
في أهل بيتي».

(و) أهل السنّة والجماعة (يحبون أهل بيت رسول الله ﷺ) (أهل السنّة
والجماعة
يحبون أهل
بيت رسول
الله ﷺ
ويتولونهم)

يعني: قرابته بني هاشم.

(ويتولونهم) التولي: المحبة والترضي والذب عنهم ونحو
ذلك، يعني: يذبون عنهم وينصرونهم عندما يحتاجون إلى ذلك،
ويحمونهم عندما يحتاجون إلى حماية، ويعرفون لهم فضائلهم
ومناقبهم، بل أهل السنّة والجماعة يتولونهم زيادة على ما يتولون به
سائر المؤمنين، فهم يرون أن المسلم يُدبُّ عنه. الخ، فهم اشتركوا
معهم في ذلك واختصوا بقرب رسول الله ﷺ.

(ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ حيث قال يوم غدیر
خم) - موضع معروف بين مكة والمدينة، في منزلٍ نزله في رجوعه
من حجة الوداع لما رجع من مكة، خطبهم فيه خطبة شهيرة قبل
موته بشهرين -: (أذكرکم الله في أهل بيتي) يعني: أن تعرفوا لهم
حقهم وحرمتهم ومكانتهم من رسول الله، وأن ترعوا لهم حقهم ولا
تحرموهم، قاله مزید حث وتذكیر لهم على أنه يُراعى لهم حقيقة.

وهذا خلافاً للنواصب الذين نصبوا لهم العداوة، وهذا حيث
كان في خلافة بني أمية، جفوا أهل البيت. والمنصف يعطي كل ذي
حق حقه.

فدل على أن أهل بيت رسول الله ﷺ يُحبَّبون لأمرين،

وقال أيضاً للعباس عمّه - وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفون بني هاشم -

أحدهما: إسلامهم، والثاني: لقربهم من المصطفى ﷺ، والمراد المسلم منهم، أما الكافر فلا، فإن أبا لهب عم النبي ﷺ.

(الكافر من أهل البيت)

فالمراد المسلمون الموحدون الذين هم على سنته ﷺ.

أما من حاد عما جاء به النبي ﷺ فلا، وقربه من النبي ﷺ يدعو أن يكون أسرع الناس إجابة له ﷺ.

أما من كان من الكفار فإنه أبعد الناس عن النبي ﷺ وأسوأهم كفراً، فالذين يكفرون من ذرية عبد المطلب يتغلظ كفرهم، ألا ترى قوله: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

وهذه الخطبة أُلِّفَ فيها ابن جرير مجلدين، لكن ما ذُكِرَ ورواه، مشتمل على أشياء لا تثبت من أجل الشيعة، ويُعرف أن عنده شيء من التشيع الذي لم يصل إلى البدعة.

المقصود: أن من جملة ما حفظ عنه ﷺ هذا الحديث، وقال ﷺ: «إني تارك فيكم ثقلين: أولهما: كتاب الله، وثانيهما: أهل بيتي»^(١).

وقال أيضاً للعباس عمّه، - وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفون بني هاشم - يعني: يُقَصِّرُ في حقهم.

(١) رواه مسلم ٤/١٨٧٣ رقم ٤٤٢٥.

فقال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمنون حتى يحبوكم الله ولقرايتي»، وقال ﷺ: «إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

فقال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمنون حتى يحبوكم الله ولقرايتي» فدل على أنه واجب من واجبات الإيمان محبة قرابة النبي ﷺ في الله لكونهم مسلمين، وواجب محبتهم من جهة أخرى وهي قرابتهم من النبي ﷺ وهي أخص.

(وقال ﷺ: «إن الله اصطفى بني إسماعيل) يعني: من ذرية إبراهيم، يعني: اتخذ من العرب بني إسماعيل.

(واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم) ولهذا عرفنا أن بني هاشم أهل بيت رسول الله ﷺ صفوة من صفوة، من صفوة من صفوة، كما أن كنانة صفوة بني إسماعيل، وقريشاً صفوة كنانة، وبني هاشم صفوة قريش. فأهل بيته هم صفوة الناس، فبنو إسماعيل صفوة، وكنانة صفوة من صفوة. الخ، فالنبي ﷺ صفوة من صفوة، من صفوة من صفوة، من صفوة.

وصفوة الشيء: هو خالصه، أصلها: اصطفى من صفا الشيء اختاره، وصفوة الشيء خيرته.

ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين،
ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة، خصوصاً خديجة رضي الله عنها،

(ويتولون أزواج رسول الله ﷺ) - والتولي: نشر الجميل -،
بمحبتهم، والذب عنهم، ومراعاة حقهم، والنصر عندما يحتاج
لذلك. والأزواج: جمع زوج، والأفصح زوج بدون تاء.

والمراد: اللاتي تُوفي وهن في عصمته، أو تُوفين وهن في
عصمته، بخلاف من فارقه في حياته.

فأهل السنة يتولون أزواج رسول الله ﷺ، كما يتولون أهل بيت
رسول الله ﷺ^(١)، خلافاً للنواصب.

والتولي - كما تقدم -: الترضي عنهم، والذب عنهم،
وتبرئتهم فُرش المصطفى ﷺ خير الخلق وأطهر الخلق ﷺ.

(أمهات المؤمنين) والمراد في الحرمة وعدم التزوج بهن بعده
فقط، ليس المراد كشفهن الوجه للناس، أو إذا أرضعت، فإنه ﷺ
أبوهم الأكبر الذي على يديه تربيتهم بغذاء القلوب. وفي قراءة:
«وهو أبوهم»^(٢).

(ويؤمنون بأنهن) رضي الله عنهن (أزواجه في الآخرة).

(خصوصاً خديجة) بنت خويلد (رضي الله عنها) فلها من المزية ما لا

(أهل
السنة
والجماعة
يتولون
أزواج
رسول
الله ﷺ
وهن من
أهل بيته)

(فضائل
خديجة
وعائشة
رضي الله
عنهما)

(١) قلت: وأزواجه من أهل بيته.

(٢) وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب. الدر المنثور ٤/٤٥٧، ٦/٥٦٧.

أم أكثر أولاده، وأول من آمن به وعاضده على أمره، وكان لها منه المنزلة العالية، والصدّيقة بنت الصديق رضي الله عنهما التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

يخفى، (أمّ أكثر أولاده) - أم فاطمة - (وأول من آمن به وعاضده على أمره) أي دينه. وهي التي جاء إليها لما جاءه المَلَك وقال: زمّلوني، وأخبرها بما أتاه والقصة معروفة، وأول امرأة آمنت به، (وكان لها منه المنزلة العالية).

(والصدّيقة بنت الصديق رضي الله عنهما) يعني: وخصوصاً أيضاً الصدّيقة بنت الصديق رضي الله عنهما، يعني: عظيمة التصديق، فأبوها الصديق الأكبر، وهي صدّيقة النساء التي لها المزايا الخاصة من نزول الآيات في حقها والعلم.

(التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم): «فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام») والثريد: هو الخبز مع اللحم. وبتفاهق أنها أعلم نساء الصحابة.

وقول المصنف: «خصوصاً» وخص منهن اثنتين هما أفضل النساء على الإطلاق، فأهل السنّة والجماعة يقولون: جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبالأخص هاتين، لكونهما أخص أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد اختلّف أيما أفضل عائشة أو خديجة؟ واستدلوا على فضل خديجة بما ذكر. وقومٌ قالوا: عائشة أفضل بالحديث.

(أيهما)
أفضل
خديجة أم
عائشة؟

ومسألة التفضيل شيء سهل، والصواب والحق أن عائشة

.....

أفضل من خديجة في الأشياء التي امتازت بها، وخديجة أفضل في الأشياء التي امتازت بها، وهذا ينبغي سلوكه في مسائل التفضيل، والصدّيقة أعطيت من مئة التصديق شيئاً كثيراً ما ليس لغيرها وأن الصّدّيق كثير التصديق. والمصنف - رحمه الله - ما تعرض لهذا هنا؛ لأن هذا مختصر، ومسلكه في المسألة مبين في مصنفاته.

والتحقيق: - كما ذكره المصنف في غير هذه العقيدة المختصرة -، أن الصواب أن لا يقال: خديجة أفضل مطلقاً، ولا عائشة أفضل مطلقاً، بل عائشة أفضل في أشياء، وخديجة أفضل في أشياء، عائشة فيها آيات تتلى في المساجد، فهي بها أفضل، ومن جهة كون خديجة أم أكثر أولاده فيقال هذه أفضل من وجه، وبهذا تجتمع النصوص، وهذا له نظائر يفاضل بينها ويحتج كل طرف بحجج.

ومسألة التفضيل أمرها سهل فلا يضل فيها كما تقدم، ومسائل الخلاف في الفضل وعدمه كثيراً ما يدخله الهوى النفساني، وبعضه قد لا يدخله الهوى، وكونها مسألة هوى لا يوسع البحث فيها مخافة أن يدخل في تأييد هواه.

وحديث: «لا تخيروا بين الأنبياء»^(١): النهي في قوله: «لا تخيروا» إذا كان التخيير على وجه التعصب، مثل ما فعل الأنصاري واليهودي، أو أنه قاله على وجه التواضع.

(١) رواه البخاري ٢٥٣٤/٦ رقم ٦٥١٨، ومسلم ١٨٤٥/٤ رقم ٢٣٧٤.

ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة
ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول،
أو عمل،

(ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة
ويسبونهم)، من أصول أهل السنة والجماعة: التبرؤ من طريق
الروافض الذين يبغضون الصحابة، فإنهم لا يقرون لأصحاب رسول
الله ﷺ بقول ولا عمل، فقلوبهم مفعمة من البغض لأصحابه،
وأسنتهم متلوثة بالسب في أصحاب رسول الله ﷺ، وأهل السنة
يحبونهم ويترضون عنهم.

(التبرؤ من
طريقة
الرافضة في
بغض
الصحابة
وسبهم،
أصل من
أصول أهل
السنة)

الرافضة مسلكهم في الصحابة أخبث مسلك، يكفرون الصحابة
إلا نفرأ قليلاً، وتكفيرهم الصحابة هو أصل مذهبهم لكن ضموا إليه
الشرك والاعتزال.

(و) يتبرؤون من (طريقة النواصب الذين) ينصبون العداوة لأهل
بيت رسول الله ﷺ، (يؤذون أهل البيت بقول، أو عمل). فهم في
مقابلة الروافض في الغلو في أهل البيت، والنواصب يجفونهم
ويبغضونهم.

(ومن
أصول أهل
السنة:
التبرؤ من
طريقة
النواصب
في عداوة
أهل
البيت)

وأصل النصب: للأغراض الشخصية للميل إلى رؤساء بني
أمية، ناشيء عن المنازعة في مُلك من مُلك مصر، في مُلك بني أمية
ومن يواليهم، فينصبون لأهل البيت العداوة، لأجل ذلك، ويمكن
أن يوجد إخوان النواصب، فمن كان كذلك فهو ناصبي مبتدع ضال.

(الأغراض
الشخصية
سبب
نشوء
معتقد
النواصب)

.....
فالحامل على النصب الشهوة، والرفض أعظم منه والحامل عليه الشبهة، والشبهة أعظم من الشهوة.

فالنواصب والروافض في أهل البيت في طرفي نقيض:

الروافض يغلون في أهل البيت، ويكفرون باقي الصحابة والنواصب يجفون.

وأهل السنة وسط بين غلو هؤلاء، وبين غلو أولئك، ورأوا أن لهم مزية لقبهم من النبي ﷺ، كما قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرايتي»^(١) وأهل السنة طريقتهم: الترضي عنهم جميعاً، ويعرفون لأهل البيت قدرهم القدر الشرعي.

فالخوارج والنواصب متفقون في مزيد العداوة لأهل البيت.

والخوارج لا يقتصرون على عداوة أهل البيت بل عموماً. والذي باشرهم هو عليٌّ، فهم يعادونه ويكفرونه ومن معه من الصحابة، يقولون: إنك حكمت الرجال وكفرت.

والنواصب قابلوا الروافض، جفوا أهل البيت وأبغضوهم.

(١) رواه الإمام أحمد ٢٠٧/١ رقم ١٧٧٧، وابن أبي شيبة ٣٨٢/٦ رقم ٣٢٢١٣ بلفظ: «والله لا يدخل قلب امرئ إيمان، حتى يحبكم لله ولقرايتي».

ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار
المروية في مساويهم، منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه
ونقص وغيّر عن وجهه،

(ويمسكون): يكفون (عما شجر): وقع (بين الصحابة) من
النزاع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من الحروب بينهما؛ لأن تلك الأمور
اجتهادية وهم على قسمين: مجتهد مصيب، ومجتهد مريد للحق
مخطيء فاته أجر الإصابة وصار له أجر الاجتهاد، مع العلم والقول
أن أولى الطائفتين: علي رضي الله عنه ومن معه.

(معتقد
أهل السنّة
والجماعة:
الإمسك
والكف عما
شجر بين
الصحابة)

هذه طريقة أهل السنّة يمسكون عما شجر بين الصحابة - في
الحروب والوقائع - إذا جاء الخوض ويكفون، فلا يكونون في هذا
الجانب ولا في هذا الجانب.

هذا من أصول أهل السنّة: الكفّ عمّا كان بين الصحابة،
وعدم الخوض فيها، وعدم الكلام وتترك.

(ويقولون) ما يأتي بيانه:

(إن هذه الآثار المروية) الكثيرة (في مساويهم): في عيوبهم
(منها: ما هو كذب) من أصله، ولا أصل له بحال أبداً، هذا مسلك
أهل السنّة والجماعة.

(مسلك
أهل السنّة
والجماعة
في الآثار
المروية في
مساويهم
على ثلاثة
أقسام)

(ومنها: ما قد زيد فيه ونقص وغيّر عن وجهه) أي: ومنها ما
له أصل لكن ما بقي على أصله بل غيّر.

وهذا في القول العام في الصحابة، فإنهم لا يجتمعون على
ضلالة.

والصحيح منه: هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق

(والصحيح منه): أي الذي يثبت منه وهو الأقل، وهذا خاص بالأفراد:

(هم فيه معذورون):

(إما مجتهدون مصيبون) فيكون لهم أجران ﷺ.

(وإما مجتهدون مخطئون) والخطأ مغفور لهم.

فأعمالهم مترددة بين أن يكون لهم فيها أجران أو أجر، مثل الحاكم إذا اجتهد فأصاب له أجران، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد.

(وهم) أي: أهل السنة والجماعة (مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة) - كل فرد منهم - (معصوم عن كبائر الإثم وصغائره) تجوز عقلاً وغير مستحيلة.

(بل تجوز عليهم) فهذا من التجويز الوقوعي، لا أنه يجوز لهم في الأحكام. - تجوز عليهم لا أنها تجوز لهم - (الذنوب في الجملة)، فالذنوب متصورة من أحدهم، والعصمة إنما هي لجميعهم أن يكونوا مجتمعين على ضلالة.

(ولهم من السوابق) إلى الإسلام وقوة الإيمان واليقين والجهد

(ما وقع بين الصحابة هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون)

(لا يمكن اجتماع الصحابة بحال على ضلالة)

والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم.

وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به، كان أفضل من جبل أحد ذهباً ممن بعدهم،

(والفضائل، ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم).

(وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون) كما في حديث «خير الناس قرني . . .» الحديث، و«خير أمتي قرني . . .» الحديث.

وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ مخاطباً خالداً ومن معه وكان منهم «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً» ما بلغ مثل مُدٍّ مَنْ تقدّمه من الصحابة، فكيف بمن بعد الصحابة؟! ومن بعدهم فمن بعدهم؟! .

(وأن المد من أحدهم) من البر ونحوه (إذا تصدق به، كان) خيراً و(أفضل) عند الله (من جبل أحد ذهباً ممن بعدهم)، فهذه فضيلة ومنقبة لهم، بل قال ذلك النبي ﷺ لبعض الصحابة السابق منهم، فكيف بمن بعد الصحابة؟! ومن بعدهم؟! فهذا بؤن بعيد وتفاوت عظيم.

(الأعمال)
تتفاضل
بما في
القلوب)

.....

وهذا يبين لك أن الأعمال لا تتفاوت وتتفاضل إلا بتفاضل ما
في القلوب، وصدور العمل معتمد على النية والإخلاص وسماح
النفس، فالصحابه أكمل الناس إيماناً وإخلاصاً وعلماً، وأيضاً
صحبتهم الرسول ﷺ التي امتازوا بها عن غيرهم، - فقاتل الله
الروافض - .

ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب، فيكون قد تاب منه، أو
أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة
محمد ﷺ

(ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب) - تقدم لك أن الفرد
منهم غير معصوم -، إذا قدرنا أن واحداً منهم قد صدر منه ذنب
وثبت، - وهو غير معصوم -، فإنه تَعَرَّضَهُ هذه الأمور:
الأول: التوبة (فيكون قد تاب منه)، والتوبة تَجِبُ ما قبلها،

فهم أسرع شيء إلى المبادرة بالتوبة والإقلاع عما صار منهم، بل هذا
ممكن قريب وهو الأحرى بهم ﷺ. ثم الشخص قد يكون بعد
الذنب والتوبة أكمل منه قبله.

(أو أتى بحسنات تمحوه) الثاني: كثرة الأعمال ورجحانها على
السيئات، كما في قصة أهل بدر، فإن الحسنات يذهبن السيئات،
وفي الحديث: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»^(١).

الثالث: (أو غفر له بفضل سابقته) وجهاده مع النبي ﷺ، فإن
صاحب السابقة يغفر له ما لا يغفر لغيره، فإنها شيء كبير من
الفضل، ولهذا نوّه الله عن أهل السبق في كتابه فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ
الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(أو بشفاعة محمد ﷺ) هذا الرابع للعصاة من أمته، وأولى

(١) رواه أحمد ١٥٣/٥، رقم ٢١٣٩٢، والترمذي ٣٥٥/٤، رقم ١٩٨٧.

الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كُفّر به عنه .
فإذا كان هذا

الناس بها أصحابه لامتيازهم على الأمة، فإن شفاعته هي دعوته لأمته (الذين هم أحق الناس بشفاعته)، فإنه ﷺ أخبر أن شفاعته نائلة العصاة من أمته كما في الحديث: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإنني اختبأت دعوتي شفاععة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»^(١)، فأولى الناس بهذه الشفاععة من العصاة الصحابة، ولم لا يكونون أولى وهم خير القرون؟!

الخامس: (أو ابتلي ببلاء) من مصائب ببدنه أو أهله أو ماله، فإنها ليست حسنات، بل مكفّرات، وهي نوعُ امتحان، ولكنها غالباً تسبب إما عملاً صالحاً وهو الصبر، أو سوءاً وهو الجزع، والصحابة أولى الناس بها، (كُفّر به عنه) فإن المصائب مكفّرات للذنوب مطهّرات، فإنهم ليسوا أهل ترافات، بل هم أحرى بالمصائب المنكبات كما في الحديث: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»^(٢).

فهذه خمسة أسباب لمغفرة الذنب، إذا صدر عن أحد من الصحابة فهو بعرضة خمسة أشياء، والمصنف ذكر في بعض مؤلفاته «كمنهاج الستة» عشرة أسباب في تكفير الذنوب .

(فإذا كان هذا) يعني: الأسباب العشرة التي ذكر منها هنا

(١) رواه مسلم ١/١٨٩، رقم ١٩٩ .

(٢) رواه الترمذي ٤/٦٠١، رقم ٢٣٩٨، وابن ماجه ٢/١٣٣٤، رقم ٤٠٢٣ .

في الذنوب المحققة، فكيف بالأمر التي كانوا فيها مجتهدين، إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور لهم؟!!

ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم، قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، من الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع، والعمل الصالح،

خمسة (في الذنوب المحققة) أنها بعرضة هذه الأسباب (فكيف بالأمر) التي ليست محققة بل اجتهاد وليست ذنوباً محضة (التي كانوا فيها مجتهدين، إن أصابوا) في الحصول على الخير والعمل به (فلهم أجران) أجر الاجتهاد، وأجر الإصابة.

(وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد)، إن فاتهم أجر الإصابة، ما فاتهم أجر الاجتهاد والحرص على الخير، (والخطأ مغفور لهم).

ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم، قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم) فإذا ثبت عن أحد منهم، فهو كنقطة في بحار استهلكتك، فلم يبق لها عين ولا أثر، والخطأ يعني الذي خلاف الاجتهاد وما إلى ذلك، يعني: فبطريق الأولى أن تكون مغفورة في جنب هذه الفضائل، بل في جنب واحدة من هذه الفضائل.

(من الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع، والعمل الصالح) «مِنْ» لبيان الجنس في

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله .

جنس ما من الله به عليهم، إذا نسبت هذا إلى هذا، فلا كمية ولا كيفية .

(ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة) من عرف ذلك في سيرتهم، عرف صدق ما جاء في الأحاديث، أنهم خير الخلق بعد الأنبياء كما تقدم «خير القرون قرني» كما في حديث عمران وابن مسعود رضي الله عنهما، ومنه: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله» .

(الصحابة
خير الخلق
بعد
الأنبياء لا
كان ولا
يكون
مثلهم)

(وما من الله عليهم به من الفضائل) من صريح الإيمان بالله ورسوله، وسبقهم إلى الخير والأعمال الصالحة تبين له ما يأتي :

(علم يقيناً أنهم) - يعني : الصحابة - (خير) وأفضل (الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم) رضي الله عنهم .

(وأنهم الصفوة) الخيار (من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله) .

فصل

ومن أصول أهل السنّة: التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات، في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات،

(فصل)

(من) أصول أهل السنّة: التصديق بكرامات الأولياء وما يجري
الله على أيديهم من خوارق العادات، في أنواع العلوم والمكاشفات
وأنواع القدرة والتأثيرات) من حمل الأثقال وقطع المسافات الطويلة .
وقد انقسم الناس في كرامات الأولياء إلى ثلاثة أقسام:
قسم: أنكروها بالكلية، وهم المعتزلة .
وقسم: أثبتوها وغلوا في إثباتها، حتى جعلوا من صدرت منه
فهو ولي الله، وأنها من الدلالة على أنه يصلح أن يُعبد من دون الله،
وهم القبوريون .
وقسم: توسطوا، فأثبتوا كرامات الأولياء وتثبتوا فيمن صدرت
منه .

وهذا هو الصواب: إثبات جنسها، وأن من جرت على يده
يوزن بالكتاب والسنّة، فإن كان من أهل الاستقامة فهي كرامة وولاية
وعلامه، ولا تدل على أنه يصلح للعبادة .

وإن كان بخلاف ذلك فهي من الأمور الشيطانية .
والذي حدى المعتزلة على إنكار الكرامات أنهم يقولون: إن

كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة

تعريف النبي: هو من صدر عن يده خارق قالوا: فإذا قلنا: إن لهم كرامات التبس الولي بالنبي، فلم يتميز هذا من هذا، فأنكروا الكرامات لذلك.

ونقول: هذا من تعريف النبي كرامة، لكن مع شيء آخر وهو إنزال الوحي عليه.

وأهل السنّة أثبتوها وصدّقوا بأن ما جرى لهم من ذلك فهو كرامة وقالوا: إن من صدرت عنه فليس له مزية على غيره وفضيلة، فليست الكرامة هي الميزان في علو الدرجة في الولاية، وأن من ظهرت له كرامة أنه أفضل ممن لم يظهر له كرامة؛ بل من ليس له كرامة أفضل بكثير ممن له كرامة. بل هي من نوع الحظ والبخت يعطيها الله من يشاء.

(من)
ظهرت له
كرامة
ليس له
مزية
وفضيلة
على من لم
تظهر له

ثم هي قد تكون لمن جرت له، فتنة وشر تنقصه في دينه، وقد تكون خيراً، وقد تزيده ولا تنقصه وتحمله على فعل الطاعات فهي كالنعمة، من الناس من تزيده، ومنهم من تنقصه.

(كالمأثور عن سالف الأمم) كقصة أصحاب الكهف (في سورة الكهف) لما فارقوا قومهم في ذات الله وأووا إلى الغار ثلاثمائة وتسع سنوات لا يأكلون هذه المدة الطويلة. المقصود: أن جنس هذا من كرامات الأولياء كونهم بقوا هذه المدة بلا طعام ولا شراب.

(وغيرها) كما جرى لابن مريم من إبراء الأكمه والأبرص.

(وعن صدر هذه الأمة من الصحابة) كقصة خالد حين حسا

والتابعين، وسائر فرق الأمة، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة.

السم، وقصة الذين خاضوا البحر ولم يغرقوا.

(والتابعين) أكثر، والسبب: أن الصحابة أقل حاجة إليها؛ لأنها لتأييد الحق وبيان فضله وهم لا يحتاجون إليها.

(لماذا الكرامات في التابعين أكثر منها في الصحابة؟)

وليُعرف أنها كرامة يكرم الله بها أوليائه وهي لا تدل على أنه أفضل من الآخر، وأنها من جنس الحظ من المال أو العلم أو الفهم، هي بنفسها كرامة إنما تدل على فضله، لا على أفضليته على غيره، شبه البخت والحظ، بل إن زادت صاحبها صارت نعمة، وإن كانت أوقفت شيئاً من سيره أو أنقصته، فهي نعمة من جانب، وابتلاء من جانب، كما قال تعالى عن سليمان: ﴿لِبَلُوْنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

فحقيقة الخارق: هو أن يوجد منه شيء ليس من عادته ولا استطاعته، كأن يقطع في لحظة ما جنسه يقطع في يوم، أو نحو ذلك كالطيران في الهواء.

(وسائر فرق الأمة) وهم على طبقتين: أبرار وأصحاب يمين، ولا تكون له دائماً في كل وقت، وإذا عرفت أنهم في هذا الزمان كادوا أن يفقدوا، والأكثر فيهم من التخليط ما فيهم^(١)!! وليس المراد أنه لا يقع منهم زلة، بل تقع ولكن يرجعون وليسوا معصومين، هذا هو المراد، والله أعلم.

(وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة) وللمصنف كرامات مع أهل زمانه.

(١) تبين لك قلة من تقع له.

فصل

ثم من طريقة أهل السنّة والجماعة: اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال:

(فصل)

(ثم من طريقة أهل السنّة والجماعة: اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً) اعتقاداً في الاعتقادات، وأقوالاً في الأقوال، وأفعالاً في الأفعال.

فما أثر عنه وما جاء عنه أقسام: قسم من قوله، وقسم من فعله، وقسم من إقراره، فنتبع ما قال، ونقرر ما قرر، ونفعل ما فعل، فهذا أصل عظيم وباب كبير من أبواب الدين.

(و) كذلك من أصول أهل السنّة مع ذلك: (اتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار)، ومعرفة ما هم عليه والأخذ بهديهم، كما قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» الحديث^(١).

(واتباع وصية رسول الله ﷺ) هذا من عطف الخاص على العام، ومن أصولهم أيضاً: اتباع وصية رسول الله ﷺ (حيث قال:

(من)
طريقة
أهل السنّة
والجماعة
اتباع هدي
النبي ﷺ
في الاعتقاد
والقول
والعمل)

(١) رواه أحمد ٤/١٢٦، والترمذي ٤٤/٥، رقم ٢٦٧٦.

«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي،
تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات
الأمر، فإن كل بدعة ضلالة». ويعلمون أن أصدق الكلام
كلام الله

«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا
بها) يعني: شدوا بها، (وعضوا عليها بالنواجذ) يعني: امسكوا
عليها بالنواجذ الأربع، فإن الشيء النفيس لا يُكتفى بإمساكه باليد
فقط.

(التحذير
من البدع)

(وإياكم ومحدثات الأمور) حرض على التمسك بما تقدم،
وحذر مما أحدث بعده مما يتعبد به، فإن الذي لم يكن على زمنه
وأصحابه والسلف الصالح والصدر الأول، فما جاء به فهو البدعة
المحضة، لو كان خيراً لسبقونا إليه «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».

فإذا لم يكن في القرآن ولم يكن من المأثور عن النبي ﷺ ولا
عن الصحابة والتابعين والصدر الأول فهو بدعة.

(فإن كل بدعة ضلالة)، البدعة في قول عمر رضي الله عنه: «نعمت
البدعة»، مراده من حيث اللغة، وإلا فأصلها معروفٌ زمن النبي ﷺ،
أما تقسيم بعضهم البدعة إلى خمسة أقسام فهذا غير مسلم، بل
البدعة الذي لا يسوغها الشرع فهي بدعة ضلالة، وما كان لها ما
يحولها من الدين ويدل عليها فليست بدعة ضلالة، بل بدعة لغوية.

(أهل
السنة
يرون أن
أصدق
الكلام
الله،
ويؤثرون
كلامه على
كلام من
سواه)

(ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله) كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ
أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ويرون أن فضل

وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، ولهذا سمو أهل الكتاب والسنة، وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة،

كلام الله على كلام خلقه، كفضل الله على خلقه.

(وخير الهدي هدي محمد ﷺ) هديه وسيرته، خير الهدي والسيره، فلا هدي ولا سيرة خير من هديه وسيرته.

(ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس) فلا يعدلون كلام رب العالمين بكلام غيره كائناً من كان.

(ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد) كذلك من أصول أهل السنة: تقديم هدي النبي ﷺ على هدي كل أحد، ولا يعبئون بهدي ما سواه وإن تباعدت بهم الأوطان.

(سموا أهل الكتاب والسنة لإيثارهم طريق الكتاب والسنة على غيرها)

(ولهذا) ولأجل كونهم لا يفضلون على كلام الله غيره، ولا يقدمون هدي أحد على هدي محمد ﷺ.

(سموا أهل الكتاب والسنة) مما تقدم من إيثارهم طريق الكتاب والسنة، وإيثارهم كلام الله على غيره من أصناف الناس، سمو أهل الكتاب والسنة.

(سموا بالجماعة لاجتماعهم على الحق وهو الأخذ بالكتاب والسنة)

(وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة)؛ لأنه يجمعهم شيء واحد، وهو اجتماعهم على الحق، وهو

وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعيين،
والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين،
وهم يَزْنُون بهذه الأصول الثلاثة، جميع ما عليه الناس، من
أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة، مما له تعلق بالدين.

الأخذ بالكتاب والسنة، والمنع بالكتاب والسنة، فمن صار كذلك فهو
من أهل الجماعة.

(وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعيين)
سواء كانوا قليلين أو كثيرين فهم الجماعة، ولو كان واحداً فهو
الجماعة في الحقيقة، كما سمي الله إبراهيم أمة.

(والإجماع: هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم
والدين) فهذه الأصول الثلاثة المجمع عليها، فإن كل واحد منها
حجة، الكتاب والسنة والإجماع، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ
الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّيْنَا لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ
وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وهناك أصول مختلف فيها كالقياس.

(عند أهل
السنة

والجماعة
ثلاثة

أصول

يزنون بها

جميع ما

عليه

(الناس)

(وهم) يعني: أهل السنة (يَزْنُون بهذه الأصول الثلاثة، جميع)
ما جنسه قرابة مـ (ما عليه الناس من أقوال وأفعال باطنة أو ظاهرة) ما
كان راجحاً فهو راجح، وما كان مرجوحاً فهو مرجوح، وما لم يعلم
رجحانه ولا مرجوحيته فإذا أمكن رده إلى الكتاب والسنة، وكذلك
مسألة الحلال والحرام كما تقدم، فإن الأصول المعتمد عليها ثلاثة:
الكتاب والسنة والإجماع.

(مما له تعلق بالدين) خاصة مما جنسه يتعبد به إلى الله من

والإجماع الذي ينضبط: هو ما كان عليه السلف الصالح،
وبعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة.

فعل أو ترك، - إما من تحريمه أو تحليله -، أما من جهة الأمور
العادية فهذا لا مدخل له فيه.

و(الإجماع الذي ينضبط: هو ما كان عليه السلف الصالح)
والذين يلونهم وذلك لكرامة هذه الأمة وأنها لا تجتمع على ضلالة،
وإذا قيل: واحتج، فهو إجماع.

الإجماع
المعتبر:
هو ما كان
عليه
السلف
(الصالح)

(وبعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة) في فضاء المعمورة فلا
يمكن أن يحصل إجماع إلا ما حصل في ذلك الوقت، فهي أوطان
محصورة معروفة، وهي أمصار الإسلام الشهيرة، وهي كانت مرجعاً
للدين، وبعدهم لا يقال: أجمع العلماء على كذا؛ لأنه لا ينضبط.

فصل

ثم هم مع هذه الأصول، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

(فصل)

(من أصول أهل السنة والجماعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) (ثم هم) يعني: أهل السنة والجماعة (مع هذه الأصول) العظيمة والهامة، وعملهم بهذه الأصول والعقائد القيمة المتقدم ذكرها (يأمرون بالمعروف) فإنه أصل عظيم وعبادة عظيمة من أجل الطاعات، كما أنها مفتقرة أن تفعل ابتغاء وجه الله الكريم، والمعروف: هو ما عرف بالشرع أنه ينبغي سواء من الواجب أو المندوب.

(وينهون عن المنكر) والمنكر: اسم لكل شيء عرف من الشرع والعقل قبحه.

فكل ما أنكره الشرع والعقل فهو منكر، وكل ما استحسنته

(ما هو المعروف والمنكر؟) الشرع والعقل فهو معروف. والمعروف: اسم لكل شيء عرف من الشرع والعقل حسنه.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب عظيم كبير من أبواب الجهاد، فهو من الدين بمكان، ولهذا في النصوص شرعية الأمر به. وقيل: إنه ركن سادس من أركان الدين لأثر ورد.

والمعروف كلمة شاملة وهو: كل ما جاء به الشرع، وأعظمه التوحيد.

على ما توجبه الشريعة .

والمنكر: اسم لكل ما نهى عنه الشرع، وأعظمه الكفر، فما أنكرته العقول السليمة والفطر المستقيمة والشرائع المنزلة فهو منكر، والمعروف بعكسه .

فأعلى المعروف التوحيد، وأدناه المستحبات، فإن بكُلِّها مما يأمر به أهل السنّة والجماعة، فبعضها - مما يأمر به - حتم ووجوب ويقاثلون عليه، ومنها ما يأمر به أمر حتم ووجوب ولكن ليس مثل الأول، ومنها ما يأمر به أمر ندب لا وجوب .

(درجات
الأمر
بالمعروف)

فالأمر بالمعروف عند أهل السنّة درجات - طبقات - منها مما هو من أركان الدين كالأمر بالتوحيد، ومنها ما هو من واجبات الدين، ومنها ما هو من المندوبات، فهو درجات منه ما هو مندوب كالأمر بالمندوبات، وفوقه الأمر بالواجبات، وفوق ذلك الذي يفتقر الدين إلى صحته .

فأهل السنّة والجماعة يأمر به بالمعروف الذي أعلاه وأعظمه التوحيد، ويفرضون الفرضيات ويأمر به بالمستحبات، وينهون عن الشرك أصغره وأكبره وينكرونه، وينهون عن الكبائر، وينهون عن المكروهات والمحرمات والصغائر .

(من شرط
الأمر

بالمعروف
والنهي

عن المنكر:
أن يكون

على ما
توجبه

(الشريعة)

والمنكرات يكفي معرفتها جملة، بخلاف الواجبات فإنها جملة وتفصيلاً .

وقوله: (على ما توجبه الشريعة) فإن قوماً يرونه لكن لا على ما توجبه الشريعة، كالذي عليه الخوارج والمعتزلة الذين يرون

.....

الخروج على الأئمة، وقتال الأئمة على شيء من المعاصي التي لا تنافي الدين .

«على ما توجبه الشريعة» قيد، يعني: لا مطلقاً، فإن قوماً تصدوا له وزعموه، ولكن خرجوا عن حد الشريعة، فإن منهم من رأى الخروج على المسلمين على غير ما توجبه الشريعة، فالخوارج أمروا بالمعروف حتى جوزوا الخروج على الأئمة، وأما أهل السنة والجماعة فهم على ما توجبه الشريعة.

والأمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد له من أمرين: الإخلاص والمتابعة، فمن لم يخلص أمره ونهيه فهو مشرك.

ومن أخلص ولكن ما تابع فهو مبتدع كالمعتزلة والخوارج، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد أصولهم، لكنهم لم يتابعوا في ذلك ما جاء به الرسول ويُقرطون في ذلك حتى جوزوا الخروج على الأئمة العصاة، وسمّوا قتالهم ولاية المسلمين أمراً بالمعروف، والمصنف احترز بهذا القيد فقال: «على ما توجبه الشريعة»، فإن كثيراً ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر خارج عن هذا القيد. فلا يُزاد في ذلك فيدخل في سلك هؤلاء، ولا يُنقص فيدخل في سلك الإباحية أو أهل الشهوات.

ويرون إقامة الحج والجهاد، والجُمع والأعياد مع الأمراء،

(ويرون)، كذلك أهل السنّة يرون (إقامة الحج) فإنهم في ذلك كالأئمة للناس، يعني: مع ولاتهم المسلمين، بأن يكونوا هم المتولين منهم أعمال الحج، واتباع المسير فيها، والذهاب إليها، وتدبير أمرها، أو من يقوم مقامهم، كوابهم الذين يتولون إقامة الحج بالمسلمين في سيرهم ونزولهم، وضعنهم وإقامتهم ونحو ذلك.

(من)
أصول أهل
السنّة:
إقامة
الحج
والجهاد
والجمع
والأعياد
مع الأمراء،
أبراراً
كانوا أو
فجاراً)

(والجهاد) كما في الحديث: «الجهاد واجب عليكم مع كل أمير، براً كان أو فاجراً»^(١)، والجهاد جهاد الكفار أعداء الله، يعني: مع ولاة الأمور، فإنهم الذين يتولون إقامة الجهاد في سبيل الله، كما أنهم يتولون فيئته وخُمسَه ونحو ذلك، فكذلك يتولون إقامته وتدبيره وأمره وشؤونه، فلا ينازعون فيه، فإنه لا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة.

(والجُمع) إقامة الجُمع مع الأئمة والصلاة خلفهم واجبة ولو كانوا عصاة فجاراً، فإنه تصح الصلاة خلفهم، والمراد إذا كان مسجد واحد يصلي به إمام فاجر، فإن الصلاة خلفه أهون من ترك الصلاة مع الجماعة، وهذا بخلاف الصلوات الخمس فإنها لا تجب في مسجد واحد، وأما الجمعة فتجب في مسجد واحد على قول من لا يرى التعدد إلا لمسوغ شرعي.

(والأعياد) مع الأئمة، فيُصلّى (مع) الأئمة (الأمراء)، يعني: كون الأئمة هم الذين يتولون إقامة ذلك.

(١) رواه أبو داود ١٨/٣، رقم ٢٥٣٣، والبيهقي في السنن الكبرى ١٢١/٣، رقم ٥٠٨٣.

أبراراً كانوا أو فجاراً. ويحافظون على الجماعات،

(أبراراً كانوا أو فجاراً) فإن أهل السنة يرون إقامة ذلك، سواء كانوا تقاة فلهم وللناس، إن كانوا أبراراً فهذا من فضل الله وبرحمته، وإن كانوا فجاراً فهو من ذنوب المسلمين أن ولوا عليهم من فجارهم، والفجار فجورهم على أنفسهم، فإن قاموا بأمر دين وإسلام فيجب القيام به معهم، فالشرع يقيمونه ومعصيتهم عليهم، فإن هذه طاعات تفعل لله، فيشاركون فيها، فهذا اتباع للدين ولو على أيدي الفجار.

فالمسلمون يشاركونهم في الطاعة، في برّهم وصلاتهم وأعمالهم الصالحة، ولا يشاركونهم في المعاصي، فما كان من فجور وفساد فعليهم ولا يشاركون فيه.

وأما الصلاة خلف المبتدع، فإن كانت بدعته توصله إلى الكفر وكان يخاف من سطوته صلّى وراءه وفارقه في النية.

(ويحافظون على) الجمع و(الجماعات)، هذا مما عليه أهل السنة، الصلوات الخمس مع الجماعة، وكذلك الجمع، وقد همّ النبي ﷺ بإحراق من لم يشهد الجماعة. والجمعة أهم وأكد.

«يحافظون على الجماعات» يعني: وراء كل مسلم بخلاف الروافض، فإنهم لا يرون إقامتها إلا وراء معصوم، وينتظرون محمد العسكري - وقيل: إنهم مُعدّون له بغلة وفرساً - متى خرج صلوا وراءه، وهذا أصل فاسد ومردود عليهم، فإنهم أنفسهم غير معصومين، بل تقع منهم المعاصي، بل والكفر، فكيف يرون أن لا يصلوا إلا وراء معصوم؟! .

(المحافظة
على الجمع
والجماعات
من أصول
أهل السنة
خلافاً
للافاضة)

ويدينون بالنصيحة للأمة،

(ويدينون بالنصيحة للأمة) كذلك أهل السنّة والجماعة: يدينون بالنصيحة لجميع الأمة المحمدية.

والمراد بالنصيحة: خلوص السريرة للمؤمنين من قولهم: «ذهب ناصح».

وخلوصها سلامتها وخلوها من غلّ أو حقد أو دغل، فهي صافية طاهرة نقية، ساعية في الخير للمسلمين، ساعية في دفع الضر عنهم.

فهي تعتمد شيئين: السلامة من الغش، وبذل المجهود.

فمن كان مدخول القصد للمسلمين فهذا عادم النصيحة، ومن كان سالم القصد وقصّر فهذا غير ناصح، فهي بذل المجهود مع خلوص السريرة للمسلمين، بحيث يحب لهم الخير والدخول فيه، ويكره لهم الشر، ويؤثر ذلك فيه.

فأهل السنّة يدينون بالنصيحة للأمة المحمدية كلّهم، خاصتهم وعامتهم، في دينهم وإرشادهم وهدايتهم وإنقاذهم من المهلكات، وكذلك السعي لهم في ذلك، ومحبته لهم، وفي معاشهم ومصالحهم كلّها، ولهذا في الحديث: «الدين النصيحة، قلنا: لمن، قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

(من معتقد
أهل السنّة:
النصيحة
لجميع
الأمة)

(١) رواه مسلم ٧٤/١ رقم ٥٥.

ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً،

(ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن) ويعملون (من أصولهم: العمل بمقتضى ما اعتقدوه، فمتى تخلف العمل بموجب ما اعتقدوه دل على تخلف الاعتقاد، ومتى ضعف دل على ضعف الاعتقاد، فكل من اعتقد شيئاً حقيقةً ولم يكن على ذلك مكدر لا غبار شبهة ولا شهوة، فإنه لا يتخلف عنه بحال عن أي عمل .

وهذه مسألة هل العلم يستلزم الهداية أم لا؟ قولان لأهل العلم: طائفة من أهل العلم: ذهبوا إلى أنه يستلزم الهداية .

وقوم قالوا: لا يستلزم الهداية، واستدلوا بقصة بلعام وعلماء اليهود وغيرهم ممن علم وتخلف منه العمل .

وفصل المسألة شيخ الإسلام وابن القيم، فقالا: العلم التام السالم من مكدر - شبهة أو شهوة - لا يتخلف عنه العمل أبداً .

(كالبنيان يشد بعضه بعضاً) يعني: أن اتفاق المؤمنين بعضهم ببعض كالبنيان، وهذا في أمور دينهم وديانهم، بحيث يستقيم ويثبت، فإذا كان هذا شأن البنيان بعضه مع بعض، كان واجباً على المسلم أن ينصح أخاه، فإن هذا كالبنيان يشد بعضه بعضاً في دينه وديانها، يشد قويه ضعيفه، فإن البنيان منه القوي، ومنه الضعيف، فإذا تماسك وشد بعضه بعضاً ولصق بعضه ببعض استقام كله؛ فإن من المؤمنين من ليس كامل الإيمان قوياً، فلو ترك وحده لسقط،

وشبك بين أصابعه»

فإذا كان مع جماعة المسلمين تقوى بهم وصار منهم ومثلهم، وتقوى من ضعفه بجماعتهم.

ومنهم من هو ضعيف الإيمان لا يستقيم استقامة تامة.

(وشبك بين أصابعه) الكريمة إشارة إلى حقيقة ذلك، وأن المؤمنين كالأصابع المتداخل بعضها في بعض.

وقوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد»

(و) يعتقد أهل السنّة معنى (قوله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ»، فإنه من أعظم الأصول العظيمة: الحب في الله. السنّة: موثقتهم ورحمتهم وعطفهم على إخوانهم المؤمنين) يعتقد أهل السنّة: «توادهم» و«تراحمهم» أصله تواددهم وهو التحابُّ، فالتوادم: هو التحابُّ، وفي الحديث: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان.. إلى قوله: وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله»^(١)، يعني: المحبة الدينية التي هي لله.

(وتراحمهم) التراحم هو: رحمة بعضهم بعضاً، كما وصف الله المؤمنين في قوله: ﴿رُحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ﴾.

(وتعاطفهم) والتعاطف يعني: عطف بعضهم على بعض بالمنافع والمصالح، ويلجأ إليه ونحو ذلك من رجوع بعضهم على بعض، ورفق بعضهم ببعض.

(كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد) رجع بعضه إلى بعض، ووجع من أجل ما اشتكى، فينعطف عليه الجسد ويتداعى، يعني: ينادي بعضه بعضاً هلُمَّ نحمل معه الألم، بل ونكون معه بالسوية نحمل كما حمل، ولو كان الألم في

(١) رواه البخاري ١٤/١، رقم ١٦، ومسلم ٦٦/١، رقم ٤٣، وتماهه: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

بالحمى والسهر» .

بَضْعَة من الجسد، سهر ذلك الجسد كله، (بالحمى) وهي شدة الحرارة، (والسهر): عدم النوم، فمثلاً الوجع يكون في الأصبع الواحد، فيتألم منها سائر الجسد ويشتكى، ويناله من الوجع - وهو في طرف الأنملة - فيسهر .

ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء،

(ويأمرون بالصبر عند البلاء)، أهل السنّة والجماعة: يحثون على الصبر، والصبر ثلاثة أقسام: صبر على الطاعات، وصبر عن المعاصي، وصبر على المصائب.

(والشكر عند الرخاء) كذلك أهل السنّة والجماعة: يأمرون به .
والشكر عند الرخاء، والرضا بمرّ القضاء

والشكر: هو الاعتراف بها في الباطن؛ كون الله أنعم بها، وهو أعم من القول باللسان، وأركانه ثلاثة: اعترافه بنعمة الله عليه، والثناء عليه بها، والاستعانة بها على مرضاته.

والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، هما الإيمان.

الصبر نصف الإيمان، وذلك أن العبد متقلب بين نعم يجب عليه شكرها، وبين صبر عن المعاصي يجب عليه اجتنابها، والدين كله في هذين الشئيين: فعل المأمور، وهو العمل بطاعة الله، وهو حقيقة الشكر، وترك المحذور، وهو الصبر عن المعاصي.

وهذان الأمران من الدين بمكان، بل الدين أمران: صبر وشكر، فإذا قام عند المصائب بالصبر، وعند النعم بحققها وهو الشكر، صار عابداً لله حقاً، وأعظم أنواع الصبر، الصبر عن المعاصي وهو أشقها، وعلى المصائب، ويفهم من كلام ابن القيم أن الصبر على الطاعات أفضل، وذلك أن الطاعات مرادة بالذات، أما المعاصي فليست مرادة بالذات، وإنما هو الطاعة لله، والصبر على الطاعة: إلزام النفس على فعل.

والرضا بمرّ القضاء،

(و) من أصول أهل السنّة: (الرضا)، والرضا: قد يكون بمعنى التسليم، وربما أنه أشهر معنى من التسليم، فهو من الكلمات التي هي أقرب إلى الذهن من التسليم.

(بمرّ القضاء) هذا يرجع إلى الصبر ولكنه غيره.

حالة الرضا: أن يستوي عنده البلاء وعدمه.

والرضا مرتبة أعلى من مرتبة الصبر، وهذه المرتبة المندوب فيها أفضل من الواجب، وهذا من المراتب التي المندوبات فيها أفضل من الواجبات، وإلا فالأصل أن الواجب أفضل من المندوب إلا في أمور منها هذا، كما في الحديث: «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه»^(١)، فإنه دالّ على أن الفرض أفضل من المستحب، فالرضا هنا أفضل من الواجب وهو الصبر، والصبر عند المصائب عزيز في الناس، ثم الرضا عزيز.

وللعبد عند المصيبة أربعة أحوال ممكنة:

- ١ - الجزع.
- ٢ - الصبر.
- ٣ - الرضا.
- ٤ - الاستشعار بأنها نعمة، وهذه تكاد أن تكون تذكر ولا توجد. فالصابر قليل، وأقل منه الرضا، وأقل منه الشكر.

(١) رواه البخاري ٢٣٨٤/٥، رقم ٦١٣٧.

ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويعتقدون
معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً»

(أهل السنة
يدعون إلى
كل خلق
عالٍ نفيس،
وإلى كل عمل
حسن)
(ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال) يعني: خلق
كريم، وعمل حسن، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «بعثت لأتمم
مكارم الأخلاق»^(١) أي: لِمَا رُكِّزَ في القلوب استحضانه.

فكل خلق وفعل حسن دلّ على حسنها الشرع والفتوة
والعقل، فأهل السنة يعتقدون حسنه، ويعملون به، ويأمرون به،
وكل خلق وفعل يستنكر في الفطر والعقول، يكرهونه وينهون عنه.
فهم يدعون إلى كل خلق عالٍ نفيس، وعمل حسن.

(اعتقادهم
أن المؤمن لا
يكمل إيمانه
إلا إذا حسن
خلقه)
(ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم
أخلاقاً») ويقبلونه ويعملون بموجبه، ويحسنون أخلاقهم مع إخوانهم
المسلمين، ويسعون ويجدون في تحسين أخلاقهم مهما أمكنهم،
ويحثون الغير على ذلك، فهو يجد في أن يكون حسن الخلق
ويوصي غيره.

والخلق: هو صورة الإنسان الباطنة، والخلق: هو صورته
الظاهرة.

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٩١.

ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو
عمن ظلمك،

(ويندبون إلى أن تصل من قطعك) من الأرحام، لا تقطعه حين
يقطع، ليوء بإثم الذي من قبله، وتنجو من تلك القطيعة، فلا تقابله
فمن كان ذا رحم فلا تقطعه كما قطعك، وقد سأل رجل النبي ﷺ
فقال: «إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي،
وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: لئن كنت كما قلت، فكأنما
تسفهم الممل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على
ذلك»^(١)، وقال: «ليس الواصل بالمكافيء، ولكن الواصل الذي إذا
قطعت رحمه وصلها»^(٢)، وقطيعة الأرحام ليس فيها انقسام^(٣).

(لا
يقابلون
قاطع
الرحم
بالقطيعة)

وتمام الصلة الحقيقية: بأن تكون أنت الواصل ولو لم يصلك،
فإذا فعلت الخير، فالخير ما يجر إلا إلى خير، وهو أن يتقي الله فلا
يقطعك.

(وتعطي من حرمك) الذي له حق عليك أن يعطيك، يندبون
إلى أن لا تقابله بمثل ما فعل، فإن أهل السنة يندبون إلى خير
الأمرين، فمن عاملك بالحرمان فيما ينبغي أن يعطيك، فأنت لا
تقابله بالحرمان، بل ابذل له حقه، ولا تقابله بما قابلك به.

(لا
يقابلون
من حرمهم
بمثل ما
فعل)

(وتعفو عن ظلمك) وكذلك من أساء إليك وتعدي عليك
وظلمك، تعفو عنه ولا تقابله بمثل فعله، وإن كان جائزاً، وهو من
ظلمهم)

(ويعفون
عمن
ظلمهم)

(١) رواه مسلم ٤/١٩٨٣، رقم ٢٥٥٨.

(٢) رواه البخاري ٥/٢٢٣٣، رقم ٥٦٤٥.

(٣) أي: يجب عليك صلتها على كل حال، سواء واصلوك أم قطعوك.

.....

باب القصاص قال تعالى: ﴿وَلَمَنَ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ لكن الأفضل أن تغفو عنه فدرجة العفو درجة عليا .

والظالم له عند أهل السنّة مرتبتان: المقاصة والعدل،
عند أهل السنّة
مرتبتان: المقاصة
والمسامحة والفضل، قال تعالى: ﴿وَإِنِ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ ثم قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَظَمِ الْأُمُورِ﴾ .
والمسامحة

ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام،

(ويأمرون ببر الوالدين) وهو فعل الجميل معهما، وضده العقوق وهو من المحرمات، وبر الوالدين من الواجبات، والأمر ببرهما جاء قرنه بحق الله تعالى فإنه أعظم حق بعد حق الله وحق الرسول ﷺ، فالوالدان أصلك، وهما سبب إيجادك، فأعظم حق عليك حق الذي خلقك، ثم بعد ذلك حق النبي ﷺ؛ لأنه سبب نجاتك، وبعد ذلك حق الوالدين كما في الآيات التي فيها قرُن حق الوالدين بحقه تعالى.

(ويأمرون
ببر
الوالدين
أحياءً
وأموثاً)

ومن بر الوالدين بعد الوفاة: الدعاء والصدقة وهذا ثوابه لهما، وأن توقف وتجعل المثوبة لهما، ومودة أصدقائهما، ففي الحديث: «هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»^(١).

فبين ﷺ فعل بعض هذه الأوجه، وحديث «من بر الرجل والديه أن يبر ما يود» أو ما هذا معناه^(٢).

(وصلة الأرحام) بأن تصل الأرحام أي: القرابات، بأن تفعل معها الخير.

(ويبينون
الخير لذي
الأرحام)

فالصلة من الوصل، بأن تبقى بعضها منضم مع بعض بالخير

(١) رواه أحمد ٤٩٧/٣، وأبو داود ٣٣٦/٤ رقم ٥١٤٢.

(٢) رواه مسلم ١٩٧٩/٤ برقم ٢٥٥٢ بلفظ: «أبر البر، أن يصل الرجل ود أبيه»، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط ٧/٢٨٣، رقم ٧٥٠١ بلفظ: «من بر الرجل أباه بعد موته حفظه أهل ود أبيه من بعده».

وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى، والمساكين،

والنصح، هذا واجب لكل مسلم، فإن كان رحماً فهو أولى، وفي الحديث: «ليس الواصل بالمكافيء»^(١).

(ويحسنون
معاملة
الجار)

(وحسن الجوار) ويأمرون أيضاً: بحسن الجوار، يعني: معاملة الجار بالجميل بالمعاملة الحسنة، بكفّ الأذى، وإيراد الخير له، والصفح والستر عما يصير منه إن صار، فحقه كبير عظيم. فإذا كان مسلماً اجتمع له حق الإسلام وحق الجوار، فإن كان قريباً فهو أكد، وفي الحديث: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^(٢)، وحسن الجوار حتى مع الذمي إذا تُصوّر أن يكون في دار ذمة.

(ويحسنون
إلى اليتامى
والمساكين
وابن
السبيل)

(والإحسان إلى اليتامى)، اليتيم: الذي مات أبوه قبل بلوغه، وما بعد البلوغ فليس بيتيم، فاليتيم فَقَدَ مَنْ يَعُولُهُ ويقوم به، فالإحسان من حيث هو له محله، ولكن من أكد محالّه اليتامى، وجاء في حق اليتيم أحاديث، منها: «كافل اليتيم أنا وهو كهاتين في الجنة»^(٣).

(و) الإحسان إلى (المساكين): المحاويج، ودخل فيهم المحاويج سواء كان يجد بعض الكفاية أو لا، فأهل السّنة والجماعة يأمرون بالإحسان إليهم بما يدفع مسكنتهم.

(١) رواه البخاري ٢٢٣٣/٥، رقم ٥٦٤٥.

(٢) رواه البخاري ٢٢٣٩/٥، رقم ٥٦٦٩، ومسلم ٢٠٢٥/٤، رقم ٢٦٢٥.

(٣) رواه البخاري ٢٠٣٢/٥، رقم ٤٩٩٨، ومسلم ٢٢٨٧/٤، رقم ٢٩٨٣.

وابن السبيل ، والرفق بالمملوك ،

(وابن السبيل) يعني: المسافر، فإنه محلٌّ للإحسان، وذلك أنه في سفر قد فارق أهله ووطنه فهو بحاجة إلى من يحسن إليه .

(والرفق بالمملوك) النصوص جاءت في الرفق بالمملوك ومواساته، وأنه لا يُكَلَّف ما شَقَّ، وفي الحديث: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»^(١).

(ويرفقون
بالمملوك)

فهو إنسان آدمي مثلك، فجعل لك عليه الرق نعمة لك وابتلاء وامتحاناً، فمتعين عليك الرفق به عند جهله وغشمه، فجاء في الشرع الرفق به، لكونه تحت يدك ولهذا هو ليس بمملوك من كل جهة .

فيرفق بهم وفي معاملتهم وطعامهم وشرابهم، وسائر ما يحتاجون إليه .

كل هذا مما يأمر به أهل السنّة والجماعة، وأدلته ومكانته وفضله من الكتاب والسنّة معلوم .

(١) رواه البخاري ١٨٩٩/٢، رقم ٢٤٠٧ .

وينهون عن الفخر والخيلاء، والبغي والاستطالة على الخلق - بحق أو بغير حق -،

(وينهون عن الفخر والخيلاء) مفتخراً بها على غيره، والفخر لا ينبغي، فإذا كان لدين فهي نعمة يستعين بها على شكر الله^(١).

(والخيلاء): هي الكبر والتعاضم، فإن المتكبر يتخيل نفسه أعظم مما هي عليه، ويراها أكبر مما هي عليه.

(والبغي والاستطالة على الخلق): الارتفاع عليهم بيده، أو بكلام، أو نحو ذلك، والتعالي عليهم سواء (بحق) عند أسباب ذلك (أو بغير حق).

الترفع والزيادة عليهم سواء بحق أو بغير حق، ولا سيما إذا صار فخراً بغير مفخر^(٢)، فلا توجب نعم الله معصية الله بها، بل توجب طاعة الله بها؛ وفي الحديث: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا

(١) قال ابن القيم - رحمه الله -: «والافتخار نوعان: محمود ومذموم، فالمذموم إظهار مرتبته على أبناء جنسه ترفعاً عليهم، والمحمود إظهار الأحوال السنية والمقامات الرفيعة لا على وجه الفخر، بل على وجه التعظيم للنعمة والفرح بها وذكرها والتحدث بها والترغيب فيها، وذلك من المقاصد في إظهارها، كما قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر»، وقال سعد ﷺ: «أنا أول من رمى بسهم في سبيل الله» مدارج السالكين ٣/٤٢٤.

(٢) قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «نهى سبحانه على لسان رسوله عن نوعي الاستطالة على الخلق: وهي الفخر والبغي؛ لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر، وإن كان بغير حق فقد بغي» اقتضاء الصراط المستقيم ١/١٦٤.

ويأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفاسفها،

حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»^(١)، ولما بين ﷺ ما هو عليه من السيادة قال: «ولا فخر» بل على وجه التحدث بنعمة الله، وفي الحديث: «لينتهين أقوام يفتخرون بأبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه»^(٢)، وفي الحديث الآخر: «إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»^(٣).

والكبر على قسمين: قسم: يكون له ملك، وقسم: عائل كما في الحديث^(٤) فهو محرم على كل أحد.

(ويأمرون بمعالي الأخلاق) المعالي: جمع عالي، يعني: العالية الرفيعة مطلقاً التي جاء من الشرع حسننها وأعلاها، وقد قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، فيأمرون بكل خلق عالٍ جميل.

(وينهون عن سفاسفها) ورذائلها أي: مراذل الأخلاق وسفالات الأخلاق. فهم ينهون عن كل خلق دنيء رذيل.

الخلق: - بضم الخاء - هو في الصورة الباطنة، - وبفتحةا - في الصورة الظاهرة.

(ويأمرون
بالأخلاق
العالية
وينهون عن
رذائلها)

(١) رواه مسلم ٢١٩٨/٤، رقم ٢٨٦٥.

(٢) رواه الترمذي ٧٣٤/٥، رقم ٣٩٥٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/٢٣٢.

(٣) رواه الترمذي ٧٣٤/٥، رقم ٣٩٥٤.

(٤) قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم، شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر» رواه مسلم ١٠٢/١ رقم ١٠٧.

وكل ما يقولونه أو يفعلونه من هذا وغيره، فإنما هم فيه
متبعون للكتاب والسنة،

(كل ما يقولونه ويفعلونه متبعون فيه الكتاب والسنة)
ما (وكل ما يقولونه أو يفعلونه من هذا) الذي تقدم (وغيره) مما هو من أنواع الحق من أصولهم وعقائدهم.
(فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة) مغولهم ومستندهم الكتاب والسنة.

كل ما تقدم إيضاحه وشرحه عن أهل السنة، إنما هم أبدأً متبعون فيه للكتاب والسنة، وحبل القيادة في يد الكتاب والسنة، يسرون حيث سار الكتاب والسنة، لا استحسان منهم لشيء، ولا نظر لشيء.

وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ،
 لكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين
 فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة. وفي حديث
 عنه ﷺ أنه قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم
 وأصحابي» صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن
 الشوب، هم أهل السنة والجماعة،

(وطريقتهم) يعني: كثير من الناس سلكوا طرقاً - كالتيجانية
 وغيرها -، فعندما يكون للناس طرائق، فإن أهل السنة طريقتهم شيء
 واحد: و(هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ) ظاهراً
 وباطناً، فكأن المصنف بين لهم طريقاً، لكن لا كطريق أهل
 الطرائق، فقط طريق واحد وهو دين الإسلام، فأهل السنة ليس لهم
 دين غير دين الإسلام هذه طريقتهم ظاهراً وباطناً.

(طريقتهم
 هي دين
 الإسلام)

(لكن) استدراك مما تقدم وهو قوله: «وطريقتهم هي
 دين الإسلام»، وهذا الاستدراك إنما هو لإرادة شيء مقدر، وجه
 قول «أهل السنة».

(لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة)،
 فهو واقع بكل حال (كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وفي
 حديث عنه ﷺ أنه قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم
 وأصحابي» صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب،
 هم أهل السنة والجماعة) هذا جواب لما ذكر.

.....

قائلًا قال: إذا كانت طريقتهم هي الكتاب والسنة فلم لم يقل: المسلمون؟^(١)

(لماذا قيل لهم: أهل السنة

والجماعة، ولم يقل:

المسلمون؟)

قيل: لما تفرق الناس إلى ثلاث وسبعين فرقة، ولما لم يكن متمسكاً بالكتاب والسنة سوى فرقة واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، لقبوا أهل السنة والجماعة، يعني: أنهم تمسكوا واتحدوا في هذا الطريق، يعني: أنه ليس شيئاً خفياً، ولا من الطرق، بل هو هذا الطريق البين الواضح.

(عبارة أخرى):

قيل: لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، المحض فقط من الثلاث والسبعين هي فرقة واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة، فكأنهم قيل لهم: هم على ما كان عليه النبي ﷺ وأتباعه، فإن من انتسب إلى الإسلام فيهم بدع، منها ما تخرجهم عن الإسلام، ومنها ما لا تخرجهم من الإسلام، ليس كل من انتسب إلى الإسلام فهذه عقيدته، لا، بل هذه عقيدة فرقة واحدة، وهم أهل السنة والجماعة^(٢).

(١) (عبارة أخرى): كأن قائلًا قال: إذا كانت طريقتهم هي دين الإسلام، أليس هذا من الطرق التي يلقبون بها، فلم لا يكتفى بذلك وأن يقال لهم: المسلمون؟.

(٢) (عبارة أخرى): إنما قال ذلك، لأن الناس اشتهروا بالطرائق التي تشعبت بالناس كالتيجانية وغيرها، - منها ما هو في زمن المصنف وبعده - صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب، هم أهل السنة والجماعة.

يعني: إنما لقبوا بذلك؛ لكون أهل السنة تمسكوا بذلك لا فلانية، ولا فلانية، =

وفيهـم الصديقون والشهداء

(طبقات
الخلق)

(وفيهـم الصديقون والشهداء)، هؤلاء طبقاتٌ من الخلق، وهم أفضل الخلق بعد الأنبياء، فإنهم طبقات بعد الأنبياء، وهذه المذكورة في الآية على الترتيب من الأعلى إلى الأدنى، وفيها أربع طبقات، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾. وأفضل هذه الأصناف: الأنبياء ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون، فالأنبياء مكانتهم شيء معروف، وما سواهم كلهم من هذه الأمة، فطبقات المكلفين المؤهلين للشرع ثمانية عشر مذكورة في مُصَنَّف^(١). المقصود أنه في أهل السنة والجماعة من فيهم هاتان الصفتان.

والصديقون: جمع صديق، والصديق: فعيل من صيغ المبالغة، يعني: كثير وعظيم التصديق بالحق، وهم في هذه الأمة كثير، ورئيسهم وأفضلهم صديق هذه الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو أعظمهم وأكبرهم.

وفي أهل السنة والجماعة: الشهداء: جمع شهيد، وأفضل الجهاد القتل في سبيل الله.

فكلهم موجودون في هذه الأمة، يعني: أهل السنة والجماعة موجود فيهم الصديقون والشهداء.

= أهل سنة الرسول ﷺ، ومجتمعين على إثارة ما جاء به النبي ﷺ.
(عبارة أخرى) قيل: الجواب أنه لما كان المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة، قيل لهم: أهل السنة والجماعة.
(١) ذكرها ابن القيم في آخر كتابه طريق الهجرتين ص ٤٥٣.

وفيهم أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، أولو المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة.

(وفيهم) - وفي أهل السنّة - (أعلام الهدى) المعنوي، الأعلام: جمع علم، وهو في لغة العرب: الجبل الكبير العظيم على الطريق، سمي علماً؛ لأنه علم على الطريق التي يعلم به الجهات والطرق. (الأئمة الكبار في أهل السنّة)

يعني: في أهل السنّة أئمة كبار يهتدى بهم في الدين كما يُهتدى بالجمال الكبار.

(و) في أهل السنّة (مصابيح الدجى)، المصابيح: جمع مصباح التي تستضيء بنورهم الأمة، وذاك العلماء الكبار، وهم الذين يضيء علمهم ويزول الجهل بضيائها، وقيل لهم ذلك؛ لأنه يهتدى بهم في ظلمات الجهل، وهم كالسرج في الظلم يستضاء بهم، وذلك لما أوتوه من العلم الموروث.

كلهم في أهل السنّة موجودون.

(أولو) يعني: أصحاب (المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة).

وفيهم الأبدال، وفيهم أئمة الدين، الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرائتهم.

(وفيهم الأبدال) الأبدال: هم أناس صلحاء في الأمة تجاب دعواتهم فيدفع الله بدعواتهم عن المسلمين، فبوجودهم في الناس يرحم الله بدعائهم الناس، وسموا أبدالاً؛ لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل بآخر، أخذه بعض الناس من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

(في أهل
السنة
أناس أهل
صلاح
يرحم الله
بدعائهم
الأمة وهم
الأبدال)

يعني: في أهل السنة رجال أهل صلاح وخير لا يزالون في الناس، يرحم الله بسببهم المسلمين ببركة دعائهم، والمصنف ذكر هذه، لأحاديث جاءت في هذا ولكنها ضعيفة، فالمصنف ذكرها يعضد بعضها بعضاً «لا يزال في أمتي أبدال»^(١).

(وفيهم أئمة الدين) مثل الأئمة الأربعة أئمة المذاهب وغيرهم من الأئمة قبلهم بأزمان وبعدهم، ووجود الأئمة فيهم دليل أنهم من أهل السنة وليسوا من أهل البدعة، وصاحب البدعة لا يثنى عليه، بل يذم.

(وفيهم
أئمة
الدين)

(الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرائتهم) من شأنهم طلب الهدى واتباعه، والأئمة ليسوا محصورين في الأربعة لكن الأربعة اشتهروا أكثر.

فإن الأئمة الأربعة كونهم أهل هدى وخير وعلم، لا نزاع

(١) رواه الإمام أحمد ٥/٣٢٢ رقم ٢٢٨٠٣ بلفظ: «كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً».

وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة» .
فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم،

بين المسلمين أنهم أئمة، وليسوا معصومين في جميع أقوالهم، فإن المعصومين الرسل، فإنه ليس شرطاً أن لا يوجد في أحد زلة، لا .

(وهم) - أي: أهل السنّة والجماعة - (الطائفة) الباقية وجودها (أهل السنّة والجماعة هم الطائفة المنصورة) في الناس (المنصورة) وهم الفرقة الثالثة والسبعون (الذين قال فيهم النبي ﷺ) - المثنى عليهم في حديث -: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين) معنى ظاهرين: عالين منصورين، عالين كما في الآية: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، فإن الشيء كلما كان منصوراً صار جلياً، فالظهور تبع للنصر والتأييد، وكلما كان أقل نصرة صار أقل ظهوراً.

(لا يضرهم من خذلهم) يعني: ترك نصرتهم، (ولا من خالفهم) وضادهم وعاداهم (حتى تقوم الساعة). فإن الله سبحانه وتعالى من عنايته أن تلك الطائفة يحفظ الله بهم الدين، وتقوم بهم الحجج على الأمة .

(فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم) يعني: من تلك الطائفة المنصورة ظاهراً وباطناً، هذا دعاء من المصنف أن يجعله الله منهم وأصحابه، ومن أراد صار حريصاً على هداية الناس .

وَأَنْ لَا يَزِيغَ قُلُوبُنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ
رَحْمَةً، إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا
كَثِيرًا.

(وَأَنْ لَا يَزِيغَ) يميل (قُلُوبُنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ) يعطي (لَنَا
مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً) يعني: مِنْ عِنْدِهِ، مَنًّا مِنْهُ وَفَضْلًا، (إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا
كَثِيرًا).

الفهرس

المقدمة	٥
ترجمة موجزة للشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله	٩
سبب افتتاح المصنف كتابه بالبسملة	١٥
أنواع العبودية	١٧
فائدة الجمع للنبي ﷺ بين العبودية والرسالة	١٧
معنى الصلاة على النبي ﷺ	١٨
من هم آل النبي ﷺ؟	١٨
العلة في الجمع بين الآل والصحب	١٨
معنى الاعتقاد	١٩
أصول البدع	٢٠
من ألقاب أهل الحق	٢٠
اعتقاد أهل السنة على سبيل الإجمال ما أجاب به النبي ﷺ جبريل	
لما سأله عن الإيمان	٢١
سبب اختيار المصنف لفظة «والبعث بعد الموت» بدل «واليوم الآخر»	٢١
مراتب الدين	٢٢
لماذا لم يقل المصنف: والإيمان بالله؟	٢٣

- قاعدة أهل السنّة والجماعة في الأسماء والصفات ٢٣
- معنى التحريف وأنواعه ٢٣
- الجهمية هم أهل التعطيل ٢٤
- كفر المعطلة أعظم من كفر الممثلة لوجوه ٢٤
- المعتزلة والأشاعرة والماتريدية إخوان الجهمية في التعطيل ٢٥
- معنى التكيف والتمثيل ٢٦
- أقسام الناس في باب الصفات ٢٦
- آية فيها رد على أهل التمثيل وأهل التعطيل ٢٨
- طريقة الكتاب والسنّة في الأسماء والصفات ٢٨
- محاذير يتجنبها أهل السنّة والجماعة في الأسماء والصفات ٢٩
- القول في الذات كالقول في الصفات ٣٠
- لماذا يتجنب أهل السنّة والجماعة تلك المحاذير في الأسماء
والصفات؟ ٣٠
- القياس الممنوع والقياس الجائز ٣٠
- باب الأسماء والصفات توقيفي ٣١
- أهل التعطيل وأهل التمثيل قائلون على الله بغير علم ٣٢
- حمد نفسه تعالى لما له من الأسماء والصفات ٣٣
- طريقة أهل السنّة في الأسماء والصفات النفي المجمل والإثبات
المفصل ٣٤

- ٣٤ لا يستقيم المقصد إلا بعدم العدول عما جاء به الرسل
- ٣٥ أنواع النعم
- ٣٦ أحسن الرفقاء
- ٣٧ وجه كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن
- ٣٨ ما تضمنته سورة الإخلاص من الأسماء والصفات
اشتمال آية الكرسي على عشر جمل منها ما هو نفي ومنها ما هو
- ٣٩ إثبات
- ٤٠ إثبات الكرسي لله
- ٤١ فضل قراءة آية الكرسي قبل النوم
- ٤٢ إثبات اسم الأول والآخر والظاهر والباطن لله واتصافه بها ومعانيها
- ٤٣ إثبات الحياة لله وما تستلزمه من الصفات
- ٤٣ إثبات اسمي الحكيم والخبير وإثبات مدلولهما
- ٤٤ إثبات صفة العلم
- ٤٥ صفة القدرة وشمولها
- ٤٧ إثبات اسم الرزاق والقوي والمتين لله
- ٤٧ قواعد في الأسماء والصفات أخذها أهل السنة من آية
- ٤٧ إثبات السمع والبصر لله
- ٤٨ إثبات المشيئة والإرادة لله
- ٤٩ الإرادة نوعان والفرق بينها وبين المشيئة
- ٥٠ إثبات صفة المحبة

- قاعدة عظيمة ٥١
- إثبات صفة الرحمة ٥٢
- الرد على من حرف معنى اسمي «الرحمن الرحيم» عن مدلولهما ... ٥٣
- إثبات صفة الرضا والغضب واللعن بالقول والسخط لله ٥٥
- إثبات الكراهة والمقت على ما يليق بجلال الله ٥٦
- إثبات صفة الإتيان والمجيء لله يوم القيامة ٥٧
- إثبات صفة الوجه لله ٥٩
- إثبات صفة اليدين لله ٥٩
- إثبات صفة العينين لله ٦١
- إثبات السمع لله ٦٢
- إثبات أن الله يرى ٦٣
- إثبات المكر والكيد لله على ما يليق بجلاله ٦٤
- قاعدة: الإخبار بالفعل أوسع من الاسم ٦٥
- وصف الله بالعفو والقدرة ٦٦
- وصف الله بالمغفرة والرحمة والعزة ٦٦
- إثبات الأسماء لله ونفي المثل عنه ٦٨
- إثبات الكمال المطلق لله، وتنزيهه عن جميع النقائص والعيوب .. ٧٠
- أعظم المحرمات وأقسامه ٧٥
- أهل السنّة والجماعة يؤمنون باللفظ والمعنى جميعاً ٧٦

إثبات استواء الله على عرشه استواء يليق بجلاله لا كاستواء	
المخلوقين	٧٧
معنى الاستواء معلوم والكيف مجهول	٧٧
قاعدة في جميع الصفات	٧٨
الرد على من حرف الاستواء بالاستيلاء	٧٨
حجة دامغة على منكري الصفات	٧٩
فائدة بديعة	٧٩
الفرق بين الاستواء والعلو: الاستواء أمر زائد على مطلق العلو	
وهو أخص منه ودل عليه السمع فقط	٨٠
طرق إثبات العلو	٨١
إثبات علو الله وفوقيته على مخلوقاته	٨٣
إثبات معية الله لخلقه	٨٦
لماذا فسر بعض السلف المعية ببعض مقتضياتها؟	٨٧
المعية الخاصة	٨٨
المعيتان لا تقتضي امتزاجاً ولا اختلاطاً، والفرق بينها وبين	
القرب	٨٩
إثبات صفة الكلام لله	٩٠
مذهب أهل السنة في كلام الله	٩٢
القرآن كلام الله	٩٣
مراتب القرآن	٩٤

- ٩٥ القرآن منزل غير مخلوق
- ٩٦ إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة
- ٩٨ الآيات المشتملة على الصفات في القرآن كثيرة
- ٩٨ لماذا أكثر المصنف من إيراد آيات الصفات؟
- ٩٩ فصل في سنة رسول الله ﷺ
- ٩٩ نصوص الصفات من السنة
- إثبات نزول الرب إلى السماء الدنيا كل ليلة على ما يليق
بجلاله ١٠١
- هل يخلو منه العرش أو لا؟ السكوت عنه أولى ١٠٢
- إثبات صفة الفرح لله ١٠٣
- إثبات صفة الضحك لله ١٠٣
- إثبات صفة العَجَب لله ١٠٥
- إثبات صفة الرجل والقدم لله ١٠٦
- قاعدة في الصفات ١٠٦
- إثبات صفة الكلام لله ١٠٨
- إثبات علو الرب وفوقيته ١٠٩
- إثبات معية الله لخلقه ١١٢
- إثبات صفة القرب لله لا ينافي علوه وفوقيته ١١٤
- القرب لا ينقسم كما تنقسم المعية وإنما هو خاص ١١٧
- إثبات رؤية الرب في القيامة وفي الجنة عياناً بالأبصار ١١٨

- أهل السنّة والجماعة يؤمنون بجميع ما ثبت عن النبي ﷺ في
- الصفات ١٢١
- مكانة أهل السنّة والجماعة بين فرق الأمة ١٢٣
- الناس في باب الصفات ثلاث فرق أهل السنّة هم الوسط
- بينهم ١٢٣
- الفرق بين مذهب الأشاعرة والجهمية ١٢٤
- أهل السنّة وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية ١٢٦
- أهل السنّة وسط في باب نصوص الوعيد بين المرجئة والوعيدية ١٢٧
- أهل السنّة وسط في مسألة الأسماء والأحكام بين الحرورية
- والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية ١٢٨
- أهل السنّة وسط في الصحابة بين الرافضة والخوارج ١٣٠
- فصل ١٣١
- من أعظم الإيمان بالله: الإيمان بعلم الله ومعيته مع خلقه، وأنها
- لا تنافي علوه وفوقيته ١٣١
- معية الله لا تقتضي الامتزاج بإجماع السلف والفطرة دلت على
- ذلك واللغة لا توجه ١٣٢
- أمثلة على أن المعية لا تقتضي الامتزاج ١٣٣
- الله فوق العرش وهو مع خلقه شيان متوافقان لا يتنافيان
- كلاهما حق على حقيقته ١٣٥

الله يصاب عن الظنون الكاذبة فهو الغني بذاته ولا يحتاج إلى	
شيء من مخلوقاته	١٣٥
فصل	١٣٧
إثبات صفة قرب الله الخاص وأنه لا ينافي علوه وفوقيته	١٣٧
فصل	١٣٩
كلام الله منزل غير مخلوق، سَمِعَهُ جبريل من رب العالمين	١٣٩
القرآن كلام الله حقيقة	١٤٠
فصل	١٤٣
الإيمان برؤية المؤمنين لربهم رؤية حقيقية عياناً بأبصارهم في	
عرصات القيامة وفي الجنة وكيفية رؤيتهم له	١٤٣
فصل	١٤٥
الإيمان بما يكون بعد الموت من الإيمان باليوم الآخر	١٤٥
الإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه	١٤٥
فتنة الناس في قبورهم	١٤٧
مآل الناس بعد فتنة القبر	١٤٩
القيامة الكبرى	١٥٠
نصب الموازين	١٥٠
نشر الدواوين	١٥١
الحساب من أعظم أمور الآخرة	١٥٣
خلو الرب بعبده المؤمن	١٥٣
محاسبة الكفار	١٥٣

- حوض النبي ﷺ المورود ١٥٥
- الإيمان بالصراط ونصبه على متن جهنم ١٥٧
- أقسام الناس في المرور على الصراط ١٥٧
- الوقوف على القنطرة والحكمة من ذلك ١٥٩
- متى يدخل أهل الجنة الجنة؟ ١٥٩
- أول من يطلب فتح باب الجنة ودخولها نبينا محمد ﷺ ١٦٠
- الإيمان بالشفاعات ١٦١
- شفاعات النبي ﷺ ١٦١
- شفاعته الأولى: الشفاعة العظمى وهي المقام المحمود الذي
أوتيه وهي خاصة بالنبي ﷺ ١٦١
- شفاعته الثانية: في أهل الجنة الذين استوجبوها أن يدخلوها
وهي خاصة به ﷺ ١٦٣
- شفاعته الثالثة: فيمن استحق النار من عصاة الموحدين أن لا
يدخلها ومن دخلها أن يخرج منها، وهي ليست خاصة
بالنبي ﷺ ١٦٣
- إخراج بعض عصاة الموحدين من النار بفضل الله ورحمته من
غير شفاعة ١٦٥
- ينشئ الله أقواماً لم يعملوا خيراً قط فيدخلهم الجنة ليملاها ١٦٥
- الحكمة من أن الله ينشئ للجنة أقواماً يدخلونها وأن النار
بخلاف ذلك ١٦٥

- تضمن الكتاب والسنة تفاصيل اليوم الآخر ١٦٧
- الإيمان بالقدر ١٦٨
- الإيمان بالقدر على درجتين، وكل درجة تتضمن شيئين ١٦٩
- الدرجة الأولى: العلم، والشيء الأول منه علم الله السابق
للأشياء علماً تفصيلاً ١٦٩
- الشيء الثاني من الدرجة الأولى: الإيمان بالكتابة ١٦٩
- نتيجة الإيمان بالقدر ١٧٠
- أنواع الكتابة ١٧١
- الكتاب الأول: الجملة ١٧١
- الكتاب الثاني: التفصيل ١٧٢
- الرد على من أنكرك ذلك ١٧٣
- الدرجة الثانية ١٧٥
- الشيء الأول من الدرجة الثانية: الإيمان بالإرادة والمشئة ١٧٥
- الشيء الثاني من الدرجة الثانية: الإيمان بخلق الله الكائنات
بقدرته ١٧٦
- القدر لا ينافي الشرع ١٧٧
- الطوائف في القدر والشرع ١٧٧
- يريد سبحانه أشياء يحبها وأشياء لا يحبها ١٧٨
- العباد لهم أفعال حقيقية والله خالقها ١٨٠

- القدرية النفاة من المعتزلة وغيرهم يخرجون أفعال العباد عن
 أن تكون مخلوقة لله وزعموا أن العبد يخلق فعل نفسه ١٨١
- الجبرية يسلبون العبد قدرته واختياره ١٨٢
- أهل السنة آمنوا بالشرع والقدر جميعاً ١٨٣
- فصل ١٨٤
- معتقد أهل السنة والجماعة في حد الإيمان أنه قول واعتقاد
 وعمل يزيد وينقص ١٨٤
- معنى قول القلب وعمله ١٨٤
- الفرق بين قول اللسان وعمله ١٨٥
- معنى عمل الجوارح ١٨٥
- الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ١٨٦
- الإيمان عند المعتزلة والخوارج ١٨٧
- أهل السنة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما
 يفعل الخوارج ١٨٩
- الرد على الخوارج ١٨٩
- أهل السنة لا يسلبون عصاة الموحدين اسم الإيمان بالكلية ١٩١
- ولا يخلدونه في النار ١٩١
- الفاسق الملمي لا يخرج من الإيمان بالكلية ولا يدخل في الإيمان
 المثني به ١٩٢

العاصي يقال له: مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق	
بكبيرته	١٩٣
فصل	١٩٦
من أصول أهل السنّة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم	
للصحابة <small>رضي الله عنهم</small>	١٩٦
مذهب الرافضة في أصحاب رسول الله <small>صلى الله عليه وآله</small>	١٩٦
كفر الرافضة	١٩٧
أهل السنّة والجماعة يمثلون ما وصفهم الله به من سلامة	
قلوبهم للصحابة	١٩٧
أهل السنّة والجماعة أشد الناس طاعة للنبي <small>صلى الله عليه وآله</small> في محبة	
الصحابة	١٩٨
فضائل الصحابة عامة وخاصة	٢٠٠
من أنفق من قبل الفتح وقاتل أفضل وأرفع ممن أنفق من	
بعده وقاتل	٢٠٠
المهاجرون أفضل من الأنصار	٢٠١
لأهل بدر رتبة عالية	٢٠٢
معنى مغفرة الله لأهل بدر	٢٠٢
أهل السنّة والجماعة يؤمنون بأنه لا يدخل النار أحد بايع	
تحت الشجرة	٢٠٣
كل من بايع تحت الشجرة في الحديدية فإن الله قد رضي عنه	٢٠٣
مسألة الشهادة بالجنة والنار	٢٠٥

- لا نشهد لأحد بجنة أو نار ما لم تشهد له النصوص بذلك ٢٠٦
- مراتب الخلفاء الأربعة في الفضل ٢٠٨
- مراتب الخلفاء الأربعة في الخلافة ٢٠٩
- أهل السنّة والجماعة يحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ٢١١
- الكافر من أهل البيت ٢١٢
- أهل السنّة والجماعة يتولون أزواج رسول الله ﷺ وهن من
أهل بيته ٢١٤
- فضائل خديجة وعائشة رضي الله عنهما ٢١٤
- أيهما أفضل خديجة أم عائشة؟ ٢١٥
- التبرؤ من طريقة الرافضة في بغض الصحابة وسبهم أصل من
أصول أهل السنّة ٢١٧
- ومن أصول أهل السنّة: التبرؤ من طريقة النواصب في عداوة
أهل البيت ٢١٧
- الأغراض الشخصية سبب نشوء معتقد النواصب ٢١٧
- معتقد أهل السنّة والجماعة: الإمساك والكف عما شجر بين
الصحابة ٢١٩
- مسلك أهل السنّة والجماعة في الآثار المروية في مساويهم على
ثلاثة أقسام ٢١٩
- ما وقع بين الصحابة هم فيه معذرون، إما مجتهدون مصييون،
وإما مجتهدون مخطئون ٢٢٠

- لا يمكن اجتماع الصحابة بحالٍ على ضلالة ٢٢٠
- للصحابة من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم
- إن صدر ٢٢١
- الأعمال تتفاضل بما في القلوب ٢٢٢
- أسباب مغفرة ذنوب الصحابة إذا قدر أن واحداً منهم قد صدر
- منه ذنب ٢٢٣
- ما جرى بين الصحابة هم مجتهدون فيها، إن أصابوا فلهم
- أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور لهم .. ٢٢٥
- الصحابة خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم ٢٢٦
- فصل ٢٢٧
- من أصول أهل السنة: الإيمان بكرامات الأولياء ٢٢٧
- من ظهرت له كرامة ليس له مزية وفضيلة على من لم تظهر له .. ٢٢٨
- لماذا الكرامات في التابعين أكثر منها في الصحابة؟ ٢٢٩
- فصل ٢٣٠
- من طريقة أهل السنة والجماعة: اتباع هدي النبي ﷺ في
- الاعتقاد والقول والعمل ٢٣٠
- التحذير من البدع ٢٣١
- أهل السنة يرون أن أصدق الكلام كلام الله، ويؤثرون كلامه على
- كلام من سواه ٢٣١

- سموا أهل الكتاب والسنة لإيثارهم طريق الكتاب والسنة على
غيرهما ٢٣٢
- سموا بالجماعة لاجتماعهم على الحق وهو الأخذ بالكتاب
والسنة ٢٣٢
- عند أهل السنة والجماعة ثلاثة أصول يزنون بها جميع ما
عليه الناس ٢٣٣
- الإجماع المعتبر: هو ما كان عليه السلف الصالح ٢٣٤
- فصل** ٢٣٥
- من أصول أهل السنة والجماعة: الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ٢٣٥
- ما هو المعروف والمنكر؟ ٢٣٥
- درجات الأمر بالمعروف ٢٣٦
- من شرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن يكون على
ما توجبه الشريعة ٢٣٦
- من أصول أهل السنة: إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد
مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً ٢٣٨
- المحافظة على الجمع والجماعات من أصول أهل السنة
خلافاً للرافضة ٢٣٩
- من معتقد أهل السنة: النصيحة لجميع الأمة ٢٤٠

- من أصولهم: العمل بمقتضى ما اعتقدوه، ومن ذلك العمل
 بالنصيحة ٢٤١
- هل العلم يستلزم الهداية أم لا؟ ٢٤١
- من المؤمنين من لو تُرك وحده لسقط ٢٤١
- من معتقد أهل السنّة: مودتهم ورحمتهم وعطفهم على إخوانهم
 المؤمنين ٢٤٣
- من أصول أهل السنّة: الأمر بالصبر عند البلاء، والشكر عند
 الرخاء، والرضا بمرّ القضاء ٢٤٥
- أهل السنّة يدعون إلى كل خلق عالٍ نفيس، وإلى كل عمل
 حسن ٢٤٧
- اعتقادهم أن المؤمن لا يكمل إيمانه إلا إذا حسن خلقه ٢٤٧
- لا يقابلون قاطع الرحم بالقطيعة ٢٤٨
- لا يقابلون من حرمهم بمثل ما فعل ٢٤٨
- ويعفون عن من ظلمهم ٢٤٨
- الظالم له عند أهل السنّة مرتبتان: المقاصة والمسامحة ٢٤٩
- ويأمرون ببر الوالدين أحياء وأمواتاً ٢٥٠
- ويبدلون الخير لذوي الأرحام ٢٥٠
- ويحسنون معاملة الجار ٢٥١
- ويحسنون إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل ٢٥١
- ويرفقون بالمملوك ٢٥٢

- وينهون عن الفخر والخيلاء ٢٥٣
- وينهون عن البغي والاستطالة على الخلق ٢٥٣
- ويأمرون بالأخلاق العالية وينهون عن رذائلها ٢٥٤
- كل ما يقولونه ويفعلونه متبعون فيه الكتاب والسنة ٢٥٥
- طريقتهم هي دين الإسلام ٢٥٦
- لماذا قيل لهم: أهل السنة والجماعة، ولم يقل: المسلمون؟ ... ٢٥٧
- طبقات الخلق ٢٥٨
- الأئمة الكبار في أهل السنة ٢٥٩
- في أهل السنة أناس أهل صلاح يرحم الله بدعائهم الأمة وهم
الأبدال ٢٦٠
- وفيهم أئمة الدين ٢٦٠
- أهل السنة والجماعة هم الطائفة المنصورة ٢٦١
- الفهرس ٢٦٣

للتوزيع

هاتف: ٠٥٠٥٤٤٣٢٤٨

ISBN 978-9960-58-810-X



9 789960 588100

تيسير الوصول
شرح

ثلاثة الأصول

٢ عبد المحسن بن محمد القاسم، ١٤٢٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاسم، عبد المحسن بن محمد

تيسير الوصول شرح ثلاثة الأصول/ عبد المحسن بن محمد القاسم -

ط ٢ - الرياض، ١٤٢٩ هـ

٢٢٢ ص: ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ١ - ٠٠٣٧ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - العقيدة الإسلامية أ - العنوان

١٤٢٩/١١٨٨

ديوي ٢٤٠

رقم الإيداع: ١٤٢٩/١١٨٨

ردمك: ١ - ٠٠٣٧ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٢٩ هـ

تيسير الوصول

شرح

ثلاثة الأصول

د. عبد المحسن محمد القملي

إمام وخطيب المسجد النبوي

إذا رغب إمام المسجد قراءة هذا الكتاب على جماعة المسجد، أو رغب رب الأسرة قراءته على أسرته، أو غيرهما، فقد تم تقسيم هذا الكتاب إلى مجالس، كل مجلس ينتهي بهذه العلامة *

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

فإن «ثلاثة الأصول» للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -، من أنفع المتون المؤلفة في أصول الدين، وقد تلقاها طلبة العلم والعامّة بالحفظ والمدارسة، لكونها قاعدة في العقيدة، ولقد وهب الله عز وجل للإمام العلامة محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - حسن التصنيف، ودقة الترتيب، وقوة الاستدلال مع جزالة اللفظ وجمال البيان، وقد جاءت ثلاثة الأصول شاملة لذلك كله، قال عنها حفيد المصنف الشيخ عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله -: «فما أعظم نفعها على اختصارها لطالب الهدى»^(١).

ففيها الأصول التي يجب على الإنسان معرفتها، وهي معرفة العبد ربه، وأنواع من العبادة التي أمر الله بها، ومعرفة العبد دينه، ومراتب الدين، وأركان كل مرتبة، ومعرفة النبي ﷺ في نبذة من حياته، والحكمة من بعثته، والإيمان بالبعث والنشور، وركنا التوحيد وهما الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

ولكونها قاعدة في العقيدة فقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - يلقنها الطلبة والعامّة، قال الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله -: «وقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - يلقن الطلبة والعامّة هذه

(١) الدرر السنينة ٤/ ٣٣٨.

الأصول، ليدرسوها ويحفظوها، ولتستقر في قلوبهم، لكونها قاعدة في العقيدة^(١). وكانت تقرأ على الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - ويشرحها كل يوم^(٢).

وقد صُدّرت ثلاثة الأصول بثلاث رسائل نافعة عظيمة للشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - هي قواعد في الدين:

الأولى منها: في وجوب العلم، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه.

والثانية: في توحيد الربوبية، والألوهية، والولاء والبراء.

والثالثة: في بيان التوحيد وضده.

وبذلك جاءت ثلاثة الأصول مع الرسائل الثلاث عقداً مكتملاً في أصول الدين، ودرية مضيئة للعابدين الموحدين، قال عنها الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله -: «هذه رسالة مهمة في العقيدة»^(٣).

ولأهميتها وغزير نفعها وحاجة المسلم إليها كان العلماء يحثون الولاة لإلزام الناس بتعلمها وفهمها، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله -: «فيلزم الأمير أن يأمر جميع المدرسين وأئمة المساجد، بالحضور عند من يعلمهم دينهم، ويلزمهم القراءة فيما جمعه شيخنا - رحمه الله - في كتاب التوحيد، من أدلة الكتاب والسنة التي فيها الفرقان بين الحق والباطل، فقد جمع على اختصاره خيراً كثيراً، وضمنه من أدلة التوحيد ما يكفي مَنْ وفقه الله، وبين فيه الأدلة في بيان الشرك الذي لا يغفره الله، ويلزمهم سؤال العامة عن أصول الدين الثلاثة بأدلتها، وأربع القواعد»^(٤).

رسائل
صدرت بها
ثلاثة الأصول

الولاة
يأمرون
العامة
بتعلمها
وفهمها

(١) شرح ثلاثة الأصول للشيخ ابن باز ص ٢١.

(٢) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ١/١٢.

(٣) شرح ثلاثة الأصول للشيخ ابن باز ص ٢١.

(٤) الدرر السنية ٤/٣٣٨.

وكتب الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - لأئمة المساجد يأمرهم بتعليم جماعة المسجد ثلاثة الأصول، وأن يعقد لهم مجلساً يومياً يسألهم عنها قال - رحمه الله -: «وكذلك عليكم - أي الأئمة - تعليم الجماعة أمر الدين وسؤالهم عنه، كما في «مختصر ثلاثة الأصول» فيتعين على كل إمام مسجد إبلاغ جماعته بذلك، ويعقد لهم مجلساً يومياً يسألهم فيه عن أمور دينهم، ويعلمهم ما يخفى عليهم منها»^(١).

ولأهمية هذه الرسالة وعميم نفعها وضعت لها شرحاً سميته: «تيسير الوصول شرح ثلاثة الأصول» موضحاً معانيها، ومظهراً مبانيها، مستشهداً بأقوال سلف هذه الأمة ومحققياً، كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله -.

أسأل الله عز وجل أن ينفع به، وأن يجعله ذخراً لنا في الآخرة، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. عبد الحسین بن محمد بن عبد الرحمن قاسم

إمام وخطيب المسجد النبوي
والفاخر بالحكمة العامة
بالمدينة النبوية

(١) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ٢/٢٧٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم^(١) رحمك الله

(بسم الله الرحمن الرحيم)

استفتح المؤلف - رحمه الله - كتابه مستعيناً بالله، متبركاً باسمه تعالى، قائلاً: أبدأ مصنفي بـ (بسم الله) مقتدياً في ذلك بكتاب الله، ومتأسياً بالنبي ﷺ في مكاتباته ومراسلاته.

شرح البسمة

ولفظ الجلالة «الله» علم على الباري جلّ وعلا، وهو الاسم الذي تتبعه جميع الأسماء.

و(الرحمن) اسم من الأسماء المختصة بالله لا تطلق على غيره، والرحمن معناه المتصف بالرحمة الواسعة.

و(الرحيم) اسم من أسمائه تعالى، ويطلق عليه ويطلق على غيره، ومعناه ذو الرحمة الواصلة، فالرحمن ذو الرحمة الواسعة، والرحيم ذو الرحمة الواصلة قال ابن القيم - رحمه الله -: «الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم»^(٢).

يقول المصنف: (اعلم) ولا تكن جاهلاً بأمور الدين، وسأذكر لك مسائل مهمة في أصول الدين حقيق أن تهتم بها غاية الاهتمام وأن تصغي إليها حقيقة الإصغاء، وأنا أدعو لك بالرحمة قائلاً: (رحمك الله) أي: أسأل الله أن ينزل عليك رحمته التي تحصل بها على مطلوبك، وتنجو بها من محذورك، وهذا دأب الناصح يدعوك إلى الهداية، ويدعو لك بالخير، فيجمع بين التعليم

أربع
مسائل
واجب تعلمها

(١) هذه هي الرسالة الأولى من الرسائل التي سبقت ثلاثة الأصول.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ٢٤.

أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل : الأولى : العلم ،

والدعاء ، وهذا من حُسن عناية المصنف - رحمه الله - بعباد الله المؤمنين ،
ونصحِهِ وقصِدِهِ الخير للمسلمين .

(أنه يجب) وجوباً عينياً (علينا) نحن المكلفين ، ذكوراً وإناثاً ، صغاراً
وكباراً (تعلم) ومعرفة (أربع مسائل) مهمة في الدين شاملة له .

المسألة
الأولى:
العلم

(الأولى) من تلك المسائل : (العلم) وهو معرفة الهدى بدليله ، ويشمل
معرفة الله ، ومعرفة نبيه ، ومعرفة دين الإسلام ، وخص المصنف - رحمه الله -
هذه الأمور ، لأنها هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا عليها ، وهي التي يسأل
العبد عنها في قبره ، والعبد إذا عرف ربه وعرف نبيه ﷺ وعرف دين الإسلام
بالأدلة ، كمل له دينه .

وما كان واجباً على الإنسان العمل به - كأصول الإيمان وشرائع
الإسلام ، وما يجب اجتنابه من المحرمات ، وما يحتاج إليه في المعاملات
ونحو ذلك - مما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ليعبد العبد ربه على
بصيرة ، ويتقرب إليه على برهان ، ويجب عليه أن يسأل أهل العلم عمّا جهله
من ذلك ، قال الإمام أحمد - رحمه الله - : «يجب أن يطلب من العلم ما يقوم
به دينه ، قيل له : مثل أي شيء؟ قال : الذي لا يسعه جهله ، صلاته وصيامه
ونحو ذلك»^(١) .

وأما القدر الزائد على ما يحتاج إليه المعين من فروض الكفايات ،
كتعلم المواريث وكيفية تغسيل الميت ، فإنه إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن
الباقيين * .

(١) الفروع لابن مفلح ١/٥٢٥ .

وهو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

(و) العلم الواجب علينا تعلمه (هو معرفة الله)، ومعنى معرفة الله: أن يعرف العبد ربه بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله ﷺ من أسمائه وصفاته وأفعاله.

معرفة
الله

ومعرفة الله أحد مهمات الدين، والجهل به سبحانه من التفريط في أمور الدين، قال ابن القيم - رحمه الله -: «وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته»^(١).

والإنسان لا يكون على الدين الحق إلا بالعلم بربه، ولهذا كان أساس دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، قال ابن القيم - رحمه الله -: «مفتاح الدعوة الإلهية، معرفة الربّ تعالى»^(٢). ومن سلك الطريق الموصل إليه تعالى، سلك طريق معرفته، وعلى قدر معرفة الله يكون تعظيم الربّ في القلب، ومن عرف الله أحبه، قال ابن القيم - رحمه الله -: «من عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، أحبه لا محالة»^(٣).

ومعرفة الله وإفراده بالعبادة، هو سبب السعادة في الدارين، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «اللذة والفرحة، والسرور وطيب الوقت، والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده والإيمان به»^(٤).

(و) من العلم الواجب على المكلف تعلمه (معرفة نبيه) محمد ﷺ، فإنه الوساطة بيننا وبين الله في تبليغ رسالة الله، ومعرفته تستلزم قبول وامتنال ما جاء به من عند الله، من الهدى ودين الحق.

معرفة
نبيه ﷺ

كما يجب على المكلف (معرفة دين الإسلام بالأدلة) من الكتاب والسنة، لأنه هو الدين الذي تعبد الله به الخلق، ومعرفته والعمل به سبب

معرفة
دين
الإسلام

(٢) الصواعق المرسلة ١/١٥١.

(٤) فتاوى شيخ الإسلام ٢٨/٣١.

(١) مدارج السالكين ٢/٤٩٥.

(٣) مدارج السالكين ٣/١٧.

.....

لدخول الجنة ، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار ، قال ابن القيم - رحمه الله - : «كمال الإنسان مداره على أصلين : معرفة الحق من الباطل ، وإيثار الحق على الباطل ، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله في الدنيا والآخرة ، إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين»^(١) .

ومعرفة الله ومعرفة نبيه ﷺ ومعرفة دين الإسلام ، أول ما يسأل عنها العبد في القبر ، كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعاً وفيه : «فيأتيه - أي : المؤمن - ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : وما دينك؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ» رواه أحمد^(٢) .

ومن كان يعرف هذه الأصول بأدلتها حري به أن يثبت عند سؤال الملكين في قبره ، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن بعض الناس يقول : «هاه ، هاه ، لا أدري» رواه أحمد^(٣) .

وإذا كان العامي يعتقد وحدانية الله ، ويعتقد بطلان ما يعبد من دون الله فهو مسلم ، وإن لم يعلم الدليل ، قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أباً بطين - رحمه الله - : «فرض على كل أحد ، معرفة التوحيد وأركان الإسلام بالدليل ، ولا يجوز التقليد في ذلك ، لكن العامي الذي لا يعرف الأدلة إذا كان يعتقد وحدانية الرب سبحانه ورسالة محمد ﷺ ويؤمن بالبعث بعد الموت ، والجنة والنار ، ويعتقد أن هذه الأمور الشركية التي تفعل عند هذه المشاهد باطلة وضلال ، فإذا كان يعتقد ذلك اعتقاداً جازماً لا شك فيه فهو مسلم ، وإن لم يترجم بالدليل ، لأن عامة المسلمين ولو لقنوا الدليل ، فإنهم لا يفهمون المعنى غالباً»^(٤) * .

(١) الجواب الكافي ص ٩٩ .

(٢) المسند رقم (١٨٥٥٧) ٤/٢٨٧ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

(٣) المسند رقم (١٨٥٥٧) ٤/٢٨٧ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

(٤) الدرر السنية ٤/٣٣٩ .

.....

والسعي في طلب العلم، لمعرفة الله ومعرفة نبيه ﷺ ومعرفة الدين، من أجل العبادات وأفضل من نوافلها، قال الزهري - رحمه الله -: «ما عبد الله بشيء أفضل من العلم»^(١).

وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: «طلب العلم أفضل الأعمال لمن صحت نيته»^(٢). والعلم هو الميراث النبوي ونور القلوب، وأهله هم أهل الله وحزبه، وأولى الناس به وأقربهم إليه، وأخشاهم له، وأرفعهم درجات.

وهو من أجل الأعمال، قال الإمام أحمد - رحمه الله -: «العلم لا يعدله شيء»^(٣)، وقال ابن القيم - رحمه الله -: «وهو - أي: العلم الشرعي - حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحّد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام، وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه»^(٤).

وحاجة الناس إلى العلم أشد من حاجتهم إلى المأكل والمشرب، قال الإمام أحمد - رحمه الله -: «الناس إلى العلم، أحوج منهم إلى الطعام

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/٣٦٥.

(٢) شرح منتهى الإرادات للبهوتي ١/٢٣٦.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/٤٥.

(٤) مدارج السالكين ٢/٤٦٩.

.....
والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين،
وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه»^(١).

وطلب العلم مفضل على الجهاد في سبيل الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما:
«الغدو والرواح في تعلم العلم، أفضل عند الله من الجهاد في سبيل الله
عزَّ وجل»^(٢).

وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: «تعلم العلم، وتعليمه أفضل من
الجهاد وغيره»^(٣). وقال الإمام أبو حنيفة ومالك - رحمهما الله -: «أفضل ما
تطوع به، العلم وتعليمه»^(٤). وقال ابن القيم - رحمه الله -: «لا يعدل مداد
العلماء، إلا دم الشهداء»^(٥) *.

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٧٠.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب رقم (٤٣٠٣) ٣/ ١٠٩.

(٣) الإنصاف للمرداوي ٢/ ١٦٢.

(٤) منهاج السنة ٦/ ٧٥.

(٥) الفروسية لابن القيم ص ١٥٧.

والعلم أفضل ما عمرت به الأوقات، وخير ما أنفقت فيه الأنفاس، وبذلت فيه المهج، قال النووي - رحمه الله - : «اتفق جماعات السلف على أن الاشتغال بالعلم، أفضل من الاشتغال بنوافل الصلاة، والصوم، والتسبيح، ونحو ذلك من أعمال البدن»^(١)، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

فَعَشْ بَعْلَمَ وَلَا تَبْغِي لَهُ بَدَلًا النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ^(٢)

ونصيحة العلماء هي التزود من العلم، قال ابن الجوزي - رحمه الله - : «وما أزال أحرص الناس على العلم؛ لأنه النور الذي يهتدى به»^(٣). والسعادة إنما هي في العلم قال ابن القيم - رحمه الله - : «السعادة كلها في العلم وما يقتضيه، والله يوفق من يشاء لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وُعُورَة طريقها، ومرارة مبادئها، وتعب تحصيلها، وأنها لا تنال إلا على جد من التعب، فإنها لا تحصل إلا بالجد المحض»^(٤)، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم التزود من العلم، فقال عز وجل: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ومن أراد الله به خيراً ففقهه في الدين، قال صلى الله عليه وسلم : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» متفق عليه^(٥).

ومن علم أن الدنيا دار سباق وتحصيل للفضائل، وأنه كلما علت مرتبته في العلم والعمل، زادت المرتبة في دار الجزاء، انتهب الزمان ولم يضيع منه لحظة، ولم يترك فضيلة تمكنه إلا حصلها، ومن وفق لهذا، فليبتكر زمانه بالعلم، وليصابر كل محنة وفقر، إلى أن يحصل له ما يريد، فالراحة لا تنال

(١) المجموع ٦/٤.

(٢) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ١٥١/٢.

(٣) أحكام النساء لابن الجوزي ص ٨.

(٤) مفتاح دار السعادة ١١١/١.

(٥) البخاري رقم (٧١) ٢٤/١، ومسلم رقم (١٠٣٧) ٧١٧/٢ من حديث معاوية رضي الله عنه.

بالراحة، قال الفضيل بن عياض - رحمه الله -:

اعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً فإنما الربح والخسران في العمل^(١)
وليكن مخلصاً في طلب العلم عاملاً به، حافظاً له، ومن فاته
الإخلاص، فذلك تضييع زمان وخسران جزاء، ومن فاته العمل به، فذاك
يقوي الحجة عليه والعقاب له .

العلم
الشرعي
هو
المدوح
في
النصوص

والمراد من العلم: العلم الشرعي الذي يفيد معرفته ما يجب على
المكلف من أمر دينه، الذي لا حياة له إلا به، إذ هو الجالب لخشية الله قال
سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ قال ابن القيم - رحمه الله -: «ولا
عبد الله وحده وحمده، وأثني عليه ومجده إلا بالعلم، ولا عرف فضل الإسلام
على غيره إلا بالعلم، ولا عرف الحلال من الحرام إلا بالعلم، ولا فضل
الإسلام على غيره إلا بالعلم»^(٢).

ولا دليل إلى الله والجنة، إلا الكتاب والسنة، ولا صلاح للعباد في
معاشهم ومعادهم، إلا بالعلم بالله، وفي الجهل والغفلة عن العلم، زوال
النعم وحلول النقم؛ قال ابن القيم - رحمه الله -: «فما خراب العالم إلا
بالجهل، ولا عمارته إلا بالعلم، وإذا ظهر العلم في بلد أو محلة قلَّ الشر في
أهلها، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر والفساد»^(٣)، فعلى العاقل أن لا يضيع
أوقات عمره وساعات دهره، إلا في طلب العلم النافع* .

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤٨/٤٥١ .

(٢) مفتاح دار السعادة ١/٣١٤ .

(٣) إعلام الموقعين ٢/٢٥٧ .

الثانية: العمل به .

المسألة
الثانية:
العمل
بالعلم

المسألة (الثانية) الواجب علينا تعلمها (العمل به) أي: بالعلم، إذ هو ثمرة العلم ومن أسباب رسوخه، قال بعض السلف: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به»^(١). ومن عمل بما علم حفظ الله عليه علمه وأثابه علماً آخر لا يعلمه، كما أن العمل به من أسباب زيادة الإيمان قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَّوْنَهُمْ﴾، قال الشوكاني رحمه الله: «زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة في الدين»^(٢)، والسعيد من حقق العلم والعمل قال النووي - رحمه الله -: «الحكمة: العلم المشتمل على المعرفة بالله، مع نفاذ البصيرة وتهذيب النفس. وتحقيق الحق للعمل به، والكف عن ضده. والحكيم من حاز ذلك»^(٣).

فإذا عمل الإنسان بعلمه بأن حافظ على فرائض الله، ولازم النوافل كالسنن الرواتب والوتر، وتلاوة القرآن والاستغفار بالأسحار، وألزم نفسه ساعة يجلسها في المسجد للذكر - وأحسن ما يكون بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس -، واجتنب مجالس اللغو والغفلة، وابتعد عن مجالس أهل الغيبة وساقط الكلام، وحفظ لسانه مما لا يعنيه، فقد تسبب للعمل بعلمه، ومن لم يعمل بما علم حرم لذة العلم والخشية، وأوشك الله أن يسلبه ما علم وكان في عداد الجاهلين قال الفضيل بن عياض - رحمه الله -: «لا يزال العالم جاهلاً حتى يعمل بعلمه، فإذا عمل به كان عالماً»^(٤). ومن لم يعمل بعلمه فعلمه حسرة عليه يوم الحساب، قال عليه الصلاة والسلام: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص ٩٠.

(٢) فتح القدير ٣٥/٥.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٣٣/٢.

(٤) تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر ٤٨/٤٢٧.

.....

ماله من أين اكتسبه وفيه أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» رواه الترمذي^(١).
والذي معه علم ولا يعمل به شر من الجاهل، وهو أحد الثلاثة الذين
تسعر بهم النار يوم القيامة^(٢)، وفي ذلك يقول ابن رسلان - رحمه الله -:
وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن^(٣)
ومن علم مسألة من المسائل قامت عليه الحجة فيها ولو لم يكن من
العلماء، قال عليه الصلاة والسلام: «والقرآن حجة لك أو عليك» رواه
مسلم^(٤). ومن عمل بلا علم فقد شابه النصارى، ومن علم ولم يعمل فقد
شابه اليهود، والعالم من عمل بعلمه وإن كان قليل العلم، ومقصود الشريعة
في تحصيل العلم هو العمل به، مما يجلب خشية الله ويقرب من الخالق*.

(١) سنن الترمذي رقم (٢٤١٧) ٤/٦١٢ من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) وهم المقاتل، ومتعلم العلم، والمنفق ماله، الذين لم يكن قصدهم وجه الله إنما قصدهم ثناء الناس عليهم كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه رقم (١٩٠٥) ٣/١٥١٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الزيد لابن رسلان ص ١.

(٤) صحيح مسلم رقم (٢٢٣) ١/٢٠٣ من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الظهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها».

الثالثة: الدعوة إليه .

المسألة
الثالثة:
الدعوة
إلى الله

المسألة (الثالثة) الواجب علينا تعلمها، والعمل بها: (الدعوة إليه) - جلّ وعلا -، وتعليم الناس، وإرشادهم، ونصيحتهم .

والدعوة إليه سبحانه من أجل الأعمال، وهي طريقة الرسل قال جلّ وعلا: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، قال ابن كثير - رحمه الله -: «يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن، أمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي: طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي»^(١).

وقول الداعية: أحسن الأقوال وأزكاها عند الله، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. والمسلم إذا عرف معبوده ونبيه ﷺ ودينه ومن الله عليه بالتوفيق لذلك، فإن عليه السعي إلى إنقاذ غيره بدعوته إلى الله تعالى، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «مقصود الدعوة النبوية، بل المقصود بخلق الخلق وإنزال الكتب وإرسال الرسل، أن يكون الدين كله لله، وهو دعوة الخلائق إلى خالقهم»^(٢).

وأعلى مراتب الدعوة: الدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك، فإنه ما من نبي بعث إلى قومه إلا ودعاهم إلى طاعة الله وإفراده بالعبادة، ونهاهم عن الشرك ووسائله وذرائعه، ثم يبدأ الداعية بعد ذلك بالأهم فالأهم من شرائع الإسلام، مصطحباً الحكمة معه في كل قول وعمل ممثلاً قول الله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ هِيَ أَحْسَنُ﴾ .

أعلى
مراتب
الدعوة

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧٦٦/٢.

(٢) الفتاوى ٤٦٤/٢.

ومن قام بالدعوة إلى الله مخلصاً لله متبعاً هدي النبي ﷺ كان من أتباع الرسل حقاً، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء، هم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى الله والرسول، فهؤلاء أتباع الرسول حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء، فأنبئت الكلاً والعشب الكثير، فزكت في نفسها وزكى الناس بها»^(١).

وأجور الداعي إلى الله متواصلة عبر الدهور، يقول النبي ﷺ : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» رواه مسلم^(٢). والسعي إلى هداية الخلق خير من زخرف الحياة يقول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» متفق عليه^(٣).

حاجة
الناس إلى
الدعوة

ومقصود الأنبياء إرشاد الناس إلى معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «فالعلماء وورثة الأنبياء عليهم بيان ما جاء به الرسول ﷺ ورد ما يخالفه»^(٤)، وحاجة العباد إلى الدعوة والبصيرة في الدين أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به ﷺ واتباعه منها إلى الطعام والشراب، فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا، وذاك إذا فات حصل العذاب»^(٥).

والدعوة ذات مجالات واسعة، فالتعليم وإرشاد العاصي وتنبه الغافل

(١) الفتاوى ٩٢/٤.

(٢) رقم (٢٦٧٤) ٢٠٦٠/٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري رقم (٢٧٨٣) ١٠٧٧/٣، ومسلم رقم (٢٤٠٦) ١٨٧٢/٤ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٤) الفتاوى ٣١٦/٢٧.

(٥) الفتاوى ٥/١.

.....

وإسداء النصيحة والتوجيه للخير، كل ذلك من الدعوة إلى الله، يقول النبي ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» رواه مسلم^(١)، ومن أعرض عن تعليم الآخرين وإرشادهم وتعليمهم أمر دينهم، فقد عرض نفسه للوعيد قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. قال ابن المبارك - رحمه الله -: «من بخل بالعلم ابتلي بثلاث: إما أن يموت فيذهب علمه، أو ينساه، أو يتبع السلطان - أي: إذا دعا إلى باطل -»^(٢).

فواجب على كل مسلم الدعوة إلى الله، ونصح المقصر، والسعي إلى إصلاح المجتمع كل بحسبه* .

(١) رقم (١٨٩٣) ٣/١٥٠٦ من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه .

(٢) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي رقم (٥٨٦) ص ٣٥٠.

الرابعة: الصبر على الأذى فيه .

المسألة
الرابعة:
الصبر
على أذى
الناس في
الدعوة

المسألة: (الرابعة) من المسائل الواجب علينا معرفتها والعمل بها (الصبر على الأذى فيه) أي: في جنب الله عزّ وجل .

فإن ميدان الداعية صدور الرجال وهي متباينة ومختلفة كاختلاف صورهم وأشكالهم، ومن قام بدين الإسلام، ودعا الناس إليه، فقد تحمّل أمراً عظيماً وقام مقام الرسل في الدعوة إلى الله، والداعي يحول بين الناس وبين شهواتهم وأهوائهم واعتقاداتهم الباطلة، وقد يؤذونه فعليه أن يصبر ويحتسب، قال الإمام مالك - رحمه الله -: «لا تغبطوا أحداً لم يصبه في هذا الأمر بلاء»^(١).

والصبر: ثبات القلب عند موارد الاضطراب، والدين كله يحتاج إلى صبر، وأصل هذه الكلمة هو: المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوها، وأما حقيقته: فهو خلق فاضل يمنع من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «لا ينال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر»^(٢). وبالصبر واليقين اللذين هما أصل التوكل تُنال الإمامة في الدين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «فمن أعطي الصبر واليقين جعله الله إماماً في الدين»^(٣).

كيف تنال
الإمامة في
الدين؟

فكن سائراً في الدعوة إلى دين الله وإن أوذيت فأذية الداعي إلى الخير من طبيعة البشر، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾، والرسل أوذوا بالقول والفعل، قال الله

(١) الفتاوى ٥٠/٤ .

(٢) الفتاوى ٤٠/١٠ .

(٣) الفتاوى ٢١٥/٦ .

عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَهَزَيْ رِيسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، بل إن منهم من تعرض للقتل، قال سبحانه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، ومن قام بما قام به الرسل ناله ما نالهم، قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، وبالصبر مع التقوى لا يضر كيد العدو قال تعالى: ﴿وَإِن تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

ولا مناص من ابتلاء الداعية إلى الله «سأل رجل الشافعي فقال: يا أبا عبد الله أيهما أفضل للرجل أن يمكَّن أو يبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكَّن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمداً، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكَّنهم فلا يظن أحداً أن يخلص من الألم البتة»^(١).

ومن اعتاد الصبر هابه عدوه، ومن عزَّ عليه الصبر طمع فيه عدوه. فليوطن المسلم نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله، فإنه من وثق بالثواب لم يضره مس الأذى، والمؤمن همَّته فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، والإنسان إذا لم يصبر وقع فيما حرم الله عليه أو ترك ما أوجب الله عليه*.

(١) الفوائد ص ٤٠٧.

والصبر من أهم المهمات لمن علم فعمل فدعا، فإن لم يصبر استخفه الذين لا يوقنون قال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، وقد أمر الله الرسل بالتحلي بالصبر قال جلّ وعلا: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾، ومن الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس، ومن أسباب الفلاح الصبر على تعليم الآخرين، وبذل المجهود في الإخلاص لنفعمهم، وكلما قويت الأذية قرب النصر، قال عليه الصلاة والسلام: «وإن النصر مع الصبر» رواه أحمد^(١). قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر مطية لا تكبو، والقناعة سيف لا ينبو»^(٢).

وليس النصر مختصاً بأن ينصر الإنسان في حياته ويرى أثر دعوته قد تحقق؛ بل النصر يكون ولو بعد موته بأن يجعل الله في قلوب الخلق قبولاً لما دعا إليه، وأخذاً وتمسكاً به، والصابر ظافر بعز الدنيا والآخرة؛ لأنه نال من الله معيته قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، قال ابن القيم - رحمه الله -: «يثقل الميزان باتباع الحق والصبر عليه، وبذله إذا سئل، وأخذه إذا بذل»^(٣).

والفلاح معلق بالصبر والتقوى، قال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقد بشر الله الصابرين بثلاث كل منها خير مما يتنافس عليه أهل الدنيا قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾،

(١) المسند رقم (٢٨٠٤) ٣٠٧/١ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) محاضرات الأدباء لأبي القاسم الأصبهاني ٥٢٤/٢.

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٧٨.

.....
والفوز بالجنة لا يحظى به إلا الصابرون قال عز وجل: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

وتحقيق هذه المسائل الأربع - العلم والعمل به والدعوة إليه والصبر - من أعظم مجاهدة النفس لإصلاحها وصلاح غيرها، قال ابن القيم - رحمه الله -: «جهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق، الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.
الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيانات ولا ينفعه علمه ولا ينجيهِ من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين»^(١) *.

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/١٠.

والدليل قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا

دليل
المسائل
الأربع

(والدليل) على أنه يجب علينا تعلم الأربع مسائل وهي العلم والعمل به
والدعوة إليه والصبر على الأذى فيه .

(قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم) أتى بالبسملة مستفتحاً بها
السورة .

﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم تعالى بالعصر، وهو الدهر الذي هو زمن تحصيل
الأرباح والأعمال الصالحة للمؤمنين، وزمن الشقاء للمعرضين، لأنه وعاء
يودع فيه العباد أعمالهم، ولما فيه من العبر والعجائب، والله سبحانه وتعالى له
أن يقسم بما شاء من خلقه، وهو سبحانه الصادق وإن لم يقسم ولكنه أقسم
لتأكيد المقام .

﴿إِنَّكَ الْإِنْسَانُ﴾ أي: جنس الإنسان في هذه الحياة .

﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أي: في خسران وهلاك ونقصان، والخاسر: ضد
الرابح، والخسران مراتب متعددة متفاوتة، فقد يكون خساراً مطلقاً كحال من
خسر الدنيا والآخرة وفاته النعيم واستحق الجحيم، وقد يكون خساراً من
بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسران لكل إنسان .

﴿إِلَّا﴾ من استثنى الله في هذه السورة ممن اتصف بأربع صفات،
وهي الإيمان بالله حيث قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فوقر الإيمان في
قلوبهم، ولا يكون الإيمان بدون العلم فهو فرع منه لا يتم إلا به .

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم أكثرين منها مصطحبين فيها
الإخلاص مقتفين هدي النبي ﷺ، وهذا شامل لأفعال الخير كلها الظاهرة
والباطنة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة .

﴿وتَوَاصَوْا﴾ أي: أمر ووصى وحض بعضهم بعضاً .

بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿١﴾ .

﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضاً بذلك ويحثه عليه ويرغبه فيه .

﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أي: ذكّر بعضهم بعضاً ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على المصائب والأقدار وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، فصبروا على ما نالهم من أذى، وصبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله .

ومن قام بهذه الخصال فقد جانب الخسران، وكان من عباد الله المفلحين، فبالأميرين الأولين وهما الإيمان والعمل الصالح يكمل العبد نفسه، وبالأميرين الأخيرين وهما التواصي بالحق والصبر يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد قد سلم من الخسار وفاز بالربح العظيم .

والدين كله إيمان وعمل ودعوة وصبر، قال ابن القيم - رحمه الله - :
«السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السموات»^(١) * .

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ١٠ .

قال الشافعي - رحمه الله - : «لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم» .

منزلة
سورة
العصر

فسورة العصر تنبيه على أن جنس الإنسان كله في خسارة إلا من استثنى الله وهو من كَمَل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بالطاعات، فهذا كماله في نفسه، ثم كَمَل غيره بوصيته له بذلك وأمره به، وملاك ذلك الصبر وهذا غاية الكمال، قال ابن القيم - رحمه الله - : «قالت العقلاء قاطبة: النعيم لا يدرك بالنعيم، والراحة لا تنال بالراحة، وأن من آثر اللذات فاتته اللذات»^(١).

والعاقل البصير إذا سمع هذه السورة أو قرأها سعى إلى تخليص نفسه من الخسران وذلك باتصافه بهذه الصفات الأربع، فهي سورة عظيمة جمعت أربع قواعد يَسِيرُ عليها المسلم في حياته .

(قال) الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس (الشافعي - رحمه الله -)^(٢) عن هذه السورة :

(لو ما أنزل الله) من القرآن (حجة) وإعذاراً وإنداراً وبرهاناً (على خلقه) المكلفين (إلا هذه السورة) العظيمة الجامعة (لكفتهم)^(٣) في إلزامهم بالتمسك بالدين، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، والصبر على ذلك، فتضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني، قال ابن القيم - رحمه الله - : «الكمال: أن يكون الشخص كاملاً في نفسه، مكَمَّلاً لغيره، فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره»^(٤).

(١) شفاء العليل ص ٢٥٠. (٢) المتوفى سنة ٢٠٤ هـ.

(٣) ذكر ابن كثير في تفسيره: ٦٣/١ عن الشافعي نحوه بلفظ «لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم». وذكره ابن القيم في التبيين ص ٥٣ وفي مفتاح دار السعادة ٥٨/١، وفي الاستقامة ٢/٢٥٩، وفي عدة الصابرين ص ٦٠ عن الشافعي أيضاً بلفظ «لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم».

(٤) مفتاح دار السعادة ٥٨/١.

وقال البخاري - رحمه الله تعالى - : «بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ،
والدليل قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ ﴾ ، فبدأ
بالعلم» قبل القول والعمل .

فهذه السورة من المبشرات المنذرات للعبد، فليقف العبد عندها وليزن
بها نفسه، قال ابن رجب - رحمه الله - : « هذه السورة ميزان للأعمال يزن
المؤمن بها نفسه، فيبين له بها ربحه من خسارته»^(١) . فهي سورة حقيقة بأن
يقال فيها ما قاله الأئمة عنها لعظيم شأنها .

(و) لأهمية طلب العلم قبل العمل لئلا يعبد الإنسان ربه على ضلالة ،
(قال) الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (البخاري - رحمه الله تعالى -)^(٢)
في صحيحه^(٣) :

العلم
قبل
العمل

(بَابُ) أَي : هذا بَابٌ فِيهِ أَنَّ (العلم) الشرعي وطلبه (قبل القول) دعوة
إليه، وقبل (العمل) به .

(والدليل) على هذه المسألة (قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ ﴾) أيها الرسول ﴿ أَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ معبودٌ بحق ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وحده لا شريك له ، ﴿ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ ﴾)
بسؤال المغفرة وفعل أسبابها .

قال البخاري - رحمه الله - : (ف) في هذه الآية (بدأ) الله (بالعلم) ، قال
المصنف - رحمه الله - : وذلك (قبل القول والعمل) ، فإذا علم عمل على
بصيرة وهدى ، وكل عمل لا يقوده العلم فهو ضرر على صاحبه ، قال ابن
القيم - رحمه الله - : «العلم إمام العمل وقائد له ، والعمل تابع له ومؤتم به ،
فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به ، فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة

(١) لطائف المعارف ص ٣١٣ .

(٢) المتوفى سنة ٢٥٦ هـ .

(٣) صحيح البخاري كتاب العلم ، باب العلم قبل القول والعمل رقم (٥) ٣٧ / ١ .

.....
.....
عليه، كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح^(١).

فمرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل، والعلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتد بهما إلا به، فهو مقدم عليهما، لأنه مصحح النية المصححة للعمل*.

(١) مفتاح دار السعادة ١/٨٥.

اعلم^(١) رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه
المسائل والعمل بهن :

الأولى : أن الله خلقنا ورزقنا

لما فرغ المصنف - رحمه الله - من ذكر أربع مسائل يجب علينا تعلمها،
أُتِبت بثلاث مسائل للمصنف يجب علينا تعلمها والعمل بها، قال فيها:
(اعلم رحمك الله) أي: أدعو لك بأن يرحمك الله وينزل عليك من
فضله، وأطلب منك أن تعلم يقيناً.

(أنه يجب) وجوباً عينياً (على كل مسلم) مكلف ذكر، وعلى كل
(مسلمة) مكلفة (تعلم) واعتقاد (ثلاث هذه المسائل):

ثلاث
مسائل
يجب
تعلمها
والعمل بها

الأولى: في توحيد الربوبية، والثانية: في توحيد الألوهية، والثالثة: في
الولاء والبراء، قال عنها المصنف - رحمه الله -: «وهذا هو حقيقة دين
الإسلام، ولكن قف عند هذه الألفاظ، واطلب ما تضمنت من العلم والعمل،
ولا يمكن في العلم إلا أنك تقف على كل مسمى منها»^(٢).

(والعمل بهن) وبما دللن عليه؛ لأنهن قاعدة الدين وأساس الاعتقاد.

المسألة (الأولى) في توحيد الربوبية، وهي من المسائل الثلاث الواجب
علينا تعلمها وهي (أن الله) عزَّ وجل (خلقنا) من عدم كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنِ
عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾، ثم صورنا أحسن صورة كما قال
جلَّ وعلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

المسألة
الأولى: في
توحيد
الربوبية

(ورزقنا) النعم، فلم يتركنا سبحانه عراة أو جياً، بل رزق كل مخلوق
وتكفل بذلك، قال عزَّ وجل: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾،

(١) هذه هي الرسالة الثانية من الرسائل الثلاث التي سبقت ثلاثة الأصول.

(٢) الدرر السنينة ١/١١٧.

ولم يتركنا هملاً، بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار،

فسبحانه أوجدنا من العدم ورزقنا النعم لنعبده وحده، قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ .

(ولم يتركنا هملاً) سدى مهملين، لا نؤمر ولا نهى قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾، ولم يتركنا سبحانه حيارى لا نعلم الحق؟ ولا أين هو؟ وكيف نصل إليه؟ وكيف نتحصل عليه؟

(بل أرسل إلينا رسولاً) معه الحق سهلاً ميسراً يهدي إليه، لنستقيم على ما فيه من الهدى، ونعمل بما فيه من الأوامر.

(فمن أطاعه دخل الجنة)؛ لأن طاعته طاعة لله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

وأفضل الخلق وأعلاهم وأقربهم إلى الله، أتمهم لله عبودية، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «الكَمال في كمال طاعة الله ورسوله ﷺ باطنياً وظاهراً»^(١)، فالغاية من إرسال الرسل طاعتهم واتباعهم فيما جاؤوا به من عند الله تعالى .

(و) شقاء المخلوق في عصيان الرسول ﷺ؛ لأن (من عصاه دخل النار)، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي، فقيل: ومن

(١) الفتاوى ١٠/٥٤٦.

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ .

يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى» رواه البخاري^(١).

(والدليل) على التحذير من عصيانه (قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾) يا أمة محمد (﴿رَسُولًا﴾) وهو خاتم المرسلين محمد ﷺ (﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾) بأعمالكم (﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾) موسى ﷺ - كليم الرحمن - (﴿إِلَى﴾) الطاغية (﴿فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾) من أفضل الرسل، (﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾) الذي أرسل إليه وإلى قومه وهو موسى ﷺ (﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾) أي: فرعون (﴿أَخْذًا وَبِيلاً﴾) أي: شديداً، وذلك بإغراقه وجنوده في البحر فلم يفلت منهم أحد، ثم بعد ذلك في عذاب القبر إلى يوم القيامة، ثم عذاب النار قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: في القبر، يعذبون بها ﴿عُدْوًا﴾، أي: أول النهار، ﴿وَعَشِيًّا﴾، أي: آخره ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، فهذه عاقبة العاصين للرسول، وجزاء المخالفين لأمرهم.

فلتحذر أمة محمد ﷺ من تكذيب رسولها، فيصيبها ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، قال ابن كثير - رحمه الله -: «وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم رسولكم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران»^(٢).

فالخير في طاعة الرسل، والبؤس في عصيانهم قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «الإيمان بالله ورسوله، هو جماع السعادة وأصلها»^(٣).

(١) رقم (٦٨٥١) / ٦ / ٢٦٥٥ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٢) تفسير القرآن لابن كثير ٣٩٥ / ٤ . (٣) الفتاوى ١٩٣ / ٢٠ .

الثانية: أَنْ الله لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته، لا مَلَكٌ مقرب، ولا نبي مرسل،

ولكون المسألة الأولى في توحيد الربوبية، ولأن توحيد الربوبية دال على توحيد الألوهية ومستلزم له، ذكر تحقيق ذلك في المسألة (الثانية) وهي في توحيد الألوهية، وهي من المسائل الثلاث الواجب علينا تعلمها ومعرفتها واعتقادها، فكما أنه الخالق الرازق الذي خلقك وأعطاك النعم فاعلم (أَنَّ الله لا يرضى) بل يمقت أشد المقت (أن يُشرك) ويساوى (معه) أي (أحد) به في عبادته وطاعته (لا مَلَكٌ) من الملائكة (مقرب) عنده، (ولا نبي مرسل) من البشر أرسله، فضلاً عن غيرهم من سائر المخلوقات؛ لأنهم لا يستحقون العبادة، قال ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويكره لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال» رواه مسلم^(١)، وأخبر تعالى أنه لا يرضى لعباده الكفر قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وأخبر أنه يرضى لعباده الإسلام، وهو عبادة الله مخلصاً له الدين قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

فإذا لم يرض سبحانه بعبادة من كان قريباً منه، كالملائكة، أو الأنبياء والمرسلين، وهم أفضل الخلق، فغيرهم بطريق الأولى؛ لأن العبادة لا تصلح إلا لله وحده، فكما أنه المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، فهو المستحق للعبادة وحده دون من سواه، فالمسلم يجمع بين أمرين، يؤمن بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، ويؤمن بأنه سبحانه هو المستحق وحده للعبادة، من ذبح وصلاة ونذر وحلف وغيرها، وأن عبادة من سوى الله باطلة.

(١) رقم (١٧١٥) ٣/ ١٣٤٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والدليل قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ .

(والدليل) على أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته كائناً من كان (قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ﴾) أي : أماكن الصلوات أو أعضاء السجود ﴿لِلَّهِ﴾ لا لأحد سواه، ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ﴾ لا تسجدوا فيها ولا بها لغيره ﴿أَحَدًا﴾ لا ملكاً من الملائكة، ولا نبياً، ولا ولياً، ولا غيرهم، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة، فدعائهم من دون الله هو الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر إلا بالتوبة منه قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فهو سبحانه المتفرد بالوحدانية، وهو القاهر فوق عباده القوي المتين، لا يرضى أن تصرف العبادة لغيره، أو أن يجعل المخلوق الضعيف شريكاً له في العبادة* .

الثالثة: أن من أطاع الرسول ووجد الله لا يجوز له موالاته من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، والدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ

المسألة
الثالثة: في
الولاء
والبراء

المسألة (الثالثة) في الولاء والبراء، وهي من المسائل التي يجب على المكلف معرفتها، واعتقادها، والعمل بها وذلك (أن من أطاع الرسول) فيما أمر به، واجتنب ما نهى عنه (ووجد الله) في عبادته لا يوالي من حاد الله، وهذا فيه شحذ الهمم للعمل بهذه المسألة وفق النصوص الشرعية، فكأنه يقول لك: أنت وحدت ربك وعبدته دون سواه وأطعت رسوله ﷺ فاعمل بهذه المسألة العظيمة، وهي أنه (لا يجوز له) أي: للموحد المطيع للرسول ﷺ (موالاته) ومحبة (من حاد) وعادى (الله ورسوله) بل يجب عليه أن يقاتعهم ويعاديهم (ولو كان) من حاد الله ورسوله (أقرب قريب) سواء كان أباك، أو ابنك أو أخاك، فإن الله قطع التواصل والتواد، والقرب حقيقة إنما هو قرب الدين لا قرب النسب، فالمسلم ولو كان بعيد الدار فهو أخوك في الله، والكافر ولو كان أخاك في النسب فهو عدوك في الدين.

دليل
الولاء
والبراء

(والدليل) على أنه لا تجوز موالاته من حاد الله ورسوله (قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ﴾ يا أيها النبي ﴿قَوْمًا﴾ أي: طائفة، والحكم أيضاً يسري على الأفراد ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إيماناً حقيقياً ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وبما أعد الله فيه من الثواب والعقاب.

﴿يُوَادُّونَ﴾ يوالون ويحبون ﴿مَنْ حَادَّ﴾ أي: عادى ﴿اللَّهِ وَرَسُولَهُ﴾ بالكفر والعصيان، أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا إذا كان عاملاً بمقتضى إيمانه ولوازمه، ومن ذلك محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته.

﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ هؤلاء ﴿أَبَاءَهُمْ﴾ الذين أخرجهم الله من

أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ
وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

أصلا بهم، ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الذين هم هبة من الله لأبائهم، ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾
في النسب، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ الأقربين منهم.
﴿أُولَئِكَ﴾ الذين حققوا الولاء والبراء.

﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: أوجد في قلوبهم الإيمان وثبته فلا
يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك، فهي موقنة مخلصه.

﴿وَأَيَّدَهُمْ﴾ الله وقواهم ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: بوحيه ومدده الإلهي،
وإحسانه الرباني، وكتب لهم السعادة، وزين الإيمان في بصائرهم، وسمى الله
نصره إياهم روحاً، لأنه به حياتهم.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾ في دار القرار، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن
سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ زيادة في
نعيمهم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ منعمين أبد الآباد.

وزادهم بأن ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فأحل عليهم رضوانه، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾
وأحبوه وشكروا إنعامه وأفضاله، فإنهم لما أسخطوا القرائب والعشائر في الله،
عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم،
والفوز العظيم.

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي: عباد الله وأهل كرامته، وأولياؤه المقربون،
وأنصاره في أرضه.

﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالظفر والسعادة في الدنيا
والآخرة.

فمن حقق البراء فقد أخبر الله أنه يجازيه بأمور:

- ١ - جمع الإيمان في قلبه وثباته فيه ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ .
 - ٢ - تأييد الله له بالنور والهدى ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ ، وسماه روحاً ، لأنه سبب الحياة الطيبة . وهذا الأمر مع الذي قبله من الثواب في الدنيا .
 - ٣ - دخول الجنة ﴿وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ .
 - ٤ - رضا الرب سبحانه عنه ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ، وهذا من الزيادة في النعيم كما قال تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ .
 - ٥ - رضا العبد في الآخرة بدخوله الجنة وما فيها من الكرامة ﴿وَرِضْوَانٌ عَنْهُ﴾ .
 - ٦ - إكرام الله لهم ، بأن جعلهم من خاصته وحزبه المفلحين ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .
- قال في تيسير الكريم الرحمن : «وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر وهو مع ذلك مواد لأعداء الله ، محب لمن نبذ الإيمان وراء ظهره ، فإن هذا الإيمان زعمي لا حقيقة له ، فإن كل أمر لا بد له من برهان تصدقه ، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها»^(١) .*

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٧٨٧ .

والولاء والبراء أصل عظيم من أصول الدين قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -: «لا يستقيم للإنسان إسلام ولو وحد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء»^(١). وهو معنى كلمة التوحيد، وهو من الإسلام الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «والبراءة ضد الولاية، وأصل البراءة البغض، وأصل الولاية الحب، وهذا لأن حقيقة التوحيد أن لا يحب إلا الله ويحب ما يحبه الله الله، فلا يحب إلا الله، ولا يبغض إلا الله»^(٢).

والمسلم يحب من يحب الله ويعادي من عاداه الله، والله يبغض الكافر قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، والكافر عدو لله وللمؤمنين، قال سبحانه: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾، والولاء والبراء من تمام محبة الله، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «من تمام محبة الله ورسوله، بغض من حاد الله ورسوله، والجهاد في سبيله»^(٣).

وإذا قوي الإيمان في القلب قوي جانب الولاء للمؤمنين والبراءة من الكافرين، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «إذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله، أوجب بغض أعداء الله»^(٤)، وإذا أخل العبد بجانب الولاء والبراء استحق العقاب قال سبحانه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾، أي: أصدقاء وأحاباً ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «والموادة من

(١) الدرر السنية ٨/ ٣٣١.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٤٦٥.

(٣) الفتاوى ٨/ ٣٦١.

(٤) الفتاوى ٧/ ٥٢٢.

أعمال القلوب، فإن الإيمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله، وذلك يناقض
مادة من حاد الله ورسوله، وما ناقض الإيمان فإنه يستلزم الدم والعقاب،
لأجل عدم الإيمان»^(١).

والإعراض عن المشركين بالجسد لا يكفي في البراء، بل يجب مع
ذلك البغض بالقلب، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «براءة الخليل من قومه
المشركين ومعبودهم ليست تركاً محضاً، بل صادراً عن بغض وعداوة»^(٢).

ومع بغضهم وعداوتهم والبراءة منهم ومن معبوداتهم، فإن الإسلام
حرم قتل الكافر المعصوم، وهو الذمي والمعاهد والمستأمن^(٣) وحرم سلب
ماله، أو ظلمه، أو الاعتداء عليه، قال النبي ﷺ : «من قتل معاهداً، لم يرح
رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً» رواه البخاري^(٤). بل
يجب مع بغضه دعوته إلى الله بالحكمة والبصيرة، كما فعل النبي ﷺ مع
المشركين، ودين الإسلام وسط في معتقد الولاء والبراء، لا إفراط فيه بقتل
الكفار المعصومين، ولا تفريط فيه بالموالاة المحرمة أو التولي المخرج من
الملة، ويجب على المسلم أن يكون عدلاً في أداء تلك العبادة العظيمة بين
الإفراط والتفريط، وأن يكون عمله بها منوطاً بالعلم بها على ضوء ما جاءت
به الشريعة* .

(١) الفتاوى ١٠/٧٥٣.

(٢) الفتاوى ١٤/٢٢٤.

(٣) الذمي: هو الكافر الذي أقر في دار الإسلام على كفره بالتزام الجزية ونفوذ أحكام الإسلام فيه.

والمعاهد: هو الرجل من أهل الحرب يدخل إلى دار الإسلام بأمان.

والمستأمن: هو الكافر يدخل ديار المسلمين بأمان.

مجمع الأنهر ١/٦٥٥، رد المحتار ١/١٦٦، نيل الأوطار ٧/١٨، غذاء الألباب في شرح منظومة

الآداب ١/٢٣٨.

(٤) رقم (٣١٦٦) ٢/٤٠٩ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

واعلم أن الولاء والبراء مع المشركين ينقسم إلى قسمين :

١ - التولي، ومعناه: محبة الشرك وأهله، أو نصرته الكفار على المؤمنين، أو الفرح بذلك، أو مظاهرتهم ومعونتهم على المسلمين، وهذا كفر أكبر قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، قال البغوي - رحمه الله -: «إيمان المؤمن يفسد بموادة الكفار»^(١). وقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - أن هذا من نواقض الإسلام قال - رحمه الله -: «الثامن - أي: من نواقض الإسلام - مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾»^(٢).

٢ - الموالاتة وهي: الموادة والصدقة، ضد المعاداة والمحاداة، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «فإن الولاية ضد العداوة، والولاية تتضمن المحبة والموافقة، والعداوة تتضمن البغض والمخالفة»^(٣).

وضابطها: أن تكون محبة أهل الشرك لأجل الدنيا، ولا تكون معها نصرته، وهذا كبيرة من الكبائر، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾. قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة، فتكون ذنباً ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافراً كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة»^(٤).

والفرق بين التولي والموالاتة: أن التولي كفر أكبر يخرج من الملة، والموالاتة كبيرة من كبائر الذنوب، وقد سئل الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف

(١) تفسير البغوي ٤/٣١٢.

(٢) رسالة نواقض الإسلام للشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - .

(٣) الفتاوى ٥/٥١٠.

(٤) الفتاوى ٧/٥٢٣.

.....

- رحمه الله -^(١) عن الفرق بين الموالاة والتولي؟ فأجاب: «التولي كفر يخرج من الملة، وهو كالذب عنهم وإعانتهم بالمال والبدن والرأي، والموالاة كبيرة من كبائر الذنوب، كبلِّ الدواة^(٢)، أو بري القلم، أو التبشش لهم، أو رفع السوط لهم»^(٣) * .

(١) هو عم الشيخ محمد بن إبراهيم ومفتي الديار في زمانه .

(٢) الدواة هي المحبرة .

(٣) الدرر السنية ٨ / ٤٢٢ .

وللموالاته والتولي صور عديدة ذكرها الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - بقوله: «قد نهى الله سبحانه عن موالاته الكفار وشدد في ذلك، وأخبر أن من تولاهم فهو منهم، وكذلك جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ وأخبر النبي ﷺ أن «من أحب قوماً حشر معهم» رواه الحاكم والبيهقي^(١)، ويفهم مما ذكرنا من الكتاب والسنة والآثار عن السلف^(٢) أمور من فعلها دخل في تلك الآيات، وتعرض للوعيد بمسيس النار، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه: (أحدها) التولي العام، (الثاني) المودة والمحبة الخاصة، (الثالث) الركون القليل قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٦) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴿، فإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق صلوات الله وسلامه عليه فكيف بغيره؟!، (الرابع) مداهنتهم ومداراتهم قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، (الخامس) طاعتهم فيما يتولون وفيما يشيرون كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قَرْطًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، (السادس) تقريبتهم في الجلوس والدخول على أمراء الإسلام، (السابع) مشاورتهم في الأمور، (الثامن) استعمالهم في أمر من أمور المسلمين، أي أمر كان، إمارة أو عمالة أو كتابة، أو غير ذلك، (التاسع) اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، (العاشر) مجالستهم ومزاورتهم والدخول عليهم، (الحادي عشر) البشاشة لهم والطلاقة، (الثاني عشر) الإكرام العام، (الثالث عشر) استئمانهم وقد خونهم الله، (الرابع عشر) معاونتهم في أمورهم ولو بشيء قليل، كبري القلم،

(١) المستدرک رقم (٤٢٩٤) ١٨/٣، والسنن الكبرى رقم (١٨٦٤٢) ٩/٢٣٤ من حديث علي بن أبي

طالب وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) ذكر ذلك مفصلاً في أول رسالته هذه.

وتقريب الدواة، ليكتبوا ظلمهم، (الخامس عشر) مناصحتهم^(١)، (السادس عشر) اتباع أهوائهم، (السابع عشر) مصاحبتهم ومعاشرتهم، (الثامن عشر) الرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزوي بزيتهم، (التاسع عشر) ذكر ما فيه تعظيم لهم كتسميتهم سادات وحكماء، كما يقال للطواغيت: السيد فلان، أو يقال لمن يدعي علم الطب «الحكيم» ونحو ذلك، (العشرون) السكنى معهم في ديارهم كما قال ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» رواه أبو داود^(٢)، إذا تبين هذا، فلا فرق في هذه الأمور بين أن يفعلها مع أقربائه منهم، أو مع غيرهم، كما في آية المجادلة^(٣).

والتشبه بهم في الظاهر يورث مودتهم ومحبتهم في الباطن، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة»^(٤).

والكافر يعامل معاملة ظاهرة بدون ميل ومحبة في القلب أو تشبه في الظاهر، فالإيمان الواجب يوجب معادة من حاد الله ورسوله، كما أنه يستلزم محبة من يحب الله ورسوله وموالاتهم، فمن والى الكافرين فقد ترك واجباً من واجبات الإيمان، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «لا بد في الإيمان من

(١) أي: استشارتهم.

(٢) سنن أبي داود رقم (٢٧٨٧) ٣/٩٣ من حديث سمرة، عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: أما بعد قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» وروى أبو داود أيضاً من حديث جرير ابن عبد الله رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود فأسرع فيهم القتل قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل وقال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: لا تراءى نارهما». سنن أبي داود رقم (٢٦٤٥) ٣/٤٥.

(٣) الدرر السننية ١٥٤/٨.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٢١.

محبة القلب لله ولرسوله، ومن بغض من يحاد الله ورسوله»^(١).

وكما أن الكفار يجب بغضهم فكذلك الفاسق يبغض لفسقه، ولكن يُعطى من الموالاتة بقدر إيمانه، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «والواجب موالاتة أولياء الله المتقين من جميع الأصناف، وبغض الكفار والمنافقين من جميع الأصناف، والفاسق المَلِي يُعطى من الموالاتة بقدر إيمانه، ويعطى من المعاداة بقدر فسقه»^(٢).

فالواجب على المؤمن معاداة من حادَّ الله ورسوله وبُغِضَهُ ولكن هذا لا يمنع نصيحته ودعوته إلى الحق، فالمؤمن يحب أولياء الله ويتعاون معهم على الخير، ويكره أعداء الله ويبغضهم ويعاديهم في الله حتى وهو يدعوهم إلى الله، ومن عادى في الله من يبغضه الله، عوضه الله مودة عظيمة لغيره، فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما اعتزل أباه وقومه لكفرهم، أقر الله عينه بإسماعيل ومن ثم إسحاق، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا من سلالته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَتْهُمُ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾* .

(١) الفتاوى ١٤٧/٧ .

(٢) الفتاوى ٥٧٨/٢٨ .

اعلم^(١) أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية، ملة إبراهيم

قال المصنف - رحمه الله -: (اعلم أرشدك الله) وهداك ووفقك (لطاقته)، والدعاء بالرشاد إلى الطاعة هو من خير الأدعية وأجمعها، وقد قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا علي «قل: اللهم اهْدني وسدْدي، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، والسداد سداد السهم» رواه مسلم^(٢). وإذا نال العبد طاعة الله نال الخير كله.

ما هي
الحنيفية؟

ولكي تظفر بالخير اعلم (أن الحنيفية) هي إفراد الله بالعبادة بأن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين، فلا تصرف أي نوع من أنواع العبادة إلا لله وحده، فمن فعل ذلك فهو المسلم الحنيف المقتفي أثر المرسلين.

والحنيف: مشتق من الحنف وهو الميل، فالحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً إلى التوحيد، والحنيف المستقيم المستمسك بالإسلام، المقبل على الله، المعرض عن كل ما سواه، وكل من كان على دين إبراهيم ﷺ فهو حنيف، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «فالدين الحنيف، هو الإقبال على الله وحده، والإعراض عمّا سواه»^(٣).

والحنيفية: هي (ملة) إمام الحنفاء (إبراهيم) ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهي أيضاً ملة ودين جميع المرسلين قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يأت نبي بعد إبراهيم ﷺ إلا من نسله، لذا قال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ فهو أبو الأنبياء ﷺ، ودين جميع الأنبياء هو الإسلام قال عز وجل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، وكل دين سوى الإسلام فهو

(١) هذه الرسالة الثالثة من الرسائل الثلاث التي سبقت ثلاثة الأصول.

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٧٢٥) / ٤ / ٢٠٩٠.

(٣) الفتاوى ٣١٩/٩.

أن تعبد الله مخلصاً له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ومعنى يعبدون: يوحدون.

باطل قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

ودين الحنفاء (أن تعبد الله) وتوحده (مخلصاً) أي: مفرداً (له) القصد في (الدين) أي: العبادة، ومتبرئاً من عبادة من سواه ومعتقداً بطلانها، وبذلك أمر الأنبياء، قال الله لنبينا محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾، وأمر به جميع الناس قال جلّ وعلا: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.

ولا صلاح للنفس في دنياها وآخرتها إلا بالتوحيد والإخلاص، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «ولا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أضر عليه من الإشراك»^(١).

(وبذلك) أي: بالعبادة الخالصة لله (أمر الله جميع الناس) من ذكر وأنثى (وخلقهم لها) أي: للحنيفية ملة إبراهيم، وهي الأمر بإخلاص العبادة لله وحده (كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾) أي: إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم، (ومعنى يعبدون) أي: (يوحدون) بأن يوحدوا ويفردوا قصد القلب في الأعمال لله.

الأمر
الواجب
على
جميع
الناس

والقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يطيب ولا يطمئن، إلا بالإخلاص في عبادة الله، ولو حصل له كل ما تلذذ به المخلوقات، وإذا قوي إخلاص دين العبد لله كملت عبوديته واستغناؤه عن الخلق، وعبادته سبحانه تكون بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «ومن تدبر أحوال

(١) الفتاوى ٦٥٢/١٠.

.....

العالم، وجد كل صلاح في الأرض فسيبه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسيبه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي غيره عموماً وخصوصاً^(١)، ولن يستغني القلب عن الخلق إلا بأن يكون الله هو مولاه، فلا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه* .

(١) الفتاوى ٢٥/١٥.

وأعظم ما أمر الله به التوحيد،

(وأعظم ما أمر الله به) في كتابه، وأعظم ما أمر به رسله أممهم هو (التوحيد) بإخلاص الدين لله وحده، وهو أعظم فريضة فرضها الله على العباد، علماً وعملاً، ولأجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه تكفر الذنوب، وتستحق الجنة، وبه النجاة من النار، ومن لم يمثل لهذا الأمر العظيم فجميع أعماله لا تقبل عند الله قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾.

أعظم
أمر
من
السماء

ولأهمية التوحيد جاء القرآن كله متضمناً له قال ابن القيم - رحمه الله - : «غالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن، فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيدهم وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيدهم، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبي من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، ف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توحيد، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ توحيد، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ توحيد، ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد»^(١).

أهمية
التوحيد

والتوحيد هو الأصل الذي يبني عليه الدين كله، وهو أعظم سبب لانسراح الصدر، وهو ملجأ الطالبين، ومفرج الهارين، ونجاة المكرويين،

أقسام
التوحيد

(١) مدارج السالكين ٣/٤٤٩.

وهو إفراد الله بالعبادة .

وغياث الملهوفين ، قال ابن القيم - رحمه الله - : «ما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد ، فلا يلقي في الكُرب العظام إلا الشرك ، ولا ينجي منها إلا التوحيد ، فهو مفرغ الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها»^(١) .
والتوحيد الذي وقع فيه النزاع بين الرسل وأقوامهم هو توحيد الألوهية ،
(و) تعريفه : (هو إفراد الله بالعبادة) كالذبح والنذر والدعاء فلا تصرف أي نوع من أنواعها لغير الله .

والتوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

- ١ - توحيد الربوبية ، وهو إفراد الله بأفعاله .
- ٢ - توحيد الألوهية ، وهو إفراد الله بأفعال العباد .
- ٣ - توحيد الأسماء والصفات ، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ ، من غير تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومن غير تكييفٍ ، ولا تمثيلٍ .
ومن حقق التوحيد بأقسامه الثلاثة فهو الموحد حقاً* .

(١) الفوائد ص ٩٥ .

وأعظم ما نهى عنه الشرك، وهو دعوة غيره معه،

وعلى العبد أن يعلم أن (أعظم ما نهى) الله (عنه) في كتابه، وأعظم ما نهت عنه الرسل هو (الشرك)، وهو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله .

أعظم
ذنب في
الأرض

والشرك بالله أعظم من قتل النفس ومن قطع الطريق والسرقة وهو أعظم الفساد في الأرض، ولا نجاة للعباد إلا بتوحيد الله وإفراده بالعبادة، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «وبالجملة، فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، أو مطاع متبع غير الرسول ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله ﷺ»^(١).

وأعظم ذنب عصي الله به هو الشرك، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ . وسئل النبي ﷺ: أيُّ الذنوب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» متفق عليه^(٢)، وقال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» متفق عليه^(٣).

والشرك هضم للربوبية، وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين، وهو أقبح المعاصي، لأنه تسوية للمخلوق الناقص بالخالق الكامل في صفاته جلّ وعلا. ومن أشرك في توحيد الألوهية فهو مشرك وإن أقر بتوحيد الربوبية، فلو فرض أن رجلاً يقر إقراراً كاملاً بتوحيد الربوبية، ولكنه يذهب إلى القبر فيدعو صاحبه من دون الله، أو ينذر له قرباناً يتقرب به إليه، فإن هذا قد وقع في الشرك الأكبر.

(و) تعريف الشرك: (هو دعوة غيره معه) أي: دعوة غير الله معه

تعريف
الشرك

(١) الفتاوى ٢٤/١٥.

(٢) البخاري رقم (٤٢٠٧) ٤/١٦٢٦، ومسلم رقم (٨٦) ١/٩٠ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) البخاري رقم (٥٦٣١) ٥/٢٢٢٩، ومسلم رقم (٨٧) ١/٩١ من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

سبحانه، بأن يطلب مع الله غيره، أو يسأل مع الله آخر، أو يجعل أحداً واسطة بينه وبين الله، من قبر أو ولي، بالدعاء أو الاستعانة والتوجه إليه، وغير ذلك من أنواع العبادة، وإن شئت قلت الشرك: هو مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

ومن مات على الشرك، استحق دخول النار وحرمة دخول الجنة قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً، دخل النار» رواه البخاري^(١)، (والدليل) على أن أعظم ما أمر الله به التوحيد، وأن أعظم ما نهى الله عنه هو الشرك (قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾) أي: أفردوه جلّ وعلا بالعبادة، ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فلا تجعلوا معه أنداداً ولا نظراء ولا أشباه لا في قليل الشرك ولا في كثيره، واحذروا الشرك وغوائله وأسبابه.

فعلى العبد أن يحقق الإيمان به سبحانه، وأن يكفر بضده من الأنداد والشركاء، فأول أمر أمر به العباد الأمر بعبادته وتوحيده، وأول نهى هو النهي عن ضده ثم أعقب تعالى ببقية الواجبات فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، وتصدير الآية بالتوحيد والنهي عن الشرك، يدل على عظمة التوحيد وقبح الشرك*.

(١) رقم (٤٢٢٧) / ٤ / ١٦٣٦ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة^(١) التي يجب على الإنسان معرفتها؟
فقل : معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً ﷺ .

الأصول
الثلاثة
التي يجب
معرفتها

يجب على كل مكلف من ذكر أو أنثى، أن يعرف ثلاثة أصول عظيمة،
هي أول ما يسأل عنها العبد في قبره، فإن ثبت على السؤال كان من الناجين،
وإن ضل عن جواب تلك الأصول كان من الهالكين .

(فإذا) سئلت عنها و(قيل لك): (ما) هي (الأصول الثلاثة التي يجب
على) كل (إنسان) مكلف (معرفتها) والعمل بمقتضاها؟

(فقل) له : الأصل الأول : (معرفة العبد ربه) وهذا أصل الأصول،
لتعبده على بصيرة ويقين، فتعرفه سبحانه بما وصف به نفسه في كتابه وعلى
لسان رسوله ﷺ، من وحدانيته وأفعاله وأسمائه وصفاته .

(و) قل له : الأصل الثاني : معرفة العبد (دينه) الذي تعبدنا به، وهو فعل
ما أوجب علينا فعله واجتناب ما أوجب علينا تركه .

(و) قل له : الأصل الثالث الواجب علينا معرفته هو : معرفة العبد (نبيه
محمداً ﷺ)، فإنه الوساطة بيننا وبين الله في تبليغ الرسالة، ولا طريق لنا إلى
ما تعبدنا به سبحانه إلا بما جاء به النبي ﷺ .

وذكر المصنف - رحمه الله - هذه الأصول الثلاثة مجملة، ثم ذكرها بعد
مفصلة أصلاً أصلاً، تمييزاً للفائدة، وتنشيطاً للقارئ، فإنه إذا عرفها مجملة
وعرف ألفاظها وأتقنها، بقي متشوقاً إلى معرفة معانيها .

وهذه الأصول الثلاثة تجمع الدين كله، من ربك؟ وما دينك؟ ومن هو
نبيك؟ وهي التي يُسأل عنها العبد في قبره، ومعرفتها فقط دون اعتقادها

أهميتها

(١) هذه بداية رسالة ثلاثة الأصول وما سبقها هي : رسائل متفرقة للشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه
الله - وضعها بعض تلامذته قبل ثلاثة الأصول كالتقدمة لها كما حدثني بذلك الوالد والشيخ صالح بن
غصون - رحمهما الله - .

.....

والعمل بما دلت عليه لا تنجي العبد من العذاب، وإنما ينجيه معرفتها واعتقادها مع العمل بما دلت عليه، ولا يثبت الإنسان عند السؤال في قبره إلا بذلك. وهذه الأصول الثلاثة ورد ذكرها مجتمعة في حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً» رواه مسلم^(١). ومن رضي بهذه الأصول الثلاثة وقالها عن يقين بعد قول المؤذن «أشهد أن محمداً رسول الله»، غفر له ما تقدم من ذنبه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من قال: حين يسمع المؤذن، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً غفر له ذنبه» رواه مسلم^(٢).

قال الشيخ عبد اللطيف^(٣) بن عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله -:
«الرضا بهذه الأصول الثلاثة، قطب رحى الدين، وعليه تدور حقائق العلم واليقين»^(٤)*.

(١) رقم (٣٤) ٦٢/١ من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٢) رقم (٣٨٦) ٢٩٠/١ من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) هو جد الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمهما الله -.

(٤) الدرر السنوية ٨/٣٥٥.

فإذا قيل لك: من ربك؟ فقل: ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه، وهو معبودي ليس لي معبود سواه،

الأصل
الأول:
معرفة
العبد ربه

ثم شرع المصنف - رحمه الله - في تفصيل هذه الأصول الثلاثة أصلاً أصلاً، وبدأ بالأصل الأول، وهو معرفة العبد ربه، فقال لك: (إذا) سئلت و (قيل لك): (من ربك؟) أي: من معبودك وخالقك ورازقك الذي ليس لك معبود سواه؟

(فقل) له: (ربي) ومعبودي هو (الله) لا أعبد إلا إياه، ولا أصرف شيئاً من أنواع العبادة لغيره، فلا أركع، ولا أنحر، ولا أنذر، ولا أطوف إلا لله، كيف أكفر به وأعبد غيره.

وهو (الذي) أوجدني من العدم؟ و(رباني) بالنعم الظاهرة والباطنة؟ وفرج كربوبي؟ وأغدق عليّ النعم؟ وأسبغ عليّ الخيرات؟ قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾.

بل (وربّي جميع العالمين بنعمه) وأغدق عليهم جزيل آلائه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «والرب هو: المرابي الخالق الرازق الناصر الهادي، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة»^(١)، وقد مضى على الإنسان زمن طويل من العصور والدهور لم يكن فيها شيئاً مذكوراً، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ أي: موجوداً، بل كان معدوماً غير موجود ثم أوجده الله من العدم ورزقه النعم ليعبده وحده.

(وهو معبودي) الذي أصرف إليه جميع أنواع العبادة، (ليس لي معبود سواه) أتذلل له أو أصرف له شيئاً من العبادات، فكفى بربي معبوداً فهو المستحق للعبادة.

(١) الفتاوى ١٤/١٣.

والدليل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وكل ما سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم.

(والدليل) على أن الله أعذق عليك وعلى جميع الخلق بالنعمة (قوله تعالى) في أول آية في كتابه العظيم:

﴿الْحَمْدُ﴾ وهو الثناء على المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، والألف واللام في الحمد للاستغراق أي: جميع المحامد ﴿لِلَّهِ﴾ المألوه المعبود بحق، فجميع المحامد له لا لغيره ﴿رَبِّ﴾ وخالق ورازق ومالك ومدبر جميع ﴿الْعَالَمِينَ﴾ من إنس وجن وملائكة وغيرهم.

(وكل ما سوى الله) مما في الكون من الجن والإنس والجبال والأشجار فهو (عالم) والله هو الخالق، وسمي العالم عالماً؛ لأنه علامة على خالقه وموجده ومالكة.

(وأنا) وأنت وجميع الخلق (واحد من) جملة (ذلك العالم) وتلك المخلوقات العظيمة، وكلنا محتاجون إلى الله في قضاء حاجاتنا وتفريج كرباتنا، فهو المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، وهو المستحق بأن يعبد وحده دون من سواه وهذا مدلول كلمة الإخلاص*.

فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته، ومن آياته
الليل والنهار والشمس والقمر،

(فإذا) سُئلت و(قيل لك): ما الأدلة التي (عرفت) بها (ربك) وخالفك
الذي تعبدته .

الدلائل
التي
تعرف بها
ربك

(فقل) له: عرفته (بآياته) أي: علاماته ودلائله التي نصبها دلالة على
وحدانيته وتفردته بالربوبية والألوهية .

وعرفته (بمخلوقاته) الباهرة التي أوجدها بعد العدم وجعلها دالة عليه،
فكل شيء في الكون وإن دق فهو دال على وحدانيته .

تأمل سطورَ الكائنات فإنها من المَلِكِ الأعلى إليك رسائلُ
وقد خُطَّ فيها لو تأملتَ خُطَّها ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ

والتفكر في الكون يزيد الإيمان ويعلق القلب بالله، قال ابن القيم - رحمه
الله -: «وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس، التفكر في آيات الله وعجائب صنعه
والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به، دون شيء من مخلوقاته»^(١) .

(ومن) أعظم (آياته) المشاهدة بالأبصار الدالة على وحدانيته: إقبال
(الليل) وإدبار (النهار) وعدم اجتماعهما في زمن واحد، بل كل منهما يطلب
الآخر، طلباً سريعاً لا يفصل بينهما شيء، هذا يقبل وذاك يدبر، وهما يتعاقبان
علينا تسخيراً لنا .

ومن الآيات الباهرات الدالة على وحدانية الله وتدبيره (الشمس) المشرقة
وهي سراج الكون، (والقمر) المضيء في الدهماء، آيتان تجريان على مسار
دقيق بهر الخلق، هذه تشرق وذاك يغرب، ووقفوا أمام سيرهما مندهشين،
جري منظم، وسير متقن، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يدرك أحدهما الآخر قال

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢٢١ .

ومن مخلوقاته: السموات السبع، والأرضون السبع، وما فيهن، وما بينهما،

الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، ولا يتغير مسار أحدهما إلى غير ما قدر الله ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وهذه الشمس على كبر حجمها إذا غربت تسجد تحت العرش، يقول أبو ذر رضي الله عنه: «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس فقال: يا أبا ذر، أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾» رواه البخاري^(١)، وتستأذن ربها في الإشراق مرة أخرى يقول أبو ذر رضي الله عنه: «دخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فلما غربت الشمس قال: يا أبا ذر، هل تدري أين تذهب هذه؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب تستأذن في السجود فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها» رواه البخاري^(٢)، وفي الآخرة تكور وتجمع قال ابن جرير الطبري - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي: جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها»^(٣).

(ومن مخلوقاته) العظيمة: (السموات السبع) وسعتها وارتفاعها، (والأرضون السبع) وامتدادها، وسعة أرجائها، وتقدير أقواتها.

(وما فيهن) أي: ما في السموات السبع من الكواكب الزاهرات، والآيات الباهرات، وما في الأرضين السبع من الجبال والبحار، وأصناف المخلوقات من الحيوانات والنباتات، وسائر الموجودات.

(وما بينهما) أي: ما بين السموات والأرض من الهواء وغيره، وما بدا

(١) البخاري رقم (٣٠٢٧) ٣/١١٧٠.

(٢) البخاري رقم (٦٩٨٨) ٦/٢٧٠٠.

(٣) تفسير الطبري ٣٠/٦٥.

.....

لهم من سيرهم من موطنٍ إلى موطنٍ في جوِّ السماء، وما ظهر لهم من منافع من نقل ما يتحدثون به وهم في بلد، وغيرهم في بلد آخر، فسبحان الله ربَّ العرش العظيم، فحري بكل مسلم التفكير في آيات الله ومخلوقاته. قال ابن جزى المالكي - رحمه الله -: «التفكر هو ينبوع كل حال ومقام، فمن تفكر في عظمة الله اكتسب التعظيم، ومن تفكر في قدرته استفاد التوكل، ومن تفكر في عذابه استفاد الخوف، ومن تفكر في رحمته استفاد الرجاء، ومن تفكر في الموت وما بعده استفاد قصر الأمل، ومن تفكر في ذنوبه اشتد خوفه، وصغرت عنده نفسه»^(١) *.

(١) القوانين الفقهية ص ٢٨٤.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾

الدليل
على
بعض
آيات الله

(والدليل) على أن الليل والنهار والشمس والقمر من آيات الله:

(قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾) الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده: ﴿الَّذِي﴾ (بمنفعة ظلمته، وسكون الخلق فيه) ﴿وَالنَّهَارُ﴾ (بمنفعة ضيائه، وتصرف العباد فيه) ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (الذان لا تستقيم معاش العباد إلا بهما.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾) فإنهما مدبران مسخران مخلوقان، لا يستحقان أن يسجد لهما.

﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾) لا لغيره ووحده فهو ﴿الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾) فإنهما وإن كبر حجمهما فإن ذلك ليس منهما وإنما هو من خالقها.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ﴾) وحده جلَّ وعلا ﴿تَعْبُدُونَ﴾) فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين.

(و) الدليل على أن السموات السبع، والأرضين السبع، من مخلوقات الله الدالة عليه جلَّ وعلا:

(قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾) وما فيهما والذي أنقن خلقهما وأحكم بنيانهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾) أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة ﴿ثُمَّ﴾) لما قضاها وأودع فيها من أمره ما أودع ﴿أَسْتَوَىٰ﴾) جلَّ وعلا ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾) العظيم الذي وسع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، استواءً يليق بجلاله وعظمته.

يُغْشَى أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَحَّرَاتٍ بِأَمْرِهُ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۗ .

وهو سبحانه (يُغْشَى أَيْلَ) أي: يجعل الليل المظلم يغطي
(النَّهَارَ) المضيء، فيعم الظلام وجه الأرض ويبقى كل من عليها في
ظلام، ويسكن الأدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها .

(يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا) أي: سريعاً، كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء
النهار ذهب الليل، طلباً لا فتور فيه ولا تأخير، حتى يطوي الله هذا العالم
وينتقل العباد إلى دار القرار .

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ) الثابتة والسائرة (مُسَحَّرَاتٍ بِأَمْرِهُ) ۗ
وتدبيره، وعلمه وحكمته .

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ)؟ بلى إن له الخلق الذي صدرت عنه جميع
المخلوقات، ويتضمن أحكامه الكونية القدرية .

(وَوَ) ۗ أَلَا لَهُ (الْأَمْرُ)؟ بلى إن له الأمر المتضمن للشرائع
والنبوات، وهذا يتضمن جميع أحكامه الدينية الشرعية .

(تَبَارَكَ اللَّهُ) ۗ أي: بلغ في البركة النهاية، وهي صيغة لا تصلح
إلا لله، فهو سبحانه عظيم وتعالى وكثر خيره، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه
وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، وهو سبحانه
(رَبُّ الْعَالَمِينَ) ۗ المنعم عليهم بخيراته وسابغ فضله* .

والربُّ هو المعبود والدليل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾،

(والربُّ) الخالق لتلك المخلوقات العظيمة، من السموات السبع، وما فيهن وما بينهما، هو المالك المتصرف المتصف بصفات الكمال و(هو المعبود) المستحق للعبادة وحده دون من سواه، وما سواه مخلوق مربوب ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

(والدليل) على أن الربَّ هو المعبود (قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾) من ذكر وأنتى ﴿أَعْبُدُوا﴾ ووحدا ﴿رَبَّكُمْ﴾ فهو المنعم عليكم بالنعمة الظاهرة والباطنة، وهو ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، وأوجدكم من العدم، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ كذلك خلقهم الله بعد أن لم يكونوا شيئاً، وذكركم الله بهذه النعمة العظيمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ خالقكم وتأتّمرون بأوامره وتجتنبون نواهيه فهو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ بساطاً ممهداً لكم تستقرون عليها، وتقضون عليها معاشكم.

﴿وَالسَّمَاءَ﴾ جعلها ﴿بِنَاءً﴾ لكم وقبة مضروبة عليكم، وسقفاً محفوظاً مزيناً بالمصابيح والعلامات التي تهتدون بها في ظلمات البر والبحر، أرضٌ تقلكم وسماء تظلكم، لا غنى لكم عن إحداهما.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ﴾ السحاب الذي في ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ عذباً مباركاً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ المتنوعة من نخيل وفواكه وزروع وغيرها ﴿رِزْقًا﴾ طيباً ﴿لَكُمْ﴾ لتستمتعوا بالطيبات، وتستعينوا بها على طاعة الله.

ومن كانت هذه نعمه فهو المستحق أن يعبد وحده، فاشكروا نعمه، ومن شكرها: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ وشركاء ونظائر معه في العبادة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بطلان ذلك وأنها لا تستحق العبادة فكيف تعبدون مع الله

قال ابن كثير - رحمه الله - : «الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة» .

آلهة أخرى مع علمكم ببطلان ذلك؟! وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الله وبطلان الشرك .

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وقد احتج عليهم تعالى في هذه الآية بما أقروا به وعلموه من توحيد الربوبية، على ما جحدوه وأنكروه من توحيد الألوهية، فإنه تعالى كثيراً ما يقرر في كتابه توحيد ألوهيته بتوحيد ربوبيته، فإن توحيد الربوبية هو الدليل الأوضح والبرهان الأعظم على توحيد الألوهية .

وفعل العبادة من غير توحيد ليست بعبادة، فمن عبد الله تارة وأشرك معه غيره فليس بعابد لله، يدل لذلك أن الله سمي الذين يخلصون له العبادة في الشدائد، وعند ركوب البحار وتلاطم الأمواج يفرعون ويلجئون إليه وحده، ويعرفون في كربتهم أن تلك الآلهة ليست شيئاً وإنما لا تنفعهم عند الكروب، ومع ذلك كله سمّاهم الله مشركين بل نفى عنهم تلك العبادة بالكلية قال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْوَدَانَ فَلَمَّا بَجَّهْم إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ . فالتوحيد لا يسمى توحيداً إلا بإفراد الله بجميع أنواع العبادات، فمن أطاعه في جميع ما أمره به منها ولم يصرف أي شيء منها لغيره، فقد وحده وإلا فلا .

(قال) الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر (بن كثير)، صاحب التفسير، (- رحمه الله -) وأسكنه جنته: (الخالق) الموجد (لهذه الأشياء) من العدم، من خلق الإنسان والأرض والسماء، وما فيهما من الخيرات والثمار (هو) المستحق للعبادة^(١)، وغيره مخلوق ضعيف لا يستحقها قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٨٨ ونصه «ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فهذا يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك به غيره» .

.....

دُعَاءُكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ* . قال ابن القيم - رحمه الله - : «كل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقاً، والمعبود لا بد وأن يكون مالكاً للنفع والضر، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرراً ولا نفعاً»^(١) * .

(١) بدائع الفوائد ١/٣ .

وأنواع العبادة التي أمر الله بها، مثل: الإسلام والإيمان والإحسان،

ومن فضل الله على عباده أن شرع لهم أنواعاً عديدة من العبادات يتقربون بها إليه، والمرء لا يعلم بأيها يدخل الجنة، قال ابن القيم - رحمه الله -: «من تنوعت أعماله المرضية المحبوبة له في هذه الدار، تنوعت الأقسام التي يتلذذ بها في تلك الدار، وتكثرت له بحسب تكثر أعماله هنا، وكان مزيده بتنوعها والابتهاج بها والالتذاذ هناك، على حسب مزيده من الأعمال وتنوعه فيها في هذه الدار، وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخوطة، أثراً وجزاءً ولذةً وألماً يخصه لا يشبه أثر الآخر وجزاءه، ولهذا تنوعت لذات أهل الجنة وآلام أهل النار، وتنوع ما فيهما من الطيبات والعقوبات، فليست لذة من ضرب في كل مرضاة الله بسهم وأخذ منها بنصيب، كلذة من أنمى سهمه ونصيبه في نوع واحد منها، ولا ألم من ضرب في كل مسخوط لله بنصيب وعقوبته، كآلم من ضرب بسهم واحد في مسأخظته»^(١).

فضل
تنوع
العبادات

والعبد تعلقو درجته عند ربه إذا ازدادت عبوديته له، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته»^(٢).

ولما بين المؤلف أن الواجب أن نعبد الله وحده ذكر شيئاً من أنواع العبادة فقال: (وأنواع) وأصناف (العبادة التي أمر الله بها) عباده وتعبدهم بها كثيرة جداً، ذكر المصنف - رحمه الله - منها سبعة عشر مثلاً لأنواعها، فقال: (مثل الإسلام والإيمان والإحسان)، وهذه الثلاثة أعلى مراتب الدين، وأهم أنواع العبادة، لذلك بدأ المصنف بها، فالإسلام بأركانها من صلاة وصيام عبادة، وهكذا الإيمان بأعماله الباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله

أجل
أنواع
العبادات

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٧٧.

(٢) الفتاوى ١٠/١٧٦.

ومنه: الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرغبة والخشوع والخشية والإجابة والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها

واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، وكذلك الخوف والمحبة والرجاء، إلى غير ذلك، فكل ما يتعلق بالقلوب داخل في العبادة، بل هو أعلى أنواع العبادة وأعظمها، ومرتبة الإسلام هي أوسع دوائر الدين، يليها مرتبة الإيمان وهي أضيق من دائرة الإسلام، ثم دائرة الإحسان وهي أضيق تلك الدوائر، والداخلون في دائرة الإحسان هم الأقل من عباد الله، وهي مرتبة زاكية عالية لا ينالها إلا من اصطفاهم الله، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «أحوال القلوب وأعمالها، مثل محبة الله ورسوله ﷺ وخشية الله، والتوكل عليه، والصبر على حكمه، والشكر له، والإجابة إليه، وإخلاص العمل له، مما يتفاضل الناس فيه تفاضلاً، لا يعرف قدره إلا الله عزَّ وجلَّ»^(١).

أنواع من
العبادات

(ومنه): أي: ومن أنواع العبادات أيضاً التي أمر الله بها (الدعاء) وإنزال الحوائج به سبحانه، (والخوف) منه جلَّ وعلا، (والرجاء) والطمع بما عند الله، (والتوكل) وتفويض الأمور إليه، (والرغبة) فيما عند الله، (والرهبة) منه جلَّ وعلا، (والخشوع) لله، (والخشية) منه، (والإجابة) إلى الله والرجوع إليه، (والاستعانة) به سبحانه، (والاستعاذة) باللجوء إليه (والاستغاثة) به جلَّ وعلا، (والذبح) له وحده، (و) كذلك (النذر) لا يكون إلا له وحده.

(وغير ذلك من أنواع العبادة) المتنوعة (التي أمر الله بها) كبرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، وإكرام الضيف، وحسن الخلق، وكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة فهو عبادة، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «العبادة اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة

(١) الفتاوى ٤٠٩/٧.

.....

والظاهرة»^(١)، فالعبادة تشمل جميع أنواع الطاعات، وتتضمن كمال الحب، وكمال التعظيم، وكمال الرجاء والخشية، قال ابن القيم - رحمه الله -: «العبودية تجمع كمال الحب، في كمال الذل، وكمال الانقياد لمراضي المحبوب وأوامره، فهي الغاية التي ليس فوقها غاية»^(٢) *.

(١) الفتاوى ١٠/١٤٩.

(٢) مدارج السالكين ٣/٤٤١.

كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾. فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ،

وجميع أنواع العبادة (كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى) لا يصلح منها شيء لغير الله، (والدليل) على ذلك (قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ﴾) أي: أماكن الصلوات أو أعضاء السجود كلها ملك (﴿لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا﴾) ولا تسجدوا بها لغيره، ولا تشركوا في الأرض (﴿مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾) كائناً من كان، فإن الأرض جميعها ملك لله وحده، فأفردوه فيها بالعبادة.

(فمن صرف منها) أي: من أنواع العبادة التي ذكرها المصنف أو غيرها، ولو (شيئاً) يسيراً (لغير الله) مثل لو دعا غير الله - من الحاضرين فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو من الأموات أو الغائبين أو الأصنام أو الأشجار - أو رجاهم، أو خافهم، أو سألهم قضاء الحاجات، أو تفريج الكربات أو غير ذلك (فهو مشرك كافر) أي: الشرك الأكبر، والكفر المخرج عن الملة، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «فإن المسلمين متفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام، أن العبد لا يجوز له أن يعبد ولا يدعو ولا يستغيث ولا يتوكل إلا على الله، وأن من عبد ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلًا، أو دعاه، أو استغاث به فهو مشرك»^(١).

والفرق بين الشرك والكفر: أن الكفر أعمُّ، فكل مشرك كافر ولا عكس، فمن طاف على قبر، أو دعاه من دون الله، فهو مشرك ويسمى كافراً، ومن استهزأ بشيء من الدين فهو كافر ولا يسمى مشركاً، لأنه لم يشرك مع الله أحداً في ذلك بل استهزأه كافر، وأما في الآخرة فمآل الكافر والمشرك سواء، فكلاهما مخلد في النار - والعياذ بالله -، قال تعالى في حق الكافر: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، وقال في حق المشرك: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

(١) الفتاوى ٣/٢٧٢.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

الدليل
على كفره

(والدليل) على أن من صرف شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر، (قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ﴾) ومن يصرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله كأن يدعوا ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ من الأموات، أو الأوثان، أو الأحجار، أو غيرها ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ أي: لا حجة ولا دليل له ﴿بِهِ﴾ أي: بتلك العبادة التي أشرك فيها مع الله، وهذا القيد لا يفهم منه أن هناك من يعبد غير الله بحجة وإنما أُتي به ليبين لهم أنه لا حجة لأحد في دعوى الشرك، فليست عبادتهم عن دليل إنما عن ضلالة وأهواء، لا عن هداية ووحى، فمن فعل ذلك فقد توعد الله بقوله: ﴿فَأِنَّمَا حِسَابُهُ﴾ وعقابه ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ يوم القيامة بخلوده في النار، ﴿إِنَّهُ﴾ أي: من أشرك معه غيره ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأولئك هم ﴿الْكَافِرُونَ﴾ الخارجون عن ملة الإسلام، وفي الآية أوضح برهان على كفر من دعا مع الله غيره، سواء كان المدعو ملكاً، أو نبياً، أو قبراً، أو غير ذلك* .

وفي الحديث: «الدعاء مخ العبادة»، والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيُسْجَنُونَ وَسَيُعَذَّبُونَ﴾ (١)

الدعاء
عبادة

لما ذكر المصنف - رحمه الله - أنواعاً من العبادة مجملة، شرع في ذكر أدلتها، أما الإسلام والإيمان والإحسان فسيذكر أدلتها مفصلة في الأصل الثاني، فبدأ بالدعاء الذي هو أصل العبادات وأساسها فقال: (وفي الحديث) الذي يدل على أن الدعاء من أنواع العبادة ما رواه الترمذي^(١) أن النبي ﷺ قال: (الدعاء) وسؤال الله الحوائج (مخ) أي: لبُّ وخالص (العبادة) التي أمر الله بها الخلق، كما يفسره الحديث الآخر أن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة» رواه أبو داود^(٢)، فجعل الدعاء هو عين العبادة، ودعوة الرسل جاءت لتتوجه القلوب إلى سؤال الله وحده، ودعاء وسؤال غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من أنواع الشرك الأكبر المحبط لجميع الأعمال، جاء في الدرر السنية: «اتفق العلماء كلهم، على أن من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم، فقد كفر»^(٣).

والدعاء من أكثر أنواع الشرك وقوعاً بين الخلق جاء في الدرر السنية: «من أعظم أنواعه - أي: الشرك - وأكثره وقوعاً في هذه الأزمان: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، وهذا متفق عليه أنه من الشرك الأكبر»^(٤).

(والدليل) على أن الدعاء عبادة وأن صرفه لغير الله شرك (قوله تعالى): ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وخالقكم ﴿ادْعُونِي﴾ وأنزلوا بي حوائجكم ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وأعطيتكم سؤالكم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويعرضون ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾

(١) رقم (٣٣٧١) ٤٥٦/٥ من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) رقم (١٤٧٩) ٧٦/٢ من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

(٣) الدرر السنية ١/١٩٦.

(٤) الدرر السنية ١/١٩٩.

عِبَادَتِي سَيِّدُخُلُونِ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿﴾ .

عِبَادَتِي ﴿﴾ ودعائي ﴿سَيِّدُخُلُونِ﴾ نار ﴿جَهَنَّمَ﴾ - والعياذ بالله - ﴿دَاخِرِينَ﴾ ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، عقوبة لهم على ما تركوه من عبادة الله التي فرضها عليهم، والعاقل يعلم أن الكروب لا يكشفها إلا الله، لأنه القدير على كشفها قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، والمخلوق لا يصلح أن يدعى أو يستغاث به من دون الله، لأنه عبد ضعيف يمرض ويموت، لا يملك لنفسه دفع ضرر ولا جلب نفع، فكيف يجلبها لغيره؟! قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾، فالجأ إلى الله وحده، وأنزل به حوائجك، وسله يعطك، واستغفره يغفر لك، وادعه بقلب خاشع خاضع يستجب لك، ومن أنزل حوائجه بالله والتجأ إليه، وتعلق قلبه بربه، وكفر بما يعبد من دون الله، فهو الموحد* .

ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِيَّانَا كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

الخوف
من الله:
عبادة

منزلة الخوف من أجل العبادات القلبية، وهي فرض على كل أحد، وهو ركن العبادة الأعظم، ولا يستقيم إخلاص الدين لله إلا به .

والخوف: «هو تألم القلب وحركته بسبب توقع مكروه في المستقبل»^(١)، والخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله .

وهناك فرق بينه وبين الوجل والخشية والرهبة، قال ابن القيم - رحمه الله - : «الوجل، والخوف، والخشية، والرهبة، ألفاظ متقاربة غير مترادفة»^(٢) أي: معانيها مختلفة .

والفرق بين الخوف والوجل: أن الخوف: تألم القلب على شيء يخاف منه في المستقبل، كرجل يخاف من مجاعة يتوقع أن تصيبه بعد شهر .

وأما الوجل: فهو رجفان القلب وحركته على شيء مخوف واقع عليه الآن، كرجل رأى أسداً فرجف قلبه من مشاهدته، فرجفان القلب حال المشاهدة يسمى وجلاً .

فتألم القلب على أمر مخوف متوقع في المستقبل يسمى خوفاً، وتألمه من أمر واقع عليه الآن يسمى وجلاً .

قال ابن القيم - رحمه الله - : «وأما الوجل: فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه، وعقوبته، أو لرؤيته»^(٣) .

(ودليل) أن (الخوف) عبادة من العبادات لا يصرف إلا لله (قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾) أي: المشركين فإن نواصيهم بيدي، ﴿وَخَافُونَ﴾ فأنا ربكم الذي ينصر أوليائه الخائفين منه ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾) .

(١) مدارج السالكين ١/٥١٣، بلغة السالك لأقرب المسالك للصاوي ٤/٤٣٨ .

(٢) مدارج السالكين ١/٥١٢ .

(٣) مدارج السالكين ١/٥١٣ . وسيأتي الفرق بين الخشية والرهبة عند ذكرهما مع أدلتها .

والخوف منه سبحانه من أسباب صلاح القلب، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه، بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث، فسد فساداً لا يُرجى صلاحه أبداً، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه»^(١).

وقد كان الأنبياء أشد الخلق خوفاً من الله، قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾، وقال الله لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، «وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل^(٢) من البكاء» رواه النسائي^(٣).

وكلما كان العبد بالله أعلم كان منه أخوف، ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد ربه، فأعرف الناس أخشاهم الله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه وحبه له، وكلما ازداد معرفةً ازداد حياءً وخوفاً وحباً، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» رواه البخاري^(٤)، وقال صلى الله عليه وسلم: «لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله» رواه أحمد والترمذي^(٥). والخوف من الله عز وجل هو الطريق إلى طاعته، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «الخوف من الله، يستلزم العلم به، والعلم به يستلزم خشيته، وخشيته تستلزم طاعته»^(٦)، ولا صلاح للقلب إلا بالخوف من الله، قال أبو سليمان الداراني

فضل
الخوف
من الله

(١) الفتاوى ٢١/١٥.

(٢) أي: كصوت الإناء إذا غلا فيه الماء.

(٣) سنن النسائي رقم (١٢١٤) ١٣/٣ من حديث أبي مطرف رضي الله عنه.

(٤) صحيح البخاري رقم (١٦/٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) المسند رقم (٢١٥٥٥) ١٧٣/٥، وسنن الترمذي رقم (٢٣١٢) ٥٥٦/٤ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٦) الفتاوى ٢٤/٧.

- رحمه الله -: «ما فارق الخوف قلباً إلا خرب»^(١)، وهو المانع من اتباع الشهوات، قال إبراهيم بن سفيان - رحمه الله -: «إذا سكن الخوف القلوب، أحرقت مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها»^(٢)، وإذا فارق الخوف القلب ضل عن الاستقامة، قال ذو النون - رحمه الله -: «الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق»^(٣).

والخائف من ربه يمنحه ربه التبصر في آياته ونذره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ حَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾، وفي الآخرة تُفْتَحُ له الجنان ﴿وَلِمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾، ومن عظم وقار الله في قلبه، عظم الله وقاره في قلوب الخلق ومنعهم أن يذلوه.

أركان
العبادة

وأركان العبادة الخوف، والرجاء، والمحبة، وكل هذه الأركان الثلاثة يجب على العبد الإتيان بها جميعاً، قال ابن القيم - رحمه الله -: «قال بعض السلف: من عبد الله تعالى بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن، وقد جمع الله تعالى هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف، فهذه طريقة عباده وأوليائه»^(٤). والمحبة تجلب الخوف والرجاء قال ابن القيم - رحمه الله -: «كل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء، وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه»^(٥).*

(٢) مدارج السالكين ١/٥١٣.

(١) مدارج السالكين ١/٥١٣.

(٣) مدارج السالكين ١/٥١٣.

(٤) بدائع الفوائد ٣/١١.

(٥) مدارج السالكين ٢/٤٣.

والخوف من حيث هو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خوف السر وهو أن يخاف من غير الله، من وثن، أو طاغوت، أن يصيبه بما يكره، وهذا شرك أكبر، كأن يخاف من صاحب القبر أن يضره أو يحل عليه عقوبة إذا لم يلجأ إليه، أو يخاف من صاحب القبر أن يصيبه بشيء إذا تنقص ذلك الميت، كما قال جلّ وعلا إخباراً عن قوم هود أنهم قالوا لنبيهم: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ إِلَهَاتِنَا بِسُوءٍ﴾ فهم خافوا الآلهة أن تصيبهم بسوء ومصيبة، وكقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ وهذا الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان، يخافونها ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد، فكما أنه إذا دعا غير الله، أو سأل غير الله، انتفى عنه الإيمان، فكذلك إذا خاف غير الله قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «فمن سوى بين الخالق والمخلوق، في الحب له، أو الخوف منه، والرجاء له، فهو مشرك»^(١).

القسم الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس، قال في فتح المجيد: «فهذا حرام، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾»^(٢). قال ابن القيم - رحمه الله -: «ومن كيد عدو الله: أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائهم، لئلا يجاهدوهم، ولا يأمرهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويله ونهاناً أن نخافه»^(٣).

القسم الثالث: الخوف الطبيعي كخوف الإنسان من السبع، والنار،

(١) الفتاوى ٢٧/٣٣٩.

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٣٩٦.

(٣) إغاثة اللفهان ١/١٣٠.

والغرق، فهذا لا يلام عليه العبد كما قال تعالى في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ .

وأما خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة، وهو الذي قال الله فيه ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ونحو ذلك، فهو أعلى مراتب الإيمان .

كيف
تنزع خوفك
من
البشر؟

والاستسلام لله وتفويض الأمور إليه مما ينزع الخوف من البشر قال ابن القيم - رحمه الله - : «والذي يحسم مادة الخوف : هو التسليم لله، فإن من سلم لله، واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع»^(١) .

ومن خاف ربه في الدنيا أمن يوم الفرع في الآخرة، ومن أمن في الدنيا فزع في الآخرة، والله لا يجمع لعباده بين خوفين إما خوف في الدنيا من الله، وإما خوف في الآخرة لمن لم يخف منه في الدنيا، ومن خاف ربه لم يفزعه أحد، بل هو مطمئن القلب ساكن الجوارح .

ومن صح خوفه من الله هرب إليه، وأنعم بنفس لا تأنس إلا مع الله، ولا يعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً، وكل عاصٍ لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله .

فراقب ربك في أحوالك وخف من عقابه، تسعد في دنياك وأخرائك، والمخلوق إذا خفته استوحشت منه، وهربت منه، والرب تعالى إذا خفته أنست به وقربت إليه * .

(١) مدارج السالكين ٢/٣١ .

الرجاء عبادة قلبية، وهو: الرغبة والطمع في الحصول على شيء
مرجو، وهو يتضمن التذلل والخضوع.

والفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن
التوكل.

والتمني يكون مع الكسل.

والرجاء هو الحادي للأعمال قال ابن القيم - رحمه الله -: «لولا روح
الرجاء، لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامعُ وبيعُ وصلوات
ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً»^(١).

وحقيقة الرجاء: الخوف والرجاء معاً قال ابن القيم - رحمه الله -:
«وحقيقة الرجاء: الخوف والرجاء، فيفعل ما أمر به على نور الإيمان راجياً
الثواب، ويترك ما نهى عنه على نور الإيمان خائفاً من العقاب»^(٢).

والرجاء ثلاثة أنواع:

قال ابن القيم - رحمه الله -: «والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان،
ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله، على نور من الله، فهو راج
ثوابه، ورجل أذنب ذنباً ثم تاب منها فهو راج مغفرة الله تعالى وعفوه
وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل،
فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب»^(٣).

(١) مدارج السالكين ٢/٤٢.

(٢) مدارج السالكين ١/٥٠٢.

(٣) مدارج السالكين ٢/٣٦.

ومن قوي رجاءه ازداد عمله الصالح، قال ابن القيم - رحمه الله - :
«كلما قوي الرجاء جدَّ صاحبه في العمل كما أن البادر كلما قوي طمعه في
المَعْلُ (١)، غَلَقَ (٢) أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاءه، قصر في البذر» (٣).

والرجاء يحدو بالعبد في سيره إلى الله، ويطيب له المسير، ويحثه
عليه، ويبعثه على ملازمته، قال ابن القيم - رحمه الله - : «ولولا الرجاء لما
سار أحد، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب،
ويزعجه (٤) الخوف، ويحدوه الرجاء» (٥).

محركات
القلوب

والعبد يجمع بين المحبة والرجاء والخوف، ولا تحصل العبودية لله إلا
بهذه الثلاثة، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «اعلم أن محركات القلوب إلى
الله عز وجل ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة
تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في
الآخرة قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾، والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق،
فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون
سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده.

فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له
العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره.

(١) أي: نتاج الأرض.

(٢) أي: ملاً.

(٣) الفوائد ص ١٢٩.

(٤) أي: يزجره.

(٥) مدارج السالكين ٢/ ٥٠.

.....

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه فأى شيء يحرك القلوب؟ .

قلنا: يحركها شيان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ .

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٣﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴿٤٤﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ ﴿٤٥﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَإِن نَّعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴿٤٦﴾ فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثاً، وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه، وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو»^(١) .

ويقوى الرجاء كلما قوي العلم بالله، قال ابن القيم - رحمه الله: - «قوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته»^(٢) .

متى
يقوى
الرجاء؟

والرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه، فرجاء العبد ثواب الله واستسلامه لربه بانطراحه بين يديه ورضاه بمواقع حكمه فيه، ما ذاك إلا رجاء منه أن يرحمه ويقبله عشرته ويعفو عنه ويقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتها ويتجاوز عن سيئاته، فقوة رجائه أوجب له هذا الاستسلام والانقياد

(١) الفتاوى ١ / ٩٥ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ٤٢ .

.....

والانطراح بالباب، ولا يتصور هذا بدون الرجاء البتة، فالرجاء حياة الطلب، وهو سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله، لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب شيء إلى الجواد أن يرجى ويؤمل ويسأل، وكلما قوي رجاء العبد وطمعه في فضل الله ورحمته وتيسير أموره قويت عبوديته لله فهو عبادة عظيمة* .

ودليل الرجاء، قوله تعالى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

(ودليل) أن (الرجاء) عبادة لا تصرف لغير الله (قوله تعالى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا﴾) ويأمل (﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾) وموعوده وثوابه (﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾) وهو الموافق لشرع الله، (﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾) لا رياء ولا سمعة ولا يصرف العبادة لغير خالقه، بل يجعل أعماله كلها خالصة لوجه الله، فمن جمع بين الإخلاص والمتابعة نال ما يرجو ويطلب، ومن عَدِمَ ذلك فإنه خاسر، وفاته القرب من مولاه، ونيل رضاه.

وقد أمر الله بتعليق الرجاء به فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾. والمسلم يعلق آماله وأطماعه ورجاءه بالله، قال سبحانه: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. والطامع في رجاء الله يحدو به إلى التأسى بنبيه ﷺ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾، ومن لم يرجُ فضل الله عَرَّضَ نفسه للوعيد قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَابِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ومن رجا غير الله مما لا يقدر عليه إلا الله، كمغفرة ذنوبه، أو شفاء مريضه، فقد صرف تلك العبادة لغير الله، ووقع في الشرك الأكبر، لأن هذا طمع في شيء لا يملكه إلا الله، وصرف عبادة الرجاء إلى غير الله، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «الرجاء ينبغي أن يتعلق بالله، ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك، وإن كان الله قد جعل لها أسباباً فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد له من معاون، ولا بد أن يمنع العارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى»^(١).

دليل
أن الرجاء
عبادة

الشرك
في الرجاء

(١) الفتاوى ١٠ / ٢٥٦.

ومن رجا مخلوقاً أو تعلق به، انصرف قلبه عن العبودية لله، وصار عبداً
لغيره بقدر ما قام في قلبه من التعلق والرجاء فذلّ لغير الله وخضع، قال شيخ
الإسلام - رحمه الله - : «ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله، إلا خاب من
تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ
ضِدًّا﴾ (١). ومن علق رجاءه بالبشر خذل قال ابن القيم - رحمه الله - : «وكل
من خاف شيئاً غير الله سلط عليه، كما أن من أحب مع الله غيره عذب به،
ومن رجا مع الله غيره خذل من جهته، وهذه أمور تجربتها تكفي عن
أدلتها» (٢).

فيجب على العبد أن يعلق رجاءه بالله دون من سواه، فالخلق مجبولون
على الضعف، عاجزون عن جلب النفع لأنفسهم ودفع الضر عنهم، وهم عن
غيرهم أعجز، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «وما رجا أحد مخلوقاً أو
توكل عليه، إلا خاب ظنه فيه» (٣). ولن يجني من ورائهم سوى الذلة
والمهانة، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم
وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة، أو يدفعوا عنه مضرة، فإنه يخذل من جهتهم،
ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما
يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه، إما لعجزهم، وإما لانصراف
قلوبهم عنه، وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصاً له
الدين، أجاب دعاءه وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة» (٤).

(١) الفتاوى ١ / ٢٩.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢ / ٢٥٦.

(٣) الفتاوى ١٠ / ٢٥٧.

(٤) الفتاوى ١٠ / ٦٥٠.

.....

فلا تعلق أطماعك وأملك بغير الله، فلن تجني إن فعلت سوى العدم،
وذل المسألة والتفريط في عبادة جليلة، وارج كرم الله وعطاءه وجزيل مناه،
واطلب منه كشف الحاجات والملمات، فذلك أرفع للدرجات، وأعز للنفس،
وفيه تحقيق للمأمول، وأداء عبادة عظيمة، وهي الرجاء* .

التوكل:
عبادة

التوكل: هو صدق التفويض والاعتماد على الله في جميع الأمور، وإظهار العجز والاستسلام له، وهو عبادة من العبادات، بل هو من أجل أنواع العبادة، وأعلى مقامات التوحيد، قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -: «التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، لأنه من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد، بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما في صفة السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، ولذلك أمر الله به في غير آية من القرآن، أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جعله شرطاً في الإيمان والإسلام، ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه»^(١)، وقال ابن القيم - رحمه الله -: «التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها»^(٢).

منزلة
التوكل

ومنزلة التوكل قبل منزلة الإنابة، قال ابن القيم - رحمه الله -: «منزلة التوكل قبل منزلة الإنابة، لأنه يتوكل في حصولها، فالتوكل وسيلة والإنابة غاية»^(٣). وقد جعل الله التوكل سبباً لنيل محبته قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وهو دليل على صحة إسلام المتوكل قال سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُومٌ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾.

حقيقة
التوكل

وحقيقته: تعلق القلب بالله والأخذ بالأسباب مع عدم الاعتماد عليها، قال ابن القيم - رحمه الله -: «وسر التوكل وحقيقته: هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ١٧٤.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١١٣.

(٣) مدارج السالكين ١/ ١٣٤.

.....
إليها، كما لا ينفعه قوله: «توكلت على الله» مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء آخر»^(١).

والتوكل محله السبب، وكماله بالتوكل قال ابن القيم - رحمه الله -:
«التوكل محله الأسباب، وكماله بالتوكل على الله، وهذا كتوكل الحرّاث الذي شق الأرض وألقى فيها البذر، فتوكل على الله في زرعه وإنباته، فهذا قد أعطى التوكل حقه»^(٢).

ويجب فعل الأسباب مع التوكل ولكن مع عدم الركون إليها، قال ابن القيم - رحمه الله -: «من أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها»^(٣) *.

(١) الفوائد ص ١٦٤.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/٣٦٤.

(٣) مدارج السالكين ٢/١٢٠.

توكل
الاضطرار
وتوكل
الاختيار

.....

والتوكل من حيث نوعه ينقسم إلى قسمين: توكل اضطرار، وهذا لا يتخلف عنه الفرج بإذن الله، وتوكل اختيار، قال ابن القيم - رحمه الله -: «التوكل تارة يكون توكل اضطرار وإلجاء، بحيث لا يجد العبد ملجأً ولا وَزْرًا^(١) إلا التوكل، كما إذا ضاقت عليه الأسباب وضاقت عليه نفسه وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير البتة، وتارة يكون توكل اختيار، وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد، فإن كان السبب مأموراً به ذم على تركه، وإن قام بالسبب وترك التوكل ذم على تركه أيضاً فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بهما والجمع بينهما، وإن كان السبب محرماً عليه مباشرة وتوحد السبب في حقه في التوكل فلم يبق سبب سواه، فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد، ودفع المكروه، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق، وإن كان السبب مباحاً نظرت، هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه؟ فإن أضعفه وفرّق عليك قلبك، وشئت همك، فتركه أولى، وإن لم يضعفه فمباشرة أولى، لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به، فلا تعطل حكمته»^(٢).

أقسام
التوكل:

وينقسم التوكل إلى توكل في الأمور الدنيوية، وتوكل في الأمور الدينية، قال ابن القيم - رحمه الله -: «التوكل على الله نوعان:

أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

(١) الوزر: الملجأ، وأصل الوزر الجبل المنيع وكل معقل وزر، وفي التنزيل العزيز: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، وكل ما التجأت إليه وتحصنت به فهو: وزر، والوزر: الحمل الثقيل، والوزر: الذنب لثقله.

لسان العرب ٥/ ٢٨٢.

(٢) الفوائد ص ١٦٣.

.....
والثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه، من الإيمان واليقين
والجهاد والدعوة إليه .

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتى توكل عليه العبد
في النوع الثاني حق توكله، كفاه النوع الأول تمام الكفاية، ومتى توكل عليه
في النوع الأول دون الثاني، كفاه أيضاً لكن لا يكون له عاقبة المتوكل فيما
يحبه ويرضاه، فأعظم التوكل عليه، التوكل في الهداية وتجريد التوحيد
ومتابعة الرسول ﷺ وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرسل عليهم الصلاة
والسلام وخاصة أتباعهم»^(١).

وإذا قوي توحيد العبد قوي توكله، قال ابن القيم - رحمه الله -: «لا
يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب،
فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد
يكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله، أخذ ذلك الالتفات
شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن
ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، وهذا حق، لكن
رفضها عن القلب لا عن الجوارح، فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن
القلب وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعاً منها متصلاً بها»^(٢).

فالتوكل عبادة قلبية، فإن اعتمد على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله
فذلك هو الشرك الأكبر .

وإن اعتمد على الأحياء الحاضرين من السلاطين ونحوهم فيما أقدرهم
الله عليه من رزق، أو دفع أذى ونحوه، فهو نوع شرك أصغر* .

متى يقوى
التوكل؟

التوكل
عبادة
قلبية
لا يصرف
لغير الله

(١) الفوائد ص ١٦٣ .

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١٢٠ .

ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾،
وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

(ودليل) أن (التوكل) عبادة لا يصرف إلا لله (قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾) لا على غيره (﴿فَتَوَكَّلُوا﴾) وفوضوا أموركم إليه (﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾) به، قال ابن القيم - رحمه الله - : «المعلق على الشرط يُعَدُّ عند عدمه، وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل، فمن لا توكل له لا إيمان له، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة»^(١).

جزء المتوكل ومن يعتمد على الله في أموره فهو كافيه كما في (قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾) ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه (﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾) وكافيه، قال ابن القيم - رحمه الله - : «ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدو، ولا يضره إلا أذى لا بد منه، كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء، وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه، وبين الضر الذي يتشفى به منه»^(٢).

ومن كان الله كافيه تيسرت أموره ولم يطمع فيه أحد، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له، هي التي تقوي العبد وتيسر عليه الأمور، ولهذا قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»^(٣).

ولم يذكر تعالى للتوكل جزاء غير تولي كفاية العبد، ولم يأت في أي

(١) مدارج السالكين ١٢٩/٢.

(٢) بدائع الفوائد ٤٦٥/٢.

(٣) الفتاوى ٣٢/١٠.

.....

عبادة من العبادات أن الله قال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، إلا في مقام التوكل، فدل على عظم شأن التوكل وفضيلته وأنه أجل أنواع العبادة وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ فلا يعجزه شيء أراده، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «وأما أرجح المكاسب: فالتوكل على الله والثقة بكفايته وحسن الظن به، وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه»^(١).

التوكل
الصادق

وراحة النفس في تفويض أمرها لخالقها، ويزداد تعلقها ببارئها إذا تذكرت أن الرب عليم بحالها، رحيم بأمرها، قدير على كشف ضررها، كريم يأجرها على مصيبتها ويخلف لها عوضاً خيراً مما فات عنها، وإذا صدق التوكل على الله تحققت المنى بأمر الله، قال ابن القيم - رحمه الله -: «ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله، فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه، إن لم يستعن به على طاعته»^(٢).

فعلق قلبك بالله عند طلب السلامة من الشرور، والعافية من الفتن، وحصول الرزق، ودخول الجنة، والنجاة من النار، مع الأخذ بالأسباب المشروعة، وإياك والتعلق بالمخلوق، فإنه عاجز عن كشف الضر، فتور في العطاء، والمخلوق وإن كان له نوع قدرة فلا يعتمد عليه ولو فيما أقدره الله عليه، بل يعتمد على الله وحده، فإن من اعتمد على حسيبه ذللاً، ومن اعتمد على عقله ضللاً، ومن اعتمد على ماله قللاً، ومن اعتمد على الناس ملأً.

(١) الفتاوى ١٠/٦٦٢.

(٢) مدارج السالكين ٢/١١٤.

.....

فاعتمد على الله وحده فإنه كافيك جميع أمورك، وهو متوليها إن ألقيت إليه حاجاتك، وسلّمت إليه مقاليد أمورك، وأحسن الظن به تعالى وتوكل عليه في جميع أمورك، تحقق عبادة من أجلّ العبادات، فلا ذلة ولا قلة فيمن توكل على الله* .

الرغبة هي : طلب الوصول إلى الشيء المحبوب .

والفرق بين الرغبة والرجاء :

أن الرجاء طمع والرغبة طلب ، فمن طمع في دخول الجنة مثلاً ، فطمعه هذا يسمى رجاء .

ومن طلبها بالعمل الصالح ، فإن طلبه لها هذا وسعيه إليها يسمى رغبة ، فكل رغبة رجاء .

قال ابن القيم - رحمه الله - : «والفرق بين الرغبة والرجاء : أن الرجاء طمع ، والرغبة طلب ، فهي ثمرة الرجاء ، فإنه إذا رجا الشيء طلبه ، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف»^(١) .

وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يرغب إليه وحده جلّ وعلا فقال : ﴿وَلِيَّ رَيْكَ فَارْغَبْ﴾ .

والرهبية : هي الخوف والفرع المثمر للهرب من المخوف ، فهي خوف مقرون بعمل ، قال ابن القيم - رحمه الله - : «وأما الرهبية فهي الإمعان في الهرب من المكروه ، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه»^(٢) .

والرغبة والرهبية لا تقوم إلا على ساق الصبر ، فرهبته تحمله على الصبر ، ورغبته تقوده إلى الشكر ، وعبادتا الرغبة والرهبية تنحسران عن العبد بقدر ذنوبه ، وتزيدان بزيادة إيمانه ، والعبد ينال التوفيق بإذن الله بقدر تلك العبادة ، قال ابن القيم - رحمه الله - : «إذا أراد بعبده خيراً ، وفقه لاستفراغ

(١) مدارج السالكين ٢ / ٥٥ .

(٢) مدارج السالكين ١ / ٥١٢ .

ودليل الرغبة والرغبة والخشوع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

وسعه، وبذل جهده في الرغبة والرغبة إليه، فإنهما مادتا التوفيق، فبقدر قيام
الرغبة والرغبة في القلب يحصل التوفيق»^(١).

والخشوع هو: الذل لعظمة الله، ويكون في القلب والجوارح، وهو
قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن.

الخشوع
عبادة لا
يصرف
إلا لله

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «والخشوع: الخضوع لله تعالى،
والسكون والطمأنينة إليه بالقلب والجوارح»^(٢).

وقال ابن القيم - رحمه الله -: «الخشوع محلله القلب، وثمرته على
الجوارح وهي تظهره»^(٣). وكلمة خشع القلب لله، كان أكمل له عبودية، قال
ابن القيم - رحمه الله -: «وأكمل الخلق عبودية، أكملهم ذلاً لله وانقياداً
وطاعة»^(٤).

ومن فضل الله على عباده، أن من رغب وطمع فيما عند الله أجر، ومن
رهب من عذاب الله آمنه الله، ومن خشع قلبه وجوارحه لله عاش عزيزاً في
الحياة، ولم يخضع لأحد من الخلق.

(ودليل) أن (الرغبة) فيما عند الله، (والرغبة) من عذابه، (والخشوع)
والخضوع له وحده، وأنها من أنواع العبادة، ما ذكره الله تعالى عن الأنبياء
والصالحين في معرض الثناء عليهم في (قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا
يُسْرِعُونَ﴾) ويسابقون ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والطاعات وعمل القربات،

دليل
أن الرغبة
والرغبة
والخشوع
عبادة

(١) شفاء العليل ص ٢٢٦.

(٢) الفتاوى ٣١/٢٨.

(٣) مدارج السالكين ١/٥٢١.

(٤) مفتاح دار السعادة ٢/٣٠٠.

وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٤﴾ .

(﴿وَيَدْعُونَنَا﴾) وحدنا، ويسألوننا الأمور المرغوب فيها، (﴿رَغَبًا﴾) فيما عندنا من الثواب، (﴿وَرَهَبًا﴾) منّا وممّا عندنا من العقاب، (﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾) خاضعين متذللين متضرعين، وذلك لكمال معرفتهم بربهم .

فدلت الآية على أن هذه الثلاثة الأنواع، الرغبة فيما عند الله، والرغبة من الله، والخشوع لله، عبادة من أجل أنواع العبادات، فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك* .

ودليل الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ .

الخشية:
عبادة

الخشية بمعنى الخوف إلا أن الخشية أخص من الخوف، لأن الخشية مقرونة بمعرفة الله قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال ابن القيم - رحمه الله -: «خشيته تعالى مقرونة بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية»^(١).

والخشية متضمنة للرجاء قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «والخشية أبداً متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطاً، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله»^(٢).

دليل أن
الخشية
عبادة لله

والخشية عبادة عظيمة لا تصرف إلا لله، (ودليل) أن (الخشية) عبادة من العبادات (قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾) فليسوا أهلاً للخشية (﴿وَاخْشَوْنِي﴾)؛ أمر الله بخشيته؛ لأن خشيته رأس كل خير، فمن لم يخش الله لم ينكف عن معصيته، ولم يمثل أمره، قال ابن القيم - رحمه الله -: «ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته، ومتى ترحلت الخشية من القلب، انقطعت هذه الوصل»^(٣).

ثمرة
الخشية

ومن خشي ربه رزقه الله حياة القلب وانتفع من المواعظ والعبر قال سبحانه: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾، وآثار الخضوع لله بادية على من يخشاه قال تعالى: ﴿نَفْسَعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، والهداية إنما هي وسيلة إلى الخشية، قال جلّ وعلا: ﴿وَاهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾، وهي موجبة لمغفرة الله وفضله العميم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾

(١) التبيان ص ٨٨.

(٢) الفتاوى ٧ / ٢١.

(٣) عدة الصابرين ص ٤٨.

وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١﴾ ، وموجبة لجنات النعيم قال عز وجل : ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ ﴿٢﴾ ، وأخشى الناس لله أعرفهم به ، والعالم حقاً هو من خشي الله قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ﴿٣﴾ ، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : « كل من خشي الله ، فهو عالم »^(١) ، وحسبك بالخشية علماً قال ابن مسعود رضي الله عنه : « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً »^(٢) ، وكل من خشيه فأطاعه بفعل أو امره وترك نواهيه فهو عالم كما قال تعالى : ﴿ آمَنَ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

ومن خشي ربه عاش بين الخلق عزيزاً ، وفي حياته سعيداً . فاجعل ربك بين ناظريك ، واخش الأمن من مكره وحلول عقوبته ، وأكثر من الطاعات لتنال خشيته تعالى ، وهو سبحانه أهل أن يخشى وقد أمر بخشيته وحده ، ونهى عن خشية من سواه قال سبحانه : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَتَّعْنِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

وخشية المخلوق من المخلوق ذلٌ وخضوع لمن لا يستحق الخضوع ، فلا تخش إلا ربك ، فالخشية عبادة عظيمة من أجل العبادات ، وصرفها لغير الله شرك* .

(١) الفتاوى ٧ / ١٧ .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة رقم (٣٤٥٣٢) ٧ / ١٠٤ .

الإنيابة:
عبادة

وتوجه القلب إلى الله بالإنيابة والرجوع إليه عبادة جلييلة يثاب عليها العبد .
والإنيابة: هي الرجوع إلى الله، وأصلها محبة القلب وخضوعه وذلك
للمحبيب المراد، قال ابن القيم - رحمه الله - : «الإنيابة: هي عكوف القلب
على الله عز وجل، كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك:
عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على
طاعته بالإخلاص له، والمتابعة لرسوله ﷺ»^(١).

الفرق
بين
الإنيابة
والتوبة

والإنيابة بمعنى التوبة ولكنها أعلى من التوبة، لأن التوبة إقلاع وعزم
على أن لا يعود وندم على ما مضى، فإن استمر على ما هو عليه من عباداته
فهو تائب، فإذا أقبل على الطاعات بعد توبته كقراءة القرآن والصدقة فهذه إنيابة
إلى الله، فمن تاب من السرقة مثلاً كان تائباً، فإذا أقبل على الطاعات بعد
التوبة كالاستغفار والذكر ونحوهما كان منيباً، فالإنيابة تدل على التوبة، وتدل
على الإقبال على الله بالعبادات .

والمصنف اقتصر على ذكر الإنيابة ولم يذكر التوبة من أنواع العبادة، لأن
صورة العبادة بالنسبة للإنيابة أوضح من صورتها بالنسبة إلى التوبة، بسبب زيادة
الإقبال على العبادة، ولأن الإنيابة أعم من التوبة .

والمنيب إلى الله هو المسرع إلى مرضاته، العائد إلى الله في كل وقت،
السباق إلى محابه، قال ابن القيم - رحمه الله - : «إنيابة أوليائه إنيابة لإلهيته إنيابة
عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال
عليه، والإعراض عما سواه، فالمنيب إلى الله المسرع إلى مرضاته الراجع إليه
كل وقت، المتقدم إلى محابه، لأن لفظ الإنيابة فيه معنى الإسراع والرجوع
والتقدم»^(٢) * .

(١) الفوائد ص ٣٤١ .

(٢) مدارج السالكين ١/٤٣٤ .

والإنابة إلى الله دأب الأنببابة والمرسلبن؁ علهم الصلاة والسلام؁ قال سبحانه عن داود ءالسلبؑ : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهٗ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾؁ وقال عن سلهمان ءالسلبؑ : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهٖ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾؁ وقال شعيب ءالسلبؑ : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهٖ أَنِيبُ ﴾؁ وقال نببنا محمد ءالسلبؑ : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهٖ أَنِيبُ ﴾؁ وأثنى الله على خلبه إبراهم ءالسلبؑ لاتبافه بالإنابة إليه والرجوع إليه في كل أمر؁ قال سبحانه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴾؁ والبشارة لأهل الإنابة قال جلّ وعلا : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾؁ ولا يعتبر بالآبابة؁ ولا يتعظ بالعبء إلا المنبب إلى ربه؁ قال عزّ وجلّ : ﴿ تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ . قال ابن القيم - رحمه الله - : «العبء إذا أناب إلى الله؁ أبصر مواقع الآبابة والعبء؁ فاستدل بها على ما هي آبابة له»^(١) . والإنابة إلى الله مانعة من عذاب الله قال عزّ وجلّ : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾؁ والجنة أعدت نزلاً للقلب الخاشع المنبب قال جلّ وعلا : ﴿ وَأزْلَمَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرِ بَعِيدٍ ﴾^(٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيطٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْبَاطِبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾؁ وأمر الله جمبع الخلق بالإنابة إليه والرجوع إليه؁ قال سبحانه : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهٖ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾؁ ومنزلة التوكل قبل منزلة الإنابة؁ لأنه يتوكل في حصولها؁ فالتوكل وسيلة والإنابة غاية .

والإنابة من أسباب سعادة العبء في الدارين؁ قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «العبء إنما خلق لعبادة ربه؁ فصلاحه وكماله ولذته وفرحه وسروره في أن يعبد ربه وينبب إليه»^(٢) . ولكون الإنابة منزلة عالية عند الله فإن الشيطان

(١) مدارج السالكين ١/٤٤٢ .

(٢) الفتاوى ٣٢/١٤ .

ودليل الإنابة قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾.

يسعى لصد العبد عنها، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «الشیطان یكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه، والتقرب إليه والاتصال به»^(١).

تفاوت
العباد
في
الإنابة

والإنابة عبادة يتفاوت العباد فيها، قال ابن القيم - رحمه الله - : «والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة، فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء والافتقار إليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه»^(٢).

والفطرة دالة على الإنابة، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «الفطرة تتضمن الإقرار بالله والإنابة إليه»^(٣).

(ودليل) أن (الإنابة) عبادة عظيمة أمر الله تعالى عباده بها في (قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾) بقلوبكم ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ بجوارحكم، فهو ظاهر في أنها عبادة وأنه يحبها شرعاً ودينياً، فصرها لغير الله شرك* .

(١) الفتاوى ٢٨١/٧.

(٢) طريق الهجرة ص ٢٩٢.

(٣) الفتاوى ٦/٢.

ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾،

الاستعانة:
عبادة

الاستعانة: طلب العون، وهي تجمع: الثقة بالله والاعتماد عليه، مع كمال الذل له، قال ابن القيم - رحمه الله -: «والاستعانة بالله تتضمن ثلاثة أمور: كمال الذل له، مع الثقة به، والاعتماد عليه، ومن استعان بغير الله محققاً هذه المعاني الثلاثة فقد أشرك مع الله غيره»^(١).

(ودليل) أن (الاستعانة) من أنواع العبادة (قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾) أي: نخصك وحدك بالعبادة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نفردك بالاستعانة دون خلقك، وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي، فالأول: تبرؤ من الشرك، والثاني: تبرؤ من الحول والقوة.

ومدار الدين على العبادة والاستعانة. والقيام بعبادة الله والاستعانة به، هما الوسيلة للسعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «الدين أن لا يعبد إلا الله ولا يستعان إلا به»^(٢). والعبادة من مقتضيات ألوهيته، والاستعانة من مقتضيات ربوبيته، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته، من المحبة والخوف والرجاء والأمر والنهي، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى ما اقتضته الربوبية، من التوكل والتفويض والتسليم»^(٣).

والاستعانة تكون على أمور المستقبل، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -:

(١) مدارج السالكين ١/٧٤.

(٢) الفتاوى ١١/٥٢٤.

(٣) الفتاوى ١/٨٩.

وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن بالله».

«فإن الاستعانة والتوكل إنما يتعلق بالمستقبل، فأما ما وقع فإنما فيه الصبر والتسليم والرضا»^(١).

كيفية
الوصول
إليها

والاستعانة عبادة عظيمة ومما يعين عليها قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «وقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» يوجب الإعانة، ولهذا سنّها النبي ﷺ إذا قال المؤذن: حي على الصلاة فيقول المجيب: «لا حول ولا قوة إلا بالله متفق عليه»^(٢)»، وقال أيضاً: «إن هذه الكلمة: - أي: «لا حول ولا قوة إلا بالله» - كلمة استعانة، لا كلمة استرجاع، وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعاً لا صبراً»^(٤). وأجمع الأدعية طلب العون على الطاعة، قال ابن القيم: «قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته، ثم رأيت في الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين»^(٥).

وبالاستعانة بالله تستغني عن الاستعانة بالخلق، وكمال غنى العبد في تعلقه بربه، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً، وقد أمر الأنبياء أقوامهم بالاستعانة بالله وحده قال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾، (و) أمر النبي ﷺ بالاستعانة بالله فقال (في الحديث) الذي رواه الترمذي: «إذا استعنت فاستعن بالله»^(٦)، قال ابن دقيق العيد - رحمه الله - : «بقدر ما يركن الشخص إلى غير الله تعالى

(١) الفتاوى ١٣/٣٢١.

(٢) الفتاوى ١٣/٣٢٢.

(٣) صحيح البخاري رقم (٥٨٨) ١/٢٢٢ من حديث معاوية رضي الله عنه، وصحيح مسلم رقم (٣٨٥) ١/٢٨٩ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) الفتاوى ١٠/٦٨٦.

(٥) مدارج السالكين ١/٧٨.

(٦) سنن الترمذي رقم (٢٥١٦) ٢/٣٨٥ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

بطلبه، أو بقلبه، أو بأمله، فقد أعرض عن ربه إلى من لا يضره ولا ينفعه، وكذلك الخوف من غير الله»^(١).

ولا بأس بالاستعانة بالمخلوق الحي على أمر قادر عليه، فإن كانت على بر وخير فهي إحسان، قال سبحانه: ﴿وَنَعَاوَنُوهُ عَلَىٰ آلِهِ وَالنَّفْثَىٰ﴾، وإن كانت على إثم فهي حرام، قال جلّ وعلا: ﴿وَلَا نَعَاوَنُوهُ عَلَىٰ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. وأما الاستعانة بالأموات، أو بالأحياء الغائبين، أو بالأحياء الحاضرين على أمر لا يقدر على، فهذا شرك.

والعبد ضعيف بنفسه لا غنى له عن عون الرب، ومن سعى في تحقيق مطلوبه وجب عليه أن يكون مستعيناً بالله متوكلاً عليه مفتقراً إليه في حصوله، ومن فضل الله على عباده أن من تعلق به منهم أعانه الله، فالاستعانة عبادة عظيمة عليها مدار الدين، على العبد تحقيقها وعدم التفريط فيها*.

(١) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد ص ١٢٢.

ودليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

الاستعاذة:
عبادة

الاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام والتحرز، وحقيقتها: الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه.

والاستعاذة بالله هي الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، واعتقاد كفايته، وتمام حمايته من كل شر.

وهي عبادة من العبادات التي أمر الله عباده بها كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَزُغْنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. قال في فتح المجيد: «وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله»^(١)، ولا عاصم في تفریح الكروب ورفع الخطوب سوى رب العالمين، والحياة مليئة بالآفات والمكاره، ولكل مخلوق أعداء من الجن والإنس وعلى مقدمتهم إبليس - لعنه الله - قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، وأخبر الله أن لكل نبي أعداء من الجن والإنس قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، وكذلك أتباع الرسل يتعرضون للابتلاء.

ولا غنى لأي مخلوق من الاحتماء بجناب الله والاعتصام بحماه من شرور الإنس و الجن ومن مكاره الحياة وآفاتها، ومن طلب العوذ من الله فقد رام عبادة جليلة أمر الله بها في أكثر من موضع في كتابه.

دليل أن
الاستعاذة
عبادة

(ودليل) أن (الاستعاذة) من أنواع العبادة (قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾) - يا أيها النبي متعوذاً، والخطاب أيضاً لجميع أمته -: ﴿أَعُوذُ﴾ أي: أَعْتَصِمُ وَالتَّجِيءُ ﴿بِرَبِّ﴾ وخالق ﴿الْفَلَقِ﴾ وهو الصبح، (و) قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ﴾ وخالق ﴿النَّاسِ﴾، وقد قال النبي ﷺ عن المعوذتين لعقبة بن عامر رضي الله عنه:

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ١٨٨.

«ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط، قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس» رواه مسلم^(١).

ويجب على المسلم أن يداوم على الاستعاذة بهما في صباحه ومساءه، فهي سبب في تحصينه من الشرور والآفات يومه وليلته، وقد أوصى النبي ﷺ عقبة بن عامر رضي الله عنه أن يتعوذ بهما وقال له: «تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما» رواه أبو داود^(٢)، قال ابن القيم - رحمه الله -: «حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين، أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس»^(٣).

والربُّ سبحانه متصف بالقوة والعزة، من اعتصم به لم يصله أذى أحد، وتخلف عنه الضرر ولو مع وجود أسبابه، قال عليه الصلاة والسلام: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء، حتى يرتحل من منزله ذلك» رواه مسلم^(٤)، قال القرطبي - رحمه الله -: «هذا خبر صحيح وقول صادق، علمنا صدقه دليلاً وتجربة، فإني منذ سمعت هذا الخبر، عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته فلدغني عقرب بالمهدية^(٥) ليلاً، فتفكرت في نفسي فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات»^(٦).

والمخلوق ضعيف يتعرض للأذى، لا يهنأ في حياته إلا بالاعتصام واللوذ بالله، ويجب على العبد أن يعلم أن الضرر والنفع بيد الله، وأن من سعى للإضرار بك لا يتحقق له مناه ما لم يشأ الله ذلك، قال عليه الصلاة

(١) صحيح مسلم رقم (٨١٤) / ١ / ٥٥٨.

(٢) سنن أبي داود رقم (١٤٦٣) / ٢ / ٧٣.

(٣) بدائع الفوائد / ٢ / ١٩٩.

(٤) رقم (٢٧٠٨) / ٤ / ٢٠٨١ من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

(٥) المهدية: مدينة عامرة ببلاد الأندلس.

(٦) فتح المجيد ص ١٩٠.

.....

والسلام: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذي^(١)، وقد ذكر الله ما ضرره ظاهر متحقق في رأي العبد وهو السحر، ومع ذلك فقد يتخلف عنه الضرر قال سبحانه: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بَاذِنَ اللَّهُ﴾.

فالاستعاذة بالله عبادة من أجل العبادات، أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يستعيذ بفالق الإصباح من شر جميع المخلوقات، ومن شر الغاسق والساحر والحاسد، والقادر على إزالة هذه الظلمة عن العالم، هو القادر أن يدفع عن المستعيذ ما يخافه ويخشاه.

الاستعاذة
بالمخلوق

ولا بأس بالاستعاذة بالمخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه؛ لحديث جابر بن عبد الله ﷺ أن امرأة من بني مخزوم سرقت فأتي بها النبي ﷺ فعازت بأم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «والله لو كانت فاطمة لقطعت يدها فقطعت» رواه مسلم^(٢)، قال في تيسير العزيز الحميد: «المخلوق يطلب منه ما يقدر عليه ويستعاذ به فيه، بخلاف ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يستعاذ فيه إلا بالله»^(٣).

أما الاستعاذة بالأموات، أو بالغائبين الأحياء، أو بالأحياء الحاضرين على أمر لا يقدر عليه، فهذا شرك أكبر كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتَ كَانَ مِنْ أَلَانِسٍ يَعْوَّذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنَّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

فاجعل مسألتك واستعاذتك بالله وحده، فلا عاصم من المهالك سواه، ولا جالب للنفع غيره*.

(١) رقم (٢٥١٦) ٢/٣٨٥ من حديث عبد الله بن عباس ﷺ.

(٢) رقم (١٦٨٩) ٣/١٣١٦.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٢١١.

ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

الاستغاثة: هي طلب الإغاثة والغوث، وهو طلب الإنقاذ من الضيق والشدة.

الاستغاثة:
عبادة

قال ابن القيم - رحمه الله -: «الاستغاثة لا تكون إلا بعد الذعر»^(١).

والفرق بين الدعاء والاستغاثة:

الفرق بين
الاستغاثة
والدعاء
والاستعاذة

أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب.

وأما الدعاء فهو أعم، يكون من المكروب ومن غيره، فهي أخص أنواع الدعاء، فإن دعاء المكروب يقال له: استغاثة.

والفرق بين الاستغاثة والاستعاذة:

أن الاستعاذة: تطلب منه أن يعصمك وأن يمنعك وأن يحصنك.

وأما الاستغاثة: فهي أن تطلب منه أن يزيل ما حل بك من شدة.

والاستغاثة تتضمن: كمال الافتقار إلى الله، واعتقاد كفايته، وهي من أفضل الأعمال وأكملها، والمرء في هذه الحياة عرضة للمكروب والكوارث، فمن استغاث بربه في كشف ملماته فقد أدى عبادة عظيمة فزع إليها الأنبياء والصالحون عند الشدائد ففرج الله كربهم.

(ودليل) أن (الاستغاثة) عبادة (قوله تعالى: ﴿إِذْ﴾) أي: اذكروا نعمة الله عليكم لما قارب التقاؤكم بعدوكم فقمتم ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وتطلبون منه المدد والعون والنصر ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وذلك يوم بدر حين نظر النبي ﷺ إلى كثرة المشركين وجعل يهتف بربه ويناشده، ويطلب منه الغوث ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فأمده الله بالنصر على عدوه، فقتلوا وأسروا وظهر الإسلام وسمي يوم الفرقان.

(١) بدائع الفوائد ١/٦٠.

استغاثه
شركية

فدلت الآية على أن الاستغاثه عبادة من أجل العبادات، وأن صرفها لغير الله - كأن يستغاث بالأصنام، أو الأموات، أو الغائبين، أو نحوهم - شرك به تعالى، قال ابن القيم - رحمه الله -: «ومن أنواعه - أي: الشرك - طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثه بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن استغاث به وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله»^(١)، وهذه الاستغاثه لا نفع منها سوى الحسرة والندامة، وصاحبها يجري خلف سراب لن يتحقق له مُبتغاه، ففي الدنيا خاسر وفي الآخرة هالك، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «يقول أبو يزيد - رحمه الله -: استغاثه المخلوق بالمخلوق كاستغاثه الغريق بالغريق»^(٢).

فمن دعا غير الله والتجأ إليه من الأموات، أو الأحياء الغائبين فلن يتحقق له مطلوبه ولو عكف على استغاثته سنين، قال سبحانه: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَكَوْ سَمِعُوا مَا أَسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

استغاثه
جائزه

والاستغاثه بالأحياء الحاضرين القادرين على الإغاثة جائزه فيما يقدرون عليه، قال تعالى في قصة موسى ﷺ: ﴿فَاسْتَعِثْهُ الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ﴾، أما إنزال وطلب الحوائج منهم وهم غير قادرين، أو من الأموات، أو الغائبين، فهي شرك بالله.

فإذا حلت بك الخطوب، واشتدت بك الكروب، فاستغث بعلام الغيوب، فبيده مقاليد السموات والأرض قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾*.

(١) مدارج السالكين ١/٣٤٦.

(٢) الفتاوى ١٤/٢٩.

ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٢﴾ .

الذبح:
عبادة

الذبح لله من أجل الطاعات، ومن أفضل العبادات المالية، وأمانة على صدق الإيمان وسمو النفس لله، لأن الحيوان المذبح محبوب لأربابه، فإذا بذله لله متقرباً به إلى الله، وسمحت نفسه بإذاعة الحيوان الموت، صار أفضل من مطلق العبادات المالية، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «وما يجتمع في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين وحسن الظن به أمر عجيب»^(١) من ظهور حلاوة الإيمان على القلب.

(ودليل) أن (الذبح) عبادة عظيمة لله (قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ﴾) تعبدي بـ ﴿صَلَاتِي﴾ أي: صلواتي ﴿وَنُسُكِي﴾ بالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله، وخص هاتين العبادتين، لشرفهما وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله وإخلاص الدين له، فالصلاة من أجل العبادات البدنية، والنحر من أجل العبادات المالية، ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله وأقواله.

﴿وَمَحْيَايَ﴾ أي: ما آتية في حياتي، ﴿وَمَمَاتِي﴾ أي: ما أدخره عند الله بعد مماتي.

كل ذلك ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ومعبودهم ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير.

﴿وَبِذَلِكَ﴾ أي: بإخلاص تلك الأعمال لله ﴿أُمِرْتُ﴾ أمراً حتماً يجب عليّ امتثاله، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة، فإن من سخر جسده بالتعبد لله وماله بذبح القرابين لربه فهو المسلم حقاً، وقد أمر الله رسوله ﷺ بإخلاص تلك العبادتين له لفضلهما فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ أي: صلّ واذبح لله لا

(١) الفتاوى ١٦/٥٣٢.

ومن السنة: «لعن الله من ذبح لغير الله».

لغيره، فكما أن الصلاة لا يجوز أن تؤدى لغير الله، فكذلك الذبح لا يجوز إلا لله وحده.

صور
من الذبح
الشركي

ومن هانت عليه نفسه، فصرف عبادته لغير الله، بأن ذبح للأصنام، أو للقبور، تعظيماً لها، أو خوفاً منها، أو التماساً لشفاعة أربابها، أو في طريق قدوم سلطان، أو لنحو ذلك، فقد وقع في الشرك، ولو كان المذبح بعيراً، أو بقرة، أو شاة، أو دجاجة، أو أصغر من ذلك، (و) قد جاء الوعيد الشديد فيمن فعل ذلك (من السنة) في قوله ﷺ: «لعن الله»، واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله (من ذبح) وأراق الدماء (لغير الله)» رواه مسلم^(١).

فمن استحوذ عليه الشيطان وقدم القرابين لغير خالقه، فقد كفر النعمة، وهضم جناب ربوبية الله، وتنقص ألوهيته، وعظم غير خالقه، وتعرض لوعيد الله بلعنه وطرده، لجرم ما ارتكبه من إراقة الدماء بالذبح لمخلوق لا يستحق أن يصرف له أي شيء من أنواع العبادة*.

(١) رقم (١٩٧٨) ٣/١٥٦٧ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بلفظ: «لعن الله من ذبح لغير الله»، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غير المنار».

ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ .

النذر: إيجاب المكلف على نفسه ما ليس واجباً عليه بأصل الشرع، وهو عبادة يجب إخلاصها لله .

النذر:
عبادة

(ودليل) أن (النذر) عبادة لا يصرف إلا لله (قوله تعالى) في معرض الثناء على من وقى بالنذر: ﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ بما ألزموا به أنفسهم من النذور، وإذا كانوا يؤفون بما هو غير واجب في الأصل عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم، ففعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية من باب أولى وأحرى، وهو سبحانه لا يثني إلا على فاعل عبادة .

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ عسيراً ﴿كَانَ شَرُّهُ﴾ أي: ما فيه من الأهوال ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ ومنتشراً وقاسياً على الناس إلا من رحم الله، والمسلم قلبه معلق بالله، لا يصرف أي نوع من العبادة لغير الله، بل يؤدي جميع العبادات على وجهها، وإن أوجب على نفسه شيئاً بالنذر فيما لم يوجب الشارع الحكيم عليه لم ينذر إلا لله، لقول النبي ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه» رواه البخاري (١) .

ومن صرف النذر لغير الله، فقد صرف عبادة من العبادات لغير الله، ووقع في الشرك وهو أعظم من الحلف بغير الله، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «فمن نذر لغير الله فهو مشرك، أعظم من شرك الحلف بغير الله» (٢) .

النذر
أعظم من
الحلف

ومن نذر لمخلوق لم ينعقد نذره ويحرم عليه الوفاء به قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «النذر للقبور، أو لأحد من أهل القبور - كالنذر لإبراهيم الخليل، أو للشيخ فلان، أو فلان، أو لبعض أهل البيت، أو غيرهم -

(١) رقم (٦٣١٨) / ٦ / ٢٤٦٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) الفتاوى ١٢٣ / ٣٣ .

.....

نذر معصية لا يجب الوفاء به باتفاق أئمة الدين بل ولا يجوز الوفاء به ، فإنه قد ثبت في الصحيح^(١) عن النبي ﷺ أنه قال : «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه» رواه البخاري» ا. هـ^(٢) .

وكيف تصرف العبادة لمخلوق لا يملك نفعاً ولا يدفع ضرراً ؟ هذا من أعظم البهتان!! والنذر لا يصرف إلا لله ، وإن نذر لله في طاعة وجب الوفاء به ، وعقد النذر لله ابتداءً مكروهه ، وأخبر النبي ﷺ أنه «لا يقدم شيئاً ، ولا يؤخره ، وأنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل» متفق عليه^(٣) ، ولكن إن نذر لا يحل له أن ينذر إلا لله فحسب ، لأن النذر عبادة* .

(١) أي صحيح البخاري رقم (٦٣١٨) / ٦ / ٢٤٦٣ من حديث عائشة رضي الله عنها كما سبق .

(٢) الفتاوى ١٤٧/٢٧ .

(٣) صحيح البخاري رقم (٦٢٣٤) / ٦ / ٢٤٣٧ ، وصحيح مسلم رقم (١٦٣٩) / ٣ / ١٢٦١ من حديث ابن

عمر رضي الله عنهما .

الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة،

معرفة
دين
الإسلام
بالأدلة

يجب على الإنسان معرفة ثلاثة أصول، الأصل الأول: معرفة العبد ربه، وقد بين المؤلف - رحمه الله - فيه: أن ربنا هو الله وهو معبودنا وحده، وعرفناه بآياته ومخلوقاته، وذكر بعض أنواع العبادة وأنها لا تصرف إلا لله، وأن صرف أي شيء منها لغيره شرك به تعالى.

ويذكر المصنف - رحمه الله - هنا (الأصل الثاني) من أصول الدين التي ينبنى عليها، وهو (معرفة دين الإسلام) العظيم الذي خلقنا الله لندين به، وتعبدنا بالقيام به.

ويجب معرفة هذا الدين مع أصوله التي ينبنى عليها (بالأدلة) من الكتاب والسنة، ليكون الإنسان على نور وبرهان وبصيرة من دينه، فإن لم يكن على بصيرة من دينه، فإنه يخشى عليه في حياته وبعد مماته عند سؤال الملكين إذا سألاه في القبر أن يحصل له الشك، فيجيب بالجواب السيئ فيقول: «هاه، هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»^(١)، بخلاف من يعرف أدلة دينه من الكتاب و السنة، وكان على القول الثابت في الدنيا عاملاً بالدين، فإنه حري به أن يقول عند سؤال الملكين: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد ﷺ^(٢)، فإن من أسباب الثبات عند السؤال معرفة الدين بالحجج من

(١) كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وفيه: «فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه لا أدري فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه، هاه لا أدري فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري فينادي مناد من السماء أن كذب فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر فيقول: أنا عمك الخبيث فيقول: رب لا تقم الساعة». رواه أحمد رقم (١٨٥٥٧) ٤/٢٨٧.

(٢) كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وفيه: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أفنان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام =

وهو: الاستسلام لله بالتوحيد،

الكتاب والسنة، والعمل به .

تعريف
الإسلام

(و) دين الإسلام الذي ندين الله به (هو: الاستسلام لله) بالذل والخضوع له تعالى، بإفراده بالربوبية والخلق والتدبير، وإفراده تعالى (بالتوحيد) بجميع أنواع العبادة .

وحقيقة دين الإسلام: هو أن يسلم العبد أفعاله لله لا لغيره، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «حقيقة الإسلام: أن يستسلم لله لا لغيره، وهو معنى لا إله إلا الله»^(١) .

والمسلم سمي مسلماً، لخضوع جوارحه لطاعة ربه، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «الإسلام هو: الاستسلام، وهو يتضمن الخضوع لله وحده، والانقياد له، والعبودية لله وحده»^(٢) .

= حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون يعني بها على مألأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال: فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله فيقولان له ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت، فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي» رواه أحمد رقم (١٨٥٥٧) ٤/٢٨٧ .

(١) الفتاوى ٤/٢٤٥ .

(٢) الفتاوى ٧/٢٤٧ .

والانقياد له بالطاعة،

فالمستسلم لله ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر، ومن استكبر عن الحق ابتلاه الله باتباع الباطل، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل، فيكون المستكبر مشركاً كما ذكر الله»^(١).

والإسلام له رأس وهو الشهادتان، وله ضدان: الكبر والشرك، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «الإسلام الذي هو دين الله، الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله عليهم الصلاة والسلام، وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين، فيستسلم لله وحده لا شريك له، ويكون سالماً له بحيث يكون متألهاً له غير متأله لما سواه، كما بينه أفضل الكلام ورأس الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وله ضدان: الكبر والشرك، ولهذا روي أن نوحاً عليه السلام أمر بنبيه بلا إله إلا الله وسبحان الله ونهاهم عن الكبر والشرك في حديث قد ذكرته في غير هذا الموضوع، فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبد، فلا يكون مستسلاً له، والذي يعبد ويعبد غيره يكون مشركاً به، فلا يكون سالماً له، بل يكون له فيه شرك، ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والسلامة التي هي الإخلاص»^(٢).

رأس
الإسلام
وضداه

(و) مع ذل العبد وخضوعه لله يجب عليه (الانقياد) والإذعان (له) جللاً وعلا (بالطاعة) بفعل المأمورات وترك المنهيات امتثالاً لأمر الله قال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وقوله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم، كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» متفق عليه^(٣).

الطاعة
من
الإسلام

(١) الفتاوى ٦٢٩/٧.

(٢) الفتاوى ٦٢٣/٧.

(٣) صحيح البخاري رقم (٦٨٥٨) ٦/٢٦٥٨، وصحيح مسلم رقم (١٣٣٧) ٢/٩٧٥ من حديث أبي

هريرة رضي الله عنه.

.....

وأعلى المراتب كمال الانقياد، ومن لم يتقد لهذا الدين أذله الله، قال ابن القيم - رحمه الله - : «من تواضع لله رفعه، فكذلك من تكبر على الانقياد للحق أذله الله ووضعه، وصغره وحقره»^(١).

والكبر من أعظم أسباب منع الانقياد لهذا الدين، قال ابن القيم رحمه الله - وهو يذكر موانع الانقياد - : «السبب الثالث: قيام مانع، وهو إما حسد أو كبر، وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر، وهو داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله، وبه تخلف الإيمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحة نبوته، ومن جرى مجراهم»^(٢) * .

(١) مدارج السالكين ٢/٣٣٣.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/٩٩.

والبراءة من الشرك وأهله،

ومما يجب على المسلم اعتقاده وفهمه والعمل به، أن الإسلام هو إفراد الله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، (والبراءة) أي: أن يتبرأ المسلم (من) أعمال وأقوال (الشرك) ويعتقد بطلانها، (و) يتبرأ من (أهله) في الاعتقاد والعمل والمسكن، بل من كل خصلة من خصالهم، ومن كل نسبة من النسب إليهم، ويكون معادياً لهم غير متشبه بهم في قول أو فعل.

فدين الإسلام يقوم على ثلاثة أسسٍ يجب على المسلم أن يأتي بها
مجتمعة:

- ١ - الاستسلام لله بالتوحيد.
- ٢ - الانقياد له بالطاعة.
- ٣ - البراءة من الشرك وأهله.

لا إسلام
بلا براء

الأسس
التي
يقوم
عليها
الإسلام

والبراءة من الشرك وأهله أحد ركني التوحيد الذي يبني عليه، إذ التوحيد قائم على ركنين لا يحصل التوحيد إلا بهما، ولا يكون العبد موحداً إلا باجتماعهما معاً، وهما النفي والإثبات، ومن فقد أحدهما فقد التوحيد، فتنفي العبودية عن غير الله، وتثبت العبودية لله وحده، قال سبحانه مخبراً عن إبراهيم عليه السلام أمراً بالتأسي به: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فهذا هو الركن الأول وهو البراءة من الشرك وأهله، وقوله تعالى بعدها: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ هذا هو الإثبات وهو الركن الثاني، وكقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ هذا هو البراءة أي: النفي، ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ هذا هو الإثبات.

فكلمة التوحيد معناها: لا معبود بحق إلا الله، فمن كان يصلي ويصوم ويحج ويتصدق، ولكن يقر الشرك ويصحح معتقد المشركين فليس بمسلم، لأنه لم يتبرأ من الشرك وأهله، فيجب الجمع بين البراءة من المشركين، وبين

الإيمان بالله بإفراد العبودية له وحده، فالذي يصلي وهو واقع في الشرك لا تنفعه صلاته، لأنه لم يتطهر من الشرك.

وجوب
محبة
المسلم
لدينه

ويجب على العبد مع معرفته لهذا الدين، محبته له، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «القلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقاً به، وديناً له، لكن يعرض لها ما يفسدها، ومعرفة الحق تقتضي محبته، ومعرفة الباطل تقتضي بغضه، لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل، لكن قد يعرض لها ما يفسدها، إما من الشبهات التي تصدها عن التصديق بالحق، وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه»^(١).

ويجب على كل مسلم أن يعتز بدينه، فدينه هو الحق وما سواه من الأديان فهو باطل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعلن ذلك للناس في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. فمن هداه الله لهذا الدين فليفرح بنعمة الله عليه بالهداية، وليستمسك به، فقوة العبد وعزته بالدين، وليدعو الناس إليه فهو طريق العباد إلى النعيم قال سبحانه: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾*.

(١) الفتاوى ٥٢٨/٧.

وهو ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان

(وهو) أي: الدين على (ثلاث مراتب) - أي: منازل - : (الإسلام) مرتبة، (والإيمان) مرتبة، (والإحسان) مرتبة، وأهل دين الإسلام لا يخلو حالهم من إحدى هذه المراتب، وقد ينتقل المسلم من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها، أو أدنى منها على قدر طاعته لله .

مراتب
الدين

وأول تلك المراتب الإسلام، وأوسطها الإيمان، وأعلىها الإحسان، ومن وصل إلى العليا فقد وصل إلى ما قبلها، فالمحسن مؤمن، والمؤمن مسلم، وأما المسلم فلا يلزم أن يكون مؤمناً، قال أبو سليمان الخطابي - رحمه الله - : «فأكثر ما يغلط الناس في هذه المسألة»^(١) .

العلاقة
بين
الإسلام
والإيمان
والإحسان

فالمرتبة الأولى: هي مرتبة الإسلام وهي أوسعها، وهي أقل مراتب الدين، وهي المرتبة الأولى التي يدخل فيها الكافر أول ما يتكلم بالإسلام ويذعن له وينقاد قال سبحانه: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لِّمَ تُوْمِنُوْا وَلَكِنْ قَوْلًا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوْبِكُمْ﴾ ، ولا يُخْرِجُ الْعَبْدَ عَنِ مَرْتَبَةِ الْإِسْلَامِ إِلَّا الْكُفْرَ بِاللَّهِ وَالشِّرْكَ الْمَخْرُجَ مِنَ الْمِلَّةِ .

والمرتبة الثانية: هي مرتبة الإيمان، وهي التي تلي مرتبة الإسلام في العلو، وهي أضيق من مرتبة الإسلام .

وكل خصلة من خصال الإيمان داخله في الإسلام، قال ابن أبي شيبة - رحمه الله - : «لا يكون إسلام إلا بإيمان، ولا إيمان إلا بإسلام»^(٢) .

فما كان من الأعمال الباطنة، فوصف الإيمان عليه أغلب من وصف الإسلام، وما كان من الأعمال الدينية الظاهرة، كالشهادتين والصلاة وأنواع العبادات التي تظهر ويطلع عليها الناس فوصف الإسلام عليها أغلب من

(١) شرح النووي على مسلم ١/١٤٤ .

(٢) تعظيم قدر الصلاة للمروزي رقم (٥٨٣) ٢/٥٢٨ .

وصف الإيمان. فدائرة الإسلام أوسع من دائرة الإيمان، كما أن دائرة الإيمان أوسع من دائرة الإحسان.

والمرتبة الثالثة: هي مرتبة الإحسان وهي أعلى من مرتبة الإيمان، وهي أضيّق المراتب، وأهلها أقل من أهل مرتبتي الإيمان والإسلام، وهي مرتبة عالية عزيزة لا يرتقي إليها إلا عباد الله المحسنون.

وهذا التفصيل لمراتب الدين أخبر به النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور^(١) وجاء به أيضاً القرآن الكريم، فجعل الأمة على هذه الأوصاف الثلاث فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان هو ظالم لنفسه، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذي أدى الواجب وترك المحرم، والسابق بالخيرات هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه، أو يعبد ربه كأن ربه يراه.

والناس يتفاضلون في التوحيد تفاضلاً عظيماً، وهم فيه على درجات بعضها أعلى من بعض، فممنهم من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وممنهم من يدخل النار وهم العصاة الذين لم يشأ الله أن يغفر لهم وعاملهم بعدله، فيمكثون فيها على قدر ذنوبهم ثم يخرجون منها، لأجل ما في قلوبهم من التوحيد والإيمان*.

(١) سيأتي في ص ١٥٩.

وكل مرتبة لها أركان، فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله،

(وكل مرتبة) من مراتب الدين الثلاث (لها أركان) لا تقوم إلا عليها، ومراتب الدين لا تتم إلا بأركانها.

أركان
المرتبة
الأولى

(فأركان الإسلام خمسة) أركان لا يستقيم إلا بها، ولا يثبت بدونها، وهي ما ذكره النبي ﷺ في قوله: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان» متفق عليه^(١). قال ابن رجب - رحمه الله -: «والمراد من هذا الحديث، أن الإسلام مبني على هذه الخمس، فهي كالأركان والدعائم لبنائه، والمقصود تمثيل الإسلام ببنيان، ودعائم البنيان هذه الخمس، فلا يثبت البنيان بدونها، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان، وهو قائم لا ينقض بنقص ذلك، بخلاف نقص هذه الدعائم، فإن الإسلام يزول بفقدها جميعاً بغير إشكال، وكذلك يزول بفقد الشهادتين»^(٢).

وقدم الأهم فالأهم من أركان الإسلام، فبدأ بقطبها وهي (شهادة) ومعنى الشهادة: الاعتقاد الجازم، وأطلق على الاعتقاد لفظ الشهادة، لبيان أنه لا بد من الاعتقاد الجازم، حتى كأنك تشاهد الذي تعتقده، والذي تعتقده وتشهد به هو (أن لا إله) معبود بحق (إلا الله)، وتعتقد وتشهد (أن محمداً رسول الله) ﷺ أرسله الله للناس كافة بشيراً ونذيراً.

معنى
الشهادة

وهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه، فإن أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر، هو الإيمان بالوحدانية والرسالة، وهو شهادة

(١) صحيح البخاري رقم (٨) ١١/١ - ١٢، ورقم (٤٢٤٣) ٤/١٦٤١، وصحيح مسلم رقم (١٦)

٤٥/١ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) جامع العلوم والحكم ٤٣/١.

.....

أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، قال ابن القيم - رحمه الله - :
«أصل عقد التوحيد وإثباته، هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول
الله ﷺ»^(١)، وهي مفتاح الجنة قال النبي ﷺ: «مفتاح الجنة شهادة أن لا إله
إلا الله»^(٢). قال ابن القيم - رحمه الله - : «فإن الشهادة أصل المفتاح، والصلاة
وبقية الأركان أسنانه التي لا يحصل الفتح إلا بها، إذ دخول الجنة موقوف
على المفتاح وأسنانه»^(٣)، قيل لو هب بن منبه - رحمه الله - : «أليس لا إله إلا
الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح
له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك»^(٤).

العلاقة
بين
الشهادتين

وجعلت الشهادتان ركناً واحداً ولم تجعل شهادة أن لا إله إلا الله ركناً،
وشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ركناً ثانياً، لأن هاتين الشهادتين أساس صحة
الأعمال وقبولها، إذ لا يقبل العمل ولا يكون صحيحاً إلا بأمرين:

١ - الإخلاص لله .

٢ - المتابعة للرسول ﷺ .

فإذا وجد الإخلاص تحققت شهادة أن لا إله إلا الله، وإذا وجدت
المتابعة تحققت شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ، ولأن الرسول مبلغ عن الله،
فالشهادة له بالرسالة والعبودية من تمام شهادة أن لا إله إلا الله، فالثانية تكملة
للأولى، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «ودين الإسلام مبني على أصليين،
وهما: تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ»^(٥).

(١) شفاء العليل ص ٢٨٨.

(٢) رواه البزار من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه رقم (٢٦٦٠) / ٧ / ١٠٣.

(٣) الصلاة وحكم تاركها ص ٦٦.

(٤) رواه البخاري تعليقاً ١ / ٤١٧.

(٥) الفتاوى ١ / ٣١٠.

وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

(و) الركن الثاني من أركان الإسلام: (إقام الصلاة) أي: أداؤها في وقتها تامة بشروطها وأركانها وواجباتها.

(و) الركن الثالث: (إيتاء الزكاة) أي: أداء ما افترض الله على العبد من الزكاة.

(و) الركن الرابع: (صوم) شهر (رمضان) بالإمساك عن سائر المفطرات، من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، ممن يجب عليه الصيام.

(و) الركن الخامس: (حج بيت الله الحرام) أي: قصد بيت الله الحرام لأداء شعيرة الحج* .

فدليل الشهادة قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ

لما ذكر المصنف - رحمه الله - أركان الإسلام، شرع في ذكر دليل كل ركنٍ فقال:

دليل شهادة أن لا إله إلا الله (فدليل الشهادة) أي: شهادة أن لا إله إلا الله (قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾) وشهادته سبحانه هي أعظم شهادة في الوجود قال سبحانه: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلْ اللَّهُ﴾ وشهد سبحانه على أجل مشهود عليه، وهو ما شهد به تعالى: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يستحق العبادة ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ شهدوا بأنه لا إله إلا هو، كما شهد الله لنفسه المقدسة بذلك.

﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ أي: أصحاب ﴿الْعِلْمِ﴾ شهدوا بذلك أيضاً، فجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة، وهذا فيه أعظم حاث على طلب العلم، فإن الله ذكر شهادته وشهادة الملائكة وشهادة أهل العلم، ففي هذه الشهادة رفعة لأهل العلم، حيث شهدوا على ما شهد به رب العالمين، وأي ثناء أشرف من هذا الثناء عليهم وتعديلهم، وجعلهم حجة على من أنكرها، دال على فضل العلم، والمراد به العلم الشرعي، الذي هو نور القلوب وقوتها، وغيره علم نسبي إضافي، إما إلى أمور دنيوية، أو علوم حسابية وصناعية، أو غير ذلك، وأهله ليسوا من أهل العلم الذين ذكر الله شهادتهم، فلا يطلق هذا العلم إلا على العلم الشرعي الديني.

﴿قَائِمًا﴾ منصوب على الحال ﴿بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل، أي: قائماً بالعدل في جميع الأحوال.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق، ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يرام جنبه

الْحَكِيمُ، ومعناها لا معبود بحق إلا الله،

عظمة وكبرياء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

(ومعناها) أي: ومعنى كلمة التوحيد، لا إله إلا الله (لا معبود) يستحق العبادة (بحق)، ويجب أن يؤتى في بيان معناها بهذا القيد وهو كلمة «بحق»، لأن المعبودات من دون الله كثيرة ولكنها معبودات باطلة، كعبادة أهل القبور والأشجار والأصنام، قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ فلا أحد منهم يستحق العبادة، بل عبادتهم باطلة، ولا يستحق العبادة (إلا الله) وحده .

معنى
أن لا إله
إلا الله

فالله هو المعبود بحق، وكل مألوه سوى الله فإلهيته أبطل الباطل، وهذا هو معنى لا إله إلا الله، نفي الإلهية عن غير الله، وإثباتها لله وحده .

وليس معناها لا موجود إلا الله، أو لا يخلق ولا يرزق إلا الله، فإن هذه المعاني لإثبات توحيد الربوبية ولا تثبت وحدانية الله الذي هو إفراد الله بجميع أنواع العبادة الذي أرسلت الرسل وأنزلت الكتب في تقريره وإيضاحه .

وتوحيد الربوبية قد أقر به المشركون، كأبي جهل وأضرابه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأُمُورَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي: أنه الذي يفعل ذلك، ولم ينازعوا فيه، ولا امتنعوا من الإقرار به، بل احتج تعالى عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية فقال: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَنْقُونُ﴾ أي: الشرك به في عبادته، فإنهم يعرفون معناها وأنها دلت على إفراد الله بالعبادة، ولهذا أنكروا أن يكون الله هو المعبود وحده، لأنهم عرفوا مدلولها، فإن الإله هو الذي تأله القلوب، وتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء، فالتوحيد الذي جاءت به الرسل، هو إفراد الربِّ بالتأله، الذي هو كمال الذل والخضوع والانقياد له، مع كمال المحبة والإنابة، وبذل الجهد في طاعته

المشركون
مقرون
بتوحيد
الربوبية

ومرضاته، وإيثار محابه ومراده الديني على محبة العبد ومراده، فهذا أصل دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإليه دعوا الأمم، وهو التوحيد الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو الذي أمر به رسله عليهم الصلاة والسلام، وأنزل به كتبه، ودعا إليه عباده، وخلق الله الجنة والنار دار الثواب والعقاب لأجله، وشرع الشرائع لتكميله وتحصيله، قال ابن رجب - رحمه الله -: «والإله هو الذي يطاع فلا يعصى، هيبته له، وإجلالاً ومحبةً وخوفاً، ورجاءً وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عزَّ وجل، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية، كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول لا إله إلا الله، ونقصاً في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك»^(١) *.

(١) كلمة الإخلاص ص ٢٣.

(لا إله) نافيةً جميع ما يعبد من دون الله (إلا الله) مثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه .

وكلمة التوحيد لا إله إلا الله، تشتمل على أمرين هما ركناهما: النفي والإثبات، ف (لا إله) معناها (نافياً) العبد (جميع ما يعبد من دون الله) من القبور والأشجار والأحجار وغيرها، فالموحد يعتقد ويقول: أنا لا أعبد أيّ معبودٍ كان إلا الله فهو الذي أعبدته وحده .

ومعنى (إلا الله) أي: (مثبتاً العبادة لله وحده) فلا أعبد أحداً غيره، وهو سبحانه (لا شريك له في عبادته) وألوهيته (كما أنه) جلّ وعلا (لا شريك له في ملكه) وربوبيته، أي: فكما أنه سبحانه المتفرد في ملك هذا الكون لا شريك له فيه، فواجب أن يفرد في العبادة، فإن من أظلم الظلم أن يجعل المخلوق الذي ليس شريكاً لله في الملك، شريكاً لله في العبادة - تعالى الله وتقدس -، ولهذا يحتج تعالى على من أنكر ألوهيته بما أقر به من ربوبيته .

فإن المشرك إذا أثبت الربوبية لله عزّ وجلّ، لزمه من هذا، أن يثبت له الألوهية، فكيف ثبت بأنه هو المتفرد في الملك، ولا نثبت له أنه المتفرد في الوجدانية ونصرف العبادة إلى غيره! .

فتوحيد الربوبية هو الدالُّ على توحيد الألوهية ومستلزم له، ولهذا قال: «كما أنه لا شريك له في ملكه» .

فلا إله إلا الله اشتملت على أمرين: هما ركناهما: النفي «لا إله»، والإثبات «إلا الله» .

والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات المحض ليس بتوحيد، فلا بد من الجمع بينهما .

ولكلمة التوحيد ثمانية شروط، يجب الإتيان بها مجتمعة مع النطق بها، ومن أخل بشيء منها فقد أخل بدينه، وهذه الشروط هي:

ركنا
كلمة
التوحيد

شروط
كلمة
التوحيد

١ - العلم بمعناها المراد منها نفيًا وإثباتًا، المنافي للجهل بمعانيها ومقتضياتها، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بلا إله إلا الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما نطقت به ألسنتهم، وقال عليه الصلاة والسلام: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة» رواه مسلم^(١).

٢ - اليقين بما دلت عليه، المنافي للشك بما تدل عليه، بأن يكون قائلها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن، فكيف إذا دخله الشك؟! قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله، كونهم لم يرتابوا، وقال النبي ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقي الله بها عبد غير شاك فيها إلا دخل الجنة» رواه مسلم^(٢)، ويقول عليه الصلاة والسلام: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مستيقنًا بها قلبه، فبشره بالجنة» رواه مسلم^(٣).

٣ - القبول لمدلولات ومقتضيات هذه الكلمة بقلبه ولسانه، المنافي للرد، وقد قص الله علينا انتقامه ممن ردها وأبأها، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَأْتُرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فكان سبب عذابهم، هو استكبارهم عن قبول تلك الكلمة.

(١) رقم (٢٦) ٥٥/١ من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) رقم (٢٦) ٥٥/١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رقم (٣١) ٥٩/١ - ٦٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

.....

٤ - الانقياد لمعانيها ومقتضياتها من الأوامر والنواهي ، المنافي للترك لما دلت عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : ينقاد ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ موحد ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ ، وقال النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » رواه ابن أبي عاصم في السنة^(١) . وهذا هو تمام الانقياد وغايته * .

(١) رقم (١٥) / ١٢ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

٥ - الإخلاص في الإيمان بها وما تدل عليه، المنافي للشرك، كأحوال المرأين وغيرهم، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾، وقال: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾، وقال سبحانه عن المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْضَعُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، ويقول النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه أو نفسه» رواه البخاري^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله» متفق عليه^(٢).

٦ - الصدق في اعتقادها في الباطن، المنافي للكذب بما اعتقده فيها، كحال المنافقين الذين يكذبون في اعتقادهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾، وقال سبحانه فيمن أدخل بهذا الشرط: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، صدقاً من قلبه، إلا حرمه الله على النار» متفق عليه^(٣). فاشتراط في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار، أن يقولها صدقاً من قلبه، فلا ينفعه مجرد التلفظ بدون مواطاة القلب.

٧ - المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، المنافية لضعدها قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، وعلامة

(١) البخاري رقم (٩٩) ٤٩/١.

(٢) البخاري رقم (٤١٥) ١٦٤/١، ومسلم رقم (٦٥٨) ٤٥٥/١.

(٣) البخاري رقم (١٢٨) ٥٩/١، ومسلم رقم (٣٢) ٦١/١.

.....

حب العبد ربه، تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» رواه ابن أبي عاصم في السنة^(١).

٨ - الكفر بما سوى الله من المعبودات، والبراءة من الشرك وأهله قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾، وقد جمعت هذه الشروط في قولهم:

علم يقين إخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لها
وزيد الشرط الثامن في قولهم:

وزيد ثامنها الكفران منك بما سوى الإله من الأشياء قد ألهها^(٢)

ولا يشترط حفظها وعدّها، وإنما معرفتها والإتيان بمقتضاها، قال حافظ الحكمي - رحمه الله -: «معنى استكمالها: اجتماعها في العبد والتزامه إياها، بدون مناقضة منه لشيء منها، وليس المراد من ذلك عد ألفاظها وحفظها، فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له: اعددها لم يحسن ذلك؟ وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها؟ والتوفيق بيد الله»^(٣).

ومن قال لا إله إلا الله وعرف معناها، ولكنه ارتكب شيئاً من نواقض الإسلام كالشرك أو تولي المشركين أو السحر أو غير ذلك من النواقض فإنه يخرج من الدين ولو كان يقول لا إله إلا الله، إذ لا بد من العمل بمقتضاها وبما دلت عليه والبعد عن نواقضها، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(١) رقم (١٥) ١٢/١ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) الدروس المهمة لابن باز رحمه الله ص ١.

(٣) معارج القبول ١/٣٧٧.

.....

- رحمه الله -: «العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة»^(١) * .

(١) القواعد الأربع ص ١ .

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾،

(وتفسيرها) أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله (الذي يوضحها) وبينها بياناً تاماً، ما ذكره الله في كتابه في ﴿قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾﴾ إمام الحنفاء: ﴿إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿وَقَوْمِهِ﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم، قال لهم: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ أي: بريء ومبغض ومجتنب ومعادي لكم يا أهل الشرك، وكذلك بريء ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله من الآلهة، وهذا فيه معنى «لا إله».

تفسير
شهادة
أن لا إله
إلا الله

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: ابتداء خلقي فإني أعبده، وفيه معنى «إلا الله» فاستثنى من المعبودين ربه.

﴿فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي﴾ يرشدني لدينه القويم، وصراطه المستقيم، بالهداية للعلم والعمل بالحق، كما فطرني ودبرني بما يصلح لديني ودنياي. وقد أمرنا الله أن نتأسى به في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: وجعل الخليل إبراهيم عليه السلام، كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وما تضمنته من إخلاص جميع أنواع العبادة لله وحده، والتبرؤ من عبادة كل ما سوى الله ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ ونسله وذريته ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إليها ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيقتدون بمن هداه الله من ذريته إليها. قال ابن القيم - رحمه الله -: «أمرنا تعالى أن نتأسى بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته»^(١).

فتبين أن معنى كلمة لا إله إلا الله، هي البراءة من عبادة كل ما سوى

(١) مدارج السالكين ٣/ ٤٨٤.

وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦءَ شَيْئًا

الله، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله وحده، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «فإن الله أمر العباد كلهم، أن يعبدوه مخلصين له الدين، وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، فلا يقبل من أحد ديناً غيره قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾»^(١).

ولا إله إلا الله تتضمن: النفي والإثبات، ومن اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فقد أخطأ، فإن لكلمة التوحيد نواقض تخرج المرء عن الدين ولو كان يقول لا إله إلا الله ويعلم معناها.

من تلفظ بالشهادة فقط لا يدخل الجنة

وقد بين تعالى معنى لا إله إلا الله في آيات كثيرة منها قوله جلّ وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا۟ إِلَّا إِيَّاهُ﴾، وقوله عزّ وجل: ﴿وَأَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦءَ شَيْئًا﴾.

(و) منها أيضاً (قوله) تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم من المشركين.

﴿تَعَالَوْا۟﴾ أقبلوا وهلموا ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ واحدة لا غير ﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: عدل وإنصاف لا يختلف فيها رسول ولا كتاب، نستوي نحن وأنتم في فرضيتها ووجوبها علينا وعليكم، وهي التي يدعو الرسل أقوامهم إليها وهي:

﴿أَلَّا نَعْبُدُ﴾ ولا نوحده ولا نفرد العبادة لأحدٍ ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وحده جلّ وعلا، ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦءَ شَيْئًا﴾ لا وثناً ولا صنماً ولا صليباً ولا غيرها، بل

(١) الفتاوى ١/١٨٨.

وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٣٤﴾ .

نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ .

وقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (أي: لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله كما فعلت اليهود والنصارى .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾) وأدبروا وأعرضوا عن الإجابة إلى إفراد الله بالعبادة ﴿فَقُولُوا﴾) يا أمة محمد ﷺ: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾) مخلصون لله بالتوحيد، ثابتون على الإسلام الذي شرعه الله لنا ولو خالفتمونا، وصرحوا لهم أنكم مسلمون وأنهم كفار، وأنكم براء منهم وهم براء منكم، وهذا دال على أنه لا بد أن يبين ذلك للكفار، حتى يتفهموا ويتحققوا أنهم ليسوا على دين، وأن دين الإسلام خلاف دينهم الذي هم عليه . وأن دينهم خلاف دين الإسلام .

وهذه الآية الكريمة كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ بها في الركعة الثانية من سنة الفجر، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، فقد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام، وحوّت توحيد الإلهية الذي هو عبادة الله وحده، وأن يعتقدوا أن البشر وجميع الخلق لا يستحق أحد منهم شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية، فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا، وإلا فهم في ضلالهم يعمهون* .

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾،

دليل
شهادة
أن محمداً
رسول
الله ﷺ

(ودليل شهادة أن محمداً رسول الله) من القرآن (قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾) أي: من جنسكم، تعرفون نسبه وصدقه، ليس من الملائكة ولا من الجن، بل بشر تتمكنون من مجالسته ومؤاكلته والحديث معه، وقد نال أجل الصفات فيكم، من الأمانة والصدق والكرم وحسن الخلق، ومن كان كذلك فإن النعمة بإرساله إلى العباد تكون أكبر وأعظم.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾) أي: يشق عليه كل أمر يعنت أمته، أو يشق عليها ويدخلها في الآصار والأغلال.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾) بهدايتكم وإنقاذكم من النار.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾) وعطوف عليهم ومحب لهم كل خير.

ومن الأدلة على أن محمداً رسول الله، شهادة الله له بأنه رسول من عنده قال جلّ وعلا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

وقد أيده سبحانه بالآيات الباهرة الدالة على صدقه، وأعظمها القرآن الكريم الذي أعجز أهل الأرض بفصاحته وبلاغته.

ومن البراهين على صدقه، نصر الله لمن اتبعه ولو كانوا أضعف الناس، وخذلان الله من عاداه وعقوبته في الدنيا ولو كانوا أكثر الناس وأقواهم.

وشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ليس المقصود بها هو التلفظ بها فقط، بل التلفظ والعمل بما اقتضاه معناها، قال ابن القيم - رحمه الله -: «الشهادة

.....

لرسول الله بأنه نبي، لا تدخل الإنسان في الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته، فشهادة عمه أبي طالب له بأنه صادق وأن دينه من خير أديان البرية ديناً لم تدخله هذه الشهادة في الإسلام، ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة، من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق، ولم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام وراء ذلك، وأنه ليس هو المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً»^(١) *.

(١) زاد المعاد ٣/٦٣٨.

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

معناها

(ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله):

(طاعته فيما أمر) من الواجبات والمستحبات، وقد قرن الله طاعته بطاعة الرسول ﷺ، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

(وتصديقه فيما أخبر) به من أخبار الأمم الماضية، أو الأمور المستقبلية، فأخبره حق وصدق لا كذب فيها ولا خلف، قال ابن القيم - رحمه الله -: «الإيمان يرجع إلى أصليين: طاعة الرسول ﷺ فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر»^(١).

المتابعة
للنبي ﷺ
تعظم
التوحيد
في النفس

(واجتناب ما عنه نهى وزجر) أي: اجتناب كل ما نهى عنه وحذر منه قال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وقال ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» متفق عليه^(٢). ويجب أن يعظم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد، وكلما ابتعد المرء عن السيئات وعمل الصالحات كان محققاً للشهادتين، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «وكلما كان الرجل أتبع لمحمد ﷺ كان أعظم توحيداً لله وإخلاصاً له في الدين، وإذا بعد عن متابعتة نقص من دينه بحسب ذلك، فإذا أكثر بعده عنه، ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول ﷺ»^(٣).

(وأن لا يعبد الله إلا بما شرع) سبحانه في كتابه وما جاء به رسوله ﷺ،

(١) أحكام أهل الذمة ٤٥١/٢.

(٢) صحيح البخاري رقم (٦٨٥٨) ٦/٢٦٥٨، وصحيح مسلم رقم (١٣٣٧) ٢/٩٧٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الفتاوى ٤٩٨/١٧.

.....
لا نعبد بالآهواء والبدع، قال الزهري - رحمه الله - : «من الله الرسالة، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم»^(١).

فأول ما يجب على العبد، معرفة معنى الشهادتين مع النطق بها بلسانه، وأن يعمل بما دلت عليه، ومن علم معناها وعمل بمقتضاها فهو السعيد حقاً، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «أسعد الخلق وأعظمهم نعيماً وأعلاهم درجةً، أعظمهم اتباعاً وموافقة له علماً وعملاً»^(٢).

فجماع دين الإسلام، أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعبده بما شرعه سبحانه وتعالى، من الواجبات والمستحبات والمندوبات، ومن سلك غير طريق المصطفى ﷺ لم يفتح له الباب، قال الجنيد - رحمه الله - : «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه»^(٣) *.

(١) صحيح البخاري تعليقاً رقم (٤٦) ٦/٢٧٣٨.

(٢) الفتاوى ٤/٢٦.

(٣) مدارج السالكين ٣/١٢١.

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ .

ودليل الصيام قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبًا

دليل
الصلاة
والزكاة
وتفسير
التوحيد

(ودليل) أن (الصلاة) المفروضة، (والزكاة) من أركان الإسلام، ودليل (تفسير التوحيد) الذي هو الأساس الذي لا يستقيم إسلام عبد إلا به:

(قوله تعالى): ﴿وَمَا أُمْرُوا﴾ أي: الكفار في جميع الأزمان ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه.

﴿حُنَفَاءَ﴾ أي: ماتلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وواجباتها في أوقاتها، وهي أشرف عبادات البدن.

﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة، وفيها إحسان إلى الفقراء والمحاييج، وخصَّ الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، لفضلهما وشرفهما.

﴿وَذَلِكَ﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هو ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: الملة القائمة، والشريعة العادلة المستقيمة، المعتدلة على الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم.

دليل
الصيام

(ودليل) أن (الصيام) في شهر رمضان المبارك أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا يستقيم الإسلام إلا بها:

(قوله تعالى): ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبًا﴾ أي: فرض، وذلك في السنة

عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ .
 ودليل الحج قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ .

الثانية من الهجرة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا أمة محمد ﷺ ﴿الصِّيَامُ﴾ في شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ وفرض ﴿عَلَى﴾ الأمم ﴿الَّذِينَ﴾ سلفوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ .

ومن حكمة فرض الصيام على جميع الأمم: لتنال النفوس التقوى، لذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لما فيه من زكاة النفس وتطهيرها وتنقيتها من الأخلاق الرديئة، وفيه تنشيط لهذه الأمة، بأنه ينبغي لها أن تنافس غيرها في تكميل الأعمال، والمشاركة إلى صالح الخصال.

(ودليل) أن (الحج) هو الركن الخامس من أركان الإسلام: (قوله) تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: يجب على الناس التعبد لله، ومن ذلك ﴿حِجُّ﴾ وقصد ﴿الْبَيْتِ﴾ الحرام الذي في مكة المكرمة على ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ﴾ الوصول ﴿إِلَيْهِ﴾ من المكلفين ﴿سَبِيلًا﴾ بالقدرة على الذهاب بنفسه، وملك الزاد والراحلة، ووجود المحرم للمرأة.

دليل
الحج

﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بعبادة ربه وأعرض عنها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ﴾ عبادة جميع ﴿الْعَالَمِينَ﴾ بل إنهم هم المحتاجون إليه، وهو سبحانه غني عنهم كما قال سبحانه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ * .

المرتبة الثانية: الإيمان، وهو بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق،

المرتبة
الثانية:
الإيمان

(المرتبة الثانية): من مراتب الدين مرتبة (الإيمان)، والإيمان: هو قول واعتقاد وعمل، قول اللسان، واعتقاد القلب، وعمل الجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فدخل فيه جميع المأمورات من الواجبات أو المستحبات، ودخل فيه ترك جميع المنهيات، فما من خصلة من خصال الطاعات إلا وهي من الإيمان، ولا ترك محرّم من المحرمات إلا وهو من الإيمان.

والإيمان (بضع وسبعون شعبة) هذا هو لفظ الحديث الذي رواه مسلم^(١)، ورواه البخاري بلفظ «بضع وستون»^(٢). وورد عند مسلم^(٣) برواية أخرى بالشك «بضع وستون أو بضع وسبعون» قال ابن حجر - رحمه الله -: «إن المعول على المتيقن وهو الأقل وهو بضع وستون»^(٤).

والبضع: من الثلاثة إلى التسعة.

والشعبة: الطائفة من الشيء والقطعة منه.

شعب
الإيمان

والشعبة من شعب الإيمان يدخل تحتها أفراد من النخصال، وكل خصلة من خصال الخير فهي من شعب الإيمان، (فأعلاها) وأجلها وأساسها كلمة التوحيد (قول: لا إله إلا الله) فهي كلمة الإخلاص وكلمة الإسلام، وهي العروة الوثقى، وكلمة التقوى، وأساس الملة، ومفتاح الجنة.

(وأدناها) أي: أدنى شعب الإيمان (إمطة) أي: إزالة (الأذى عن الطريق) من شوكٍ وحجرٍ ونحو ذلك مما يتأذى المارُّ به.

(١) رقم (٣٥) ٦٣/١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رقم (٩) ١٢/١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رقم (٣٥) ٦٣/١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) فتح الباري ٥٢/١.

والحياء شعبة من الإيمان .

(والحياء شعبة من) شعب (الإيمان) أي : بعض منه .

والحياء : غريزة يحمل المرء على فعل ما يجمل ويزين ، ويمنعه من فعل ما يندس ويشين ، وأخبر النبي ﷺ أن الحياء لا يأتي إلا بخير متفق عليه^(١) .

وإنما جعله بضعة؛ لأن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي؛ ولأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار وانتهاء، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان، والحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً، بل هو خاصة الإنسانية، وفي الحديث: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» رواه البخاري^(٢) .

ومرتبة الإيمان أعم من مرتبة الإسلام من جهة نفسها وأخص من جهة أصحابها .

وأهل الإيمان هم خواص أهل الإسلام، وأهل الإسلام أكثر من أهل الإيمان بخلاف العكس قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ . فإن من حكمت له النصوص أنه مؤمن فإنه مسلم على كل حال، فإن الإيمان وصف أعلى من وصف الإسلام، لأنه مشتق من الأمن فهو من الأمور الباطنة الذي يؤتمن عليه ويكون خفية، والإسلام من الأمور المدركة المحسوسة في الظاهر، مشتق من التسليم، أو من المسالمة .

فإذا أطلق الإيمان في النصوص دخل فيه الإسلام، وإذا أطلق الإسلام لم يدخل فيه الإيمان، ومن أثبت له الإيمان في النصوص فإنه ثابت له الإسلام .

الإيمان
وصف أعلى
من الإسلام

(١) صحيح البخاري رقم (٥٧٦٦) ٥/٢٢٦٧، وصحيح مسلم رقم (٣٧) ١/٦٤ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

(٢) رقم (٥٧٦٩) ٥/٢٢٦٨ من حديث أبي مسعود رضي الله عنه .

.....

والمسلم لا بد أن يكون معتقداً أركان الإيمان الستة ليصح إسلامه، وإلا كان منافقاً، وإذا كان المسلم معتقداً أركان الإيمان الستة وأخلَّ بغيرها من واجبات الإيمان، فإنه لا يستحق أن يثنى عليه الشاء المطلق - يعني: الكامل -؛ لأن إيمانه ناقص، جاء في الدرر السنية: «ومن تأمل النصوص تبين أن الناس يتفاضلون في التوحيد والإيمان تفاضلاً عظيماً، وذلك بحسب ما في قلوبهم من الإيمان بالله والمعرفة الصادقة والإخلاص واليقين»^(١) *.

(١) الدرر السنية ١/٢٠٧.

وأركانها ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته،

أركان
الإيمان

(وأركانها) أي: أركان الإيمان وأصوله التي يُبنى عليها، والتي يزول بزوالها (ستة) أركان، ويكون بزوال الواحد من تلك الستة كافراً كفوفاً يخرج عن الملة، وما عداها من الشعب لا يزول بزواله، لكن منها ما يزول بزواله كمال الإيمان الواجب، ومنها ما يزول بزواله كمال الإيمان المندوب. والركن الأول من أركان الإيمان: (أن تؤمن بالله).

والإيمان بالله أعظم أركان الإيمان وأساسه، وما بعده من الأركان مندرج في هذا الركن وهو أصل الأصول، ويتضمن الإيمان بربوبية الله وبألوهيته وبأسمائه وصفاته.

والإيمان بربوبية الله: هو إفراد الله بأفعاله، من الخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة وغير ذلك من أفعاله تبارك وتعالى. فنؤمن أنه لا يحيي ولا يميت، ولا يخلق ولا يرزق سواه، وهذا هو توحيد الربوبية.

والإيمان بتوحيد الألوهية: هو إفراد الله بأفعال العباد فلا يصرف العبد أي عبادة لغير الله جلّ وعلا، من الطواف والدعاء وغير ذلك من أنواع العبادة، ونؤمن بأن عبادة من سواه عبادة باطلة.

والإيمان بتوحيد الأسماء والصفات: هو إثبات ما أثبتته الله لنفسه، من الأسماء والصفات، وما أثبتته له رسوله ﷺ منها، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل نؤمن بأن الله ليس كمثل شيء وهو السميع البصير.

(و) الركن الثاني من أركان الإيمان الستة: أن تؤمن به (ملائكته).

والإيمان بالملائكة: أن تؤمن بجميع الملائكة، وأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، نؤمن بهم إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي، وتعييناً في التعيين، كما ورد في الكتاب والسنة، كجبريل

وميكائيل وإسرافيل ومالك ومملك الموت، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، وهم عالم غيبي خلقوا من نور، وعددهم كثير لا يحصيهم إلا الله.

(و) الركن الثالث: أن تؤمن بـ (كتبه).

والإيمان بالكتب يقتضي: الإيمان بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء من السماء، إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي، ويفصل الإيمان بالقرآن والزبور والتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى، ونؤمن بأن الكتب السابقة كلها منسوخة بالقرآن العظيم، وهي غير موجودة الآن وما يُزعم وجوده فهو محرّف، فلا يجوز العمل بشيء منها ولا التحاكم إليها، فإن التحاكم والعمل لا يجوز إلا إلى القرآن العظيم وما جاء في سنة النبي محمد ﷺ قال سبحانه: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَردُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

(و) الركن الرابع من أركان الإيمان: أن تؤمن بـ (رسله).

والإيمان بالرسل يقتضي: الإيمان بجميع الرسل إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي، فنؤمن بمن جاء تفصيلهم في الكتاب والسنة على التعيين، وأعظم ذلك الإيمان بنبينا محمد ﷺ، وممن يؤمن بهم تفصيلاً، أولوا العزم من الرسل، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ونؤمن بغيرهم ممن سمى الله في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، ونؤمن بمن لم يسم في النصوص، ولا نفرق بين أحد منهم في الإيمان كما قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾، والإيمان بهم فرض، وهو التصديق بأنهم رسل الله إلى عباده، صادقون فيما أخبروا به عن الله، وأنهم بلغوا عن الله رسالاته، وبينوا للمكلفين ما أمرهم الله به، وهم بشر مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء.

(و) الركن الخامس : أن تؤمن بـ (اليوم الآخر).

والإيمان باليوم الآخر هو: التصديق بيوم القيامة وما يكون بعد الموت في القبر، من العذاب والنعيم، وما في الآخرة من الحساب والميزان، والجنة والنار، وأنهما دار ثوابه وجزائه للمحسنين والمسيئين، وأكبر ذلك وأعظمه الإيمان ببعث هذه الأجساد وإعادتها كما كانت أجساداً بعظامها وأعصابها، حتى يقع الثواب على هذا الجسد والروح جميعاً، على ما فعلا من طاعة الله، أو يعاقبا على المعاصي التي صدرت منهما جميعاً، فتؤمن بأن الذي أوجد هذا الجسد وانفرد بخلقه يبعثه حياً ويعيده كما كان* .

وتؤمن بالقدر خيره وشره،

(و) الركن السادس من أركان الإيمان: أن (تؤمن بالقدر) أي: بما قدره الله وكتبه من (خيره) أي: بما فيه من الخير والسرور، (وشره) أي: بما فيه من الشر والأحزان.

مراتب
القدر

والإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بأربع مراتب يجب اعتقادها والإيمان بها:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله بالأشياء قبل حدوثها. فإن الرب علم بعلمه السابق ما هو كائن وما سيكون كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾، وقال النبي ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» رواه مسلم^(١).

المرتبة الثالثة: الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يقع في ملك الله إلا ما أَرَادَهُ اللهُ سبحانه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله أوجد جميع الخلق، وأن ما في الكون بتقدير الله وإيجاده قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾.

ولا يصير المرء مؤمناً بالقدر إلا بالإيمان بهذه الأربعة الأشياء، وقد جمعها الناظم في قوله:

(١) رقم (٢٦٥٣) ٤/٢٠٤٤ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

.....

علمٌ كتابة مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجادٌ وتكوينٌ
فيجب على العبد أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم
يكن ليصيبه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «واعلم أن ما أصابك لم يكن
ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك» رواه أبو داود^(١).
والمؤمن بالقدر يفوض أموره كلها لله، ولا يعتمد على السبب نفسه،
لأن كل شيء بقدر الله، وإيمانه بذلك يثمر له الطمأنينة والراحة بما يجري عليه
من أقدار الله، لأن ذلك بقدر الله الذي له ملك السموات والأرض، قال عليه
الصلاة والسلام: «عجباً لأمر المؤمن، كلُّه خير» رواه مسلم^(٢).*

(١) رقم (٤٦٩٩) ٢٢٥/٤ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) رقم (٢٩٩٩) ٢٢٩٥/٤ من حديث صهيب رضي الله عنه.

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ﴾،

أدلة
أركان
الإيمان

(والدليل على هذه الأركان) أي: أركان الإيمان (الستة) وأنه لا يستقيم إيمان العبد إلا بها جميعاً، وأنه متى انتفى واحد منها لم يكن المرء مؤمناً (قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ﴾)، نزلت هذه الآية حين أمر الله المؤمنين بالتوجه أولاً إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، وامتنال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى أي جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، ولهذا قال:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد ﴿أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ امتثال أوامر الله، واتباع ما شرع، وأعظمه ما ذكر في هذه الآية أو هذه أنواع البر كلها وبدأ بالإيمان بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ أي: ولكن البر الإيمان بالله، أو ولكن البر من آمن بالله، أو ذا البر بر من آمن بالله أي: بتفرده جلّ وعلا بالربوبية والألوهية والأسماء الحسنى والصفات العليا، إذ هو أصل الأصول.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت، من بعث الخلائق وإعادة الأجساد كما كانت، ورد الأرواح إليها، وجمع الأولين والآخرين ليوفى كل عامل ما عمل.

﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه ووصفهم رسوله ﷺ.
﴿وَالْكِتَابِ﴾ وهو اسم جنس يشمل جميع الكتب المنزلة من السماء

ودليل القدر قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيم على ما قبله من الكتب ونسخها جميعها.

﴿وَالنَّبِيِّنَ﴾ عموماً، وخصوصاً خاتمهم محمد ﷺ.

(ودليل) أن (القدر) ركنٌ من أركان الإيمان لا يستقيم إيمان عبد إلا به (قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾) وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية.

دليل
القدر

﴿خَلَقْنَاهُ﴾ نحن لا خالق لها سوانا.

﴿يَقْدِرُ﴾ أي: أن ما خلقناه مقدر مكتوب في اللوح المحفوظ، بما سبق به علمنا، وجرى به قلمنا، بوقته ومقداره وجميع ما اشتمل عليه من الأوصاف.

وبعض الناس لا يرضى بما قسمه الله له من خير، ويقدم بما كتب عليه من شر تسخطاً على ربه، قال ابن القيم - رحمه الله -: «أكثر الخلق، بل كلهم إلا من شاء الله، يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامناً كُموُن النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعباً على القدر، وملامة له، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك؟!»^(١) * .

(١) زاد المعاد ٣/٢٣٥.

المرتبة الثالثة : الإحسان،

المرتبة
الثالثة:
الإحسان

(المرتبة الثالثة) من مراتب الدين: مرتبة (الإحسان) وهو نهاية الإخلاص، والإخلاص إيقاع العمل على أكمل وجوهه في الظاهر والباطن، وهذا هو الإحسان، ولذا يفسر الإحسان بالإخلاص.

واشتقاقه من الحسن الذي هو نهاية الإخلاص في القلب، ومن حيث الظاهر كمال المتابعة.

وتفسيره بالإخلاص تفسير له بنتيجته وثمرته، فإن من اتصف بذلك فإنه يكمل العمل في الظاهر والباطن، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «الإحسان ههنا هو فعل المأمور به، سواء كان إحساناً إلى الناس أو إلى نفسه، فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله تعالى والإقبال إليه والتوكل، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابةً وحياءً ومحبةً وخشيةً، فهذا هو مقام الإحسان»^(١).

وقال ابن دقيق العيد - رحمه الله - : «حاصله: - أي: الإحسان - راجع إلى إتقان العبادات، ومراعاة حقوق الله تعالى ومراقبته، واستحضار عظمته وجلالته حال العبادات»^(٢).

دوائر
الدين

والإحسان أعلى المراتب وأعمها من جهة نفسها، وأخصها من جهة أصحابها، كما أن الإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه، ولهذا يقال كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً، وإذا أطلق الإحسان فإنه يدخل فيه الإيمان والإسلام، فإن الإسلام والإيمان والإحسان دوائر، أوسعها دائرة الإسلام، ثم يليها في السعة الإيمان، ثم أضيقتها الإحسان، كدوائر كل واحدة منها محيطة بالأخرى، ومعلوم أن من كان في

(١) الفتاوى ١٥/١٠.

(٢) شرح الأربعين لابن دقيق العيد ص ٤٣.

.....

دائرة الإحسان فهو داخل في الإسلام والإيمان، وإذا خرج عن الأول فهو داخل في الثانية وهي دائرة الإيمان، وإذا خرج عنها فهو داخل في الثالثة وهي دائرة الإسلام، ومن خرج عن هذه الدوائر الثلاث فهو خارج إلى غضب الله وعقابه، وداخل في دوائر الشيطان - والعياذ بالله -، فظهر بالتمثيل بهذه الدوائر صحة قول من يقول: كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً، فلا يلزم من دخوله في الإسلام أن يكون داخلياً في الإحسان والإيمان، وليس المراد أن من لم يكن في الإحسان والإيمان كافراً، بل يكون مسلماً ومعه من الإيمان ما يصحح إسلامه، لكن لا يكون مؤمناً بالإيمان الكامل الذي يستحق أن يثنى عليه به الثناء المطلق - أي: الكامل -، أما مجرد الثناء فهو يستحقه بقدر ما معه من الإيمان، فإنه لو كان مؤمناً بالإيمان الكامل لمنعه من المعاصي والمحرمات، وقد قيل للنبي ﷺ: «أعطيتهم وتركت فلاناً وهو مؤمن فقال: أو مسلماً» رواه أحمد^(١)، وقال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» متفق عليه^(٢)، وقال ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه» متفق عليه^(٣). فالنصوص لم تنف عنهم الإسلام، بل أثبتت لهم أحكام الإسلام من عصمة الدم وغيرها.

فأهل الإحسان هم خواص أهل الإيمان، كما أن أهل الإيمان هم خواص أهل الإسلام، فإن أهل الإحسان كملوا عبادة الله إلى أن وصلوا إلى حد المراقبة، وأهل الإحسان هم الصفوة وهم الخالص من عباد الله المؤمنين.

أهل
الإحسان

(١) المسند رقم (١٥٧٩) ١/١٨٢ من حديث سعد بن مالك.

(٢) صحيح البخاري رقم (٦٧٧٢) ٤/٢٤٥، وصحيح مسلم رقم (٥٧) ١/٧٦ - ٧٧ من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) صحيح البخاري رقم (٥٦٧٠) ٥/٢٢٤٠، وصحيح مسلم رقم (٤٦) ١/٦٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

.....

ومما يعين على الوصول إلى مرتبة الإحسان كثرة ذكر الله، قال ابن القيم - رحمه الله -: «إنه - أي: الذكر - يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت»^(١).

ومراقبة الله هي أصل الأعمال القلبية، قال ابن القيم - رحمه الله -: «المراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامها به»^(٢).*

(١) الوابل الصيب ص ٥٢.

(٢) إعلام الموقعين ٤/٢٠٣.

ركن واحد وهو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢٧) الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢٨﴾ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ

والإحسان (ركن واحد).

ركن
الإحسان

وهو: (أن تعبد الله) أي: تتعبد الله بأي عبادة كانت (كأنك تراه) أي: كأنك ترى ربك الذي قمت بين يديه.

(فإن لم تكن تراه) وهي درجة المراقبة، (فإنه) أي: فاعلم أنه (يراك) أي: مطلع على جميع خفاياك.

فهاتان درجتان: إحداهما أكمل من الأخرى، فإن لم تحصل عبادة الله كأنك تشاهده، فاعبده مستحضراً أنه يراك في كل أعمالك، وأنه بصيرٌ عليهم بجميع ما تفعله.

(والدليل) على مرتبة الإحسان من القرآن (قوله تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ (ربهم بفعل الطاعات وترك المحرمات).

الدليل على
مرتبة
الإحسان

(﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾) في عبادتهم ربهم وإحسانهم للخلق، فالله مع عباده المتقين، والذين هم محسنون في العمل يحفظهم ويكلؤهم ويؤيدهم، وهذه معية خاصة.

(و) دليل ثانٍ على مرتبة الإحسان (قوله) تعالى: ﴿﴿وَتَوَكَّلْ﴾﴾ في جميع أمورك ﴿﴿عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾﴾ فإنه مؤيدك وحافظك، ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله والصعود إلى منزلة الإحسان فقال: ﴿﴿الَّذِي يَرِنَكَ﴾﴾ في هذه العبادة العظيمة التي هي الصلاة ﴿﴿حِينَ تَقُومُ﴾﴾ إليها.

(﴿﴿وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾﴾) أي: ويراك في صلاتك في حال ركوعك وسجودك وقعودك فيها، وخص الصلاة بالذكر لفضلها وشرفها، ولأن من

﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية.

استحضر فيها قرب ربه خشع وذل وأكملها، وبتكميلها يكمل سائر عمله ويستعين بها على جميع أموره.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع ويعلم جميع حركاتك.

(و) دليل ثالث على مرتبة الإحسان (قوله) تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا أيها النبي ﴿فِي شَأْنٍ﴾ في أي عملٍ من الأعمال.

﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي: وما تتلو أي آية من القرآن.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغيرٍ أو كبيرٍ، أنت وأمتك.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ نحن مشاهدون ومطلعون على كل ذلك، وعلى جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به إلى حين انقضائكم منه، كل ذلك مطلعون عليه*.

والدليل من السنة حديث جبرائيل المشهور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر،

(والدليل) على مراتب الدين الثلاث الإسلام والإيمان والإحسان (من السنة) النبوية (حديث جبرائيل المشهور) الذي قال عنه القرطبي - رحمه الله -: «هذا الحديث يصلح أن يقال له: أمّ السنة، لما تضمنه من جمل علم السنة»^(١)، وقال عنه النووي - رحمه الله -: «واعلم أن هذا الحديث يجمع أنواعاً من العلوم والمعارف والآداب واللطائف، بل هو أصل الإسلام»^(٢).

دليل
مراتب
الدين
الثلاث
من
السنة

وقد أخرج هذا الحديث العظيم الإمام مسلم في صحيحه (عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه) ثاني الخلفاء الراشدين (قال) حاكياً تلك المحاوراة بين خير المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وأفضل الملائكة جبريل عليه السلام:
«بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية في الصحيحين^(٣):
«كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس».

(إذ طلع علينا رجل) هو ملك في صورة رجل.
(شديد بياض الثياب) لا دنس عليها، وفيه دليل على تحسين الثياب والهيئة والنظافة عند الدخول على العلماء والفضلاء والملوك.
(شديد سواد الشعر) لا غبار على شعره، والمسافر من شأنه أن تكون عليه أمارات السفر.

ومع ذلك (لا يرى عليه أثر السفر) من الإعياء والتعب وأثر المشقة وتغيير الحال من السفر.

(١) فتح الباري ١/١٢٥.

(٢) شرح النووي على مسلم ١/١٦٠.

(٣) صحيح البخاري رقم (٥٠) ١/٢٧، وصحيح مسلم رقم (٨) ١/٣٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبته إلى ركبته، ووضع كفيه على فخذه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة،

(ولا يعرفه منا أحد) فلا أثر للسفر عليه، ولا يعرفه الصحابة؛ لأنه ليس من المقيمين في المدينة فعجب الصحابة منه.

(حتى جلس إلى النبي ﷺ) قريباً منه.

(فأسند) جبريل (ركبته إلى ركبته) أي: إلى ركبتي النبي ﷺ، (ووضع) جبريل (كفيه على فخذه) أي: على فخذي النبي ﷺ وجلس على هيئة المتعلم، وفي رواية: «ثم وضع يده على ركبتي النبي ﷺ» رواه الدارقطني^(١)، ولسليمان التيمي - رحمه الله - «فتخطى حتى برك بين يدي النبي ﷺ كما يجلس أحدنا في الصلاة، ثم وضع يده على ركبتي النبي ﷺ»^(٢). وصنيعه منه للإصغاء إليه، وفيه إشارة لما ينبغي للمسئول من التواضع والصفح عما يبدو.

(وقال) جبريل: (يا محمد أخبرني) وأعلمني (عن) أركان (الإسلام)، ما هي؟

(قال) النبي ﷺ: (أن تشهد) وتقر (أن لا إله) معبود بحق (إلا الله) وحده، (و) أن تشهد (أن محمداً) هو (رسول الله) ﷺ.

(و) أن (تقيم) أي: تؤدي (الصلاة) المفروضة بشروطها وأركانها وواجباتها.

(و) أن (تؤتي) وتؤدي (الزكاة) المفروضة لمستحقيها.

(١) سنن الدارقطني رقم (٢٠٧).

(٢) فتح الباري لابن حجر ١/١١٦.

وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه،

(و) أن (تصوم) شهر (رمضان) المبارك.

(و) أن (تحج) أي: تقصد (البيت) الحرام (إن استطعت) السير (إليه) أي: إلى الوصول إلى البيت (سبيلاً) أي: طريقاً متيسراً من زادٍ وراحلةٍ ووجود المحرم للمرأة لقول النبي ﷺ: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، فقال رجل: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، قال: انطلق فحج مع امرأتك» متفق عليه^(١). وقد أوجبه الله في العمر مرة واحدة، وقد بين النبي ﷺ فضله بقوله: «من حج هذا البيت، فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه» متفق عليه^(٢).

وهذه الأركان الخمسة هي الإسلام، وفي رواية لأحمد^(٣): «إذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟»، قال: إذا فعلت ذلك فقد أسلمت».

وهذا هو دليل المرتبة الأولى، وفسره بأعمال الجوارح الظاهرة، والإسلام هو الدين قال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، وهو الصراط المستقيم الذي أمر الله بالاستقامة عليه.

(قال) جبريل ﷺ: (صدقت) يا محمد، (فعجبنا له) ولصنيعه هذا (يسأله ويصدقه) وسبب عجب الصحابة من هذا السائل؛ لأن من شأن السائل أن يجهل ما يسأل عنه، ولكن السائل هنا يسأل النبي ﷺ ويصدقه فكأنه خبير بالجواب، ولأن ما جاء به النبي ﷺ لا يُعرف إلا من جهته، وليس هذا السائل ممن عُرف بلقائه بالنبي ﷺ واجتماعه به ولا بالسماع منه، بل هو غريب عنهم، ثم هو قد سأل سؤال عارف محقق مصدق فتعجبوا من ذلك*.

(١) صحيح البخاري رقم (١٧٦٣) ٢/٦٥٨، وصحيح مسلم رقم (١٣٤١) ٢/٩٧٨ من حديث ابن عباس ؓ.

(٢) صحيح البخاري رقم (١٤٤٩) ٢/٥٥٣، وصحيح مسلم رقم (١٣٥٠) ٢/٩٨٣ - ٩٨٤ من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) المسند رقم (٢٩٢٦) ١/٣١٩.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»،

ثم (قال) جبريل: (فأخبرني) يا محمد (عن الإيمان) ما هو؟

(قال) محمد ﷺ: الإيمان هو: (أن تؤمن بالله) بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بالله هو أصل للإيمان ببقية أركان الإيمان، وكل ما عداه من الأركان داخله فيه .

(و) أن تؤمن بـ (ملائكته) إجمالاً في الإجمال، وتفصيلاً على التفصيل، بأسمائهم وأعمالهم، وما أوكل إليهم، وأنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(و) أن تؤمن بـ (كتبه) بأن تؤمن بكل كتاب أنزله الله على رسله، كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، وأن جميعها منسوخ بالقرآن العظيم، وأنه قد دخل في الكتب السابقة التصحيف والتحريف .

(و) أن تؤمن بـ (رساله) بأن الله اصطفى من البشر رسلاً يهدون الناس إلى الحق، تؤمن بهم إجمالاً في الإجمال، وتفصيلاً على التفصيل، فتؤمن بمن عرفت أسمائهم ومن لم تعرف أسمائهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ .

(و) أن تؤمن بـ (اليوم الآخر) وتصدق بكل ما جاء في الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت .

(و) أن (تؤمن بالقدر) وما كتبه الله فيه، من (خيره) مما فيه من فرح وسرور، (و) من (شره) مما فيه من مرارة وأحزان من غير جزع عليه ولا تسخط، فكل ما كان وسيكون، فهو بقضاء الله وقدره ومشيئته وإرادته، وإعادة كلمة «وتؤمن» عند القدر للاهتمام بشأنه، وفي رواية لأحمد: «وتؤمن بالجنة والنار، والحساب والميزان، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره، قال: فإذا فعلت

قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك،

ذلك فقد آمنت؟ قال: إذا فعلت ذلك فقد آمنت»^(١).

(قال) جبريل: (صدقت).

وهذا دليل المرتبة الثانية، وهي الإيمان وفسره بالأعمال الباطنة، ودل الحديث على أن الإسلام والإيمان إذا اقترنا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الباطنة.

(قال) جبريل: (فأخبرني) يا محمد (عن الإحسان) ما هو؟

(قال) النبي ﷺ: (أن تعبد الله كأنك تراه) أي: يغلب عليك مشاهدة الحق بقلبك، حتى كأنك تراه بعينك، ومن كان كذلك فإنه يأتي بالعبادة على التمام والكمال.

(فإن لم تكن تراه) أي: إن لم تستحضر أنك ترى الله، فانقل إلى المرتبة الثانية من مراتب الإحسان، وهي أن تستشعر (أنه) تعالى (يراك) ومطلع عليك في كل ما تعمل، لا يخفى عليه منك خافية.

وهذا القدر من الحديث أصل من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد العلم، وهو من جوامع الكلم التي أوتيتها النبي ﷺ، فإن إحسان العبادة، هو الإخلاص فيها والخشوع، وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبته.

وأشار في الجواب إلى حالتين:

أعلاه: أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه.

والثانية: أن يستحضر أن الحق تعالى مطلع عليه ويرى كل ما يعمل.

(١) المسند رقم (٢٩٢٦) ١/٣١٩.

.....

وهاتان الحالتان تثمرهما معرفة الله وخشيته ، وفي رواية : «أن تخشى الله كأنك تراه» رواه مسلم^(١) فجعل النبي ﷺ هذا هو الإحسان ، وهو دليل المرتبة الثالثة .

ففي هذا الحديث دليل على هذه المراتب الثلاث ، وأن أركانها هي ما عدها المصنف - رحمه الله - * .

(١) رقم (١٠) / ٤٠ .

قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «أن تلد الأمة رببتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان،

(قال) جبريل: (فأخبرني) يا محمد (عن الساعة) متى تقوم؟

(قال) النبي ﷺ: (ما المسئول عنها) يقصد النبي ﷺ نفسه (بأعلم من السائل) وهو جبريل أي: أنا وأنت سواء في العلم بها، كلانا لا يعلم متى تقوم؟ فعلمها عند الله وحده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، فالخلق كلهم حتى الملائكة والرسول لا يعلمون متى تقوم، فوقتها مما استأثره الله تعالى بعلمه قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾.

(قال) جبريل ﷺ: فإن لم تعلم متى تقوم الساعة (فأخبرني) يا محمد (عن أماراتها) وعلاماتها التي تسبق قيامها؟

علامات
الساعة

(قال) محمد ﷺ: من علامات الساعة: (أن تلد الأمة) الرقيقة من الجواري (ربتها) أي: مالكتها وسيدتها، والمعنى: أن السراري تكثر في العرب حتى يوجد أن الأمة تلد سيدتها، وفسر بغير ذلك، وحاصله: الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير المربي وضعياً والسافل عالياً.

ومن أماراتها: (أن ترى) وتشاهد (الحفاة) الذين لا نعال عليهم، (العراة) الذين لا ثياب تسترهم، (العالة) الفقراء، (رعاء) أي: رعاة (الشاء) أي: الغنم، (يتطاولون) أي: يتنافسون (في البنيان) ويتفخرون به بعد أن كانوا فقراء رعاة أغنام، ومعناه: أن أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تبسط لهم الدنيا حتى يتباهوا في البنيان، قال ابن دقيق العيد - رحمه الله -: «إنما خص رعاء الشاة بالذكر، لأنهم أضعف أهل البادية»^(١). والمراد أن

(١) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد ص ٤٤.

قال: فمضى فلبثنا ملياً فقال: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم».

أسافل الناس يصيرون رؤساء، وتكثر أموالهم حتى يتباهوا بطول البنيان وزخرفته، وفي الحديث: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» رواه البخاري^(١)؛ لأنه يفسد نظام الدين والدنيا، وهذا كله من تغير الأحوال في آخر الزمان وانعكاس الأمور.

(قال) عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (فمضى) جبريل أي: خرج (فلبثنا) نحن الصحابة ومعنا النبي صلى الله عليه وسلم (ملياً) وقتاً طويلاً (فقال) النبي صلى الله عليه وسلم بعد انصراف جبريل: (يا عمر) بن الخطاب (أتدري من) هو (السائل) الذي كان يسأل وأنتم حاضران؟

(قلت: الله ورسوله أعلم)، لأن الرجل غريب لا نعرفه ولم نره من قبل، وهذا فيه أدب أن من سئل عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه، ولا يتكلف ما ليس له به علم، فما علمه يجيب عنه، وما لا يعلمه يقول فيه: الله أعلم، وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم يجوز أن يقول في أمر الدين: الله ورسوله أعلم، لنزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، أما بعد وفاته فمن سئل عن شيء وهو لا يعلمه فإنه يقتصر على قوله: الله أعلم.

أهمية
حديث
جبريل

(قال) النبي صلى الله عليه وسلم: (هذا) السائل الذي أتاكم هو (جبريل) أفضل الملائكة (أتاكم) متمثلاً في صورة رجل لـ (يعلمكم) أي: لتتعلموا (أمر) وأسس (دينكم) بتلك الأسئلة العظيمة التي كان يسألها، فأخبر أن ما ذكر في هذا الحديث هو أمر الدين وأساسه، فإنه قد اشتمل على أصول الدين والعقائد، بل انحصرت العلوم الشرعية في هذا الحديث، ورجعت كلها إليه، وعقيدة أهل السنة والجماعة عليه، وشرف هذا الحديث وجلالته أمر مجمع عليه، قال

(١) رقم (٥٩) ٣٣/١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

.....

ابن دقيق العيد - رحمه الله - : «مذهب السلف وأئمة الخلف أن من صدق بهذه الأمور - يعني : المذكورة في الحديث - تصديقاً جازماً لا ريب فيه ولا تردد، كان مؤمناً حقاً سواء كان ذلك عن براهين قاطعة، أو عن اعتقادات جازمة»^(١)، وقال عنه القاضي عياض - رحمه الله - : «اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان ابتداءً وحالاً ومآلاً، ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه، ومتشعبة منه»^(٢) * .

(١) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد ص ٤٢ .

(٢) فتح الباري ١/ ١٢٥ .

الأصل الثالث: معرفة نبيكم محمد ﷺ،

الأصل الثالث: معرفة النبي ﷺ
 (الأصل الثالث) من أصول الدين الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها:

(معرفة نبيكم محمد ﷺ)، وهو أصل عظيم يجب معرفته قال ابن القيم - رحمه الله -: «اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ﷺ وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر»^(١)، فإنه عليه الصلاة والسلام هو الوسطة بيننا وبين الله، ولا طريق لنا لمعرفة ما ينجيننا من غضب الله وعقابه، ويقربنا من رضى الله وثوابه، إلا بما جاء به نبينا محمد ﷺ، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «الفنوس أحوج إلى معرفة ما جاء به ﷺ واتباعه منها، إلى الطعام والشراب، فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا، وذاك إذا فات حصل العذاب»^(٢)، وقال الجنيد - رحمه الله -: «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ»^(٣)، ولا صلاح للعالم إلا بالرسالة، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «والرسالة ضرورة للعباد لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونور حياته»^(٤)، والله أرسل الرسل رحمة للعباد كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، قال ابن القيم - رحمه الله -: «اقتضت رحمة العزيز الرحيم، أن بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ومن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم، معرفة المعبود سبحانه، بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعها»^(٥).

وإذا كان كذلك عرفنا وجه كون معرفة النبي ﷺ أحد الأصول الثلاثة

(٢) الفتاوى ٥/١.

(١) زاد المعاد ٦٩/١.

(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٣٨٩/١.

(٤) الفتاوى ٩٣/١٩.

(٥) الصواعق المرسله ١٥٠/١.

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن

التي يجب علينا معرفتها، فإننا لا نعرف الأصل الأول الذي هو معرفة الرب، ولا الأصل الثاني الذي هو دين الإسلام، إلا بالواسطة بيننا وبين الله، قال ابن القيم - رحمه الله - : «وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»^(١).

ومعرفته ﷺ تنتظم أشياء عديدة: منها معرفة اسمه ونسبه وعمره وزمن نبوته ورسالته، ومعرفة ما نُبِّيء به وما أرسل به وبلده ومهاجره ووفاته، ومنها - وهو أعظمها - معرفة ما بعث به، وغير ذلك مما ذكره المصنف وغيره.

(و) نبينا ﷺ اسمه (محمد) ومعناه: الذي يحمد أكثر مما يحمد غيره، وله عدة أسماء: هذا أشهرها وأفضلها وأعظمها، ولهذا جاء في القرآن بهذا الاسم كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾، وقوله عزَّ وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾، ولقبه: أبو القاسم.

نسب
النبي ﷺ

ووالده (عبد الله)، ولم يدرك النبوة، ومات على الكفر، عن أنس رضي الله عنه: «أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: في النار، فلما قفي دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار» رواه مسلم^(٢).

وجده (عبد المطلب) واسمه شيبه، ويقال له: شيبه الحمد، لوجوده وجماع أمر قريش إليه، وإنما سمي بعبد المطلب، لأن عمه المطلب قدم به

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/٦٩.

(٢) رقم (٥٢١) ١/١٣٢.

هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل
ابن إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

مكة وهو رديفه وقد تغير لونه بالسفر فحسبوه عبداً له فقالوا: هذا عبد المطلب
أي: عبداً للمطلب، فعلق به هذا الاسم.

ووالد عبد المطلب هو (هاشم) واسمه عمرو وإنما سمي هاشماً،
لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في أعوام الجوع.

(وهاشم من) قبيلة (قريش) وهي أشهر وأشرف قبائل العرب.

(وقريش) أصلها (من العرب) فهي قبيلة عربية.

(والعرب من ذرية) - أي: من سلالة - (إسماعيل بن إبراهيم الخليل)
أبي الأنبياء (عليه وعلى نبينا) محمد (أفضل الصلاة والسلام).

فإبراهيم عليه السلام بعد كبر سنه وهبه الله ولداً سماه إسماعيل، وإسماعيل
هو الملقب بالذبيح وعاش مع العرب، ثم من بعده وهبه الله إسحاق، وخرج
من نسل إسماعيل نبينا محمد عليه السلام، وإسحاق خرج بقية الأنبياء من نسله، قال
تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأُتْبُونَ وَالْكَنَبَ﴾، لذا سمي إبراهيم عليه السلام أبو
الأنبياء، لأن الأنبياء بعده من نسله، إما من طريق إسماعيل وهو محمد عليه السلام،
أو من طريق إسحاق، وهم جميع الأنبياء عدا نبينا محمد عليه السلام، قال النبي عليه السلام:
«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى
من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» رواه مسلم^(١).

فنبينا أشرف الناس نسباً، فهو هاشمي قرشي، وهكذا الرسل تبعث من
أكرم قومها أحساباً* .

(١) صحيح مسلم رقم (٢٢٧٦) ٤/١٧٨٢ من حديث وائلة بن الأسقع رضي الله عنه.

وله من العمر ثلاث وستون سنة، منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبياً رسولاً.

وفى شهر حمل أم النبي ﷺ به توفي والده، وولد عليه الصلاة والسلام عام الفيل يوم الاثنين، وفي يوم الاثنين بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر إلى المدينة، وفيه توفي، قال ﷺ: «ذلك يوم ولدت فيه، وأنزل عليّ فيه» رواه مسلم^(١)، ولا يجوز أن يقام احتفال بمولده ﷺ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يقم لمولده في حياته احتفالاً، والصحابة رضي الله عنهم وهو أحب الناس إليهم لم يفعلوا ذلك.

ولادته ﷺ

ولما ولد يتيماً تربى في بيت جده عبد المطلب، ثم عند عمه أبي طالب، ثم تزوج خديجة وله خمس وعشرون سنة، وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم فمن مارية القبطية، وكان النبي ﷺ قبل البعثة يلقب بالأمين.

(وله من العمر) الذي عاشه في هذه الدنيا (ثلاث وستون سنة) هي مجموع عمره من ولادته إلى مماته.

عمره ﷺ

(منها) أي: من هذه السنين (أربعون) سنة (قبل النبوة) فلم يوح إليه إلا وعمره أربعون عاماً، وهذا سن اكتمال الأشد قال سبحانه ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

ومن عمره (ثلاث وعشرون) سنة (نبياً) يوحى إليه (رسولاً) مأموراً بالرسالة والتبليغ.

وزمن نبوة نبينا محمد ﷺ ورسالته ثلاث وعشرون سنة، مكث منها في مكة ثلاثة عشر عاماً، وفي المدينة النبوية عشرة أعوام، وكان عمره مباركاً أظهر الله به الدين، وتمت به الشريعة، ودخل الناس في الدين أفواجا، لاقى

(١) صحيح مسلم رقم (١١٦٢) ٢/٨١٩ من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

نبيء ب (اقراً)، وأرسل ب (المدثر)، وبلده مكة، وهاجر إلى المدينة،

خلال تلك السنين خوفاً وجوعاً وابتلاءً، وتسلب الأعداء عليه، وقدموا إليه في بلد مهاجره لقتاله، فصبر وجاهد حتى بلغ رسالة ربه .

نبوته
ورسالته

وقد (نبيء) أي: أنزل عليه الوحي مأموراً بالنبوة يوم الاثنين في رمضان بغار حراء، أمره الله بالنبوة (ب) صدر سورة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾، ورجع بها يرجف فؤاده فقالت له خديجة رضي الله عنها: «كلا، والله لا يخزيك الله أبداً» متفق عليه^(١).

(وأرسل) من الله بعد فترة من الوحي (ب) صدر سورة (المدثر)، فإنه لما جاءه الملك فرّق منه - أي: خاف - فقال: دثروني فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ﴿١﴾﴾ فكانت أول ما أنزل عليه بعد فترة الوحي، ثم حمي الوحي وتتابع، فشمّر حينئذ عن ساق العزم ودعا إلى الله .

(وبلده مكة) أشرف البقاع عند الله، بها ولد ونشأ، إلا ما كان منه وهو مع مرضعته السعدية في البرية، ثم رجع إلى مكة في حضانة جده، ثم عمه، وأوحي إليه بها، وبقي بها بعد أن أوحي إليه ثلاث عشرة سنة .

(و) بعد ذلك (هاجر إلى المدينة) بعد أن همّوا بقتله فتغيب في الغار، ثم سار هو وأبو بكر مهاجراً إلى المدينة، وذلك بعد أن بايعه أهلها على النصره والمؤازرة، وأرخت الأمة تاريخها من مهاجره صلى الله عليه وسلم * .

(١) صحيح البخاري رقم (٤٦٧٠) / ٤ / ١٨٩٤، وصحيح مسلم رقم (١٦٠) / ١ / ١٤١ من حديث

عائشة رضي الله عنها.

بعثه الله بالندارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، والدليل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

الْمَدْيَنُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾

وقد ذكر المصنف - رحمه الله - جملة مما يُعرف به النبي ﷺ، وأعظمها وأعلاها معرفة ما بعث به النبي ﷺ، فإنه (بعثه الله بالندارة عن الشرك) يحذر منه وينذر من وباله في الدنيا والآخرة، لأنه يحبط العمل، وصاحبه مخلد في النار، وبعثه الله (يدعو إلى التوحيد) وإفراد الله بالعبادة، وقدم المصنف الندارة عن الشرك قبل الدعوة إلى التوحيد، لأن هذا مدلول كلمة التوحيد لا إله إلا الله، ولأن الآية ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ تقتضي ذلك، فبدأ بجانب الشرك لكون العبادة لا تصح مع وجود المنافي، فلو وجدت والمنافي لها موجود لم تصح قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾، ولقوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم دمه وماله وحسابه على الله عز وجل» رواه مسلم^(١). ثم ثنى بالتوحيد، لأنه أوجب الواجبات، ولا يرفع عمل إلا به، وإذا خالط الشرك العمل أفسده وأحبط العمل قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

الحكمة
من
بعثته ﷺ

(والدليل) على أن الله بعث نبيه محمداً ﷺ لينذر عن الشرك ويدعو إلى

التوحيد:

الدليل
على
ذلك

(قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ﴾) أي: المتدثر بشيابه المتغشي بها، وهذا من

الرعب الذي حصل له من رؤية الملك عند نزول الوحي.

(﴿قُرْ﴾) أي: من دثارك (﴿فَأَنْذِرْ﴾) هم عن الشرك وادعهم إلى

التوحيد، وهذه أول آية أرسل بها، وأول أمر طرق سمعه في حال إرساله، وذلك أنه لما رأى الملك الذي جاءه بحراء حين أنزل عليه ﴿أَقْرَأْ﴾ رعب منه

(١) صحيح مسلم رقم (٢٣) ٥٣/١ من حديث أبي مالك عن أبيه ﷺ.

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ ﴿٣﴾ ﴿وَوَيْبَاكَ فَطَهِّرْ﴾ ﴿٤﴾ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ﴿٥﴾ ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾ ﴿٦﴾ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ .

فنزل إلى أهله فقال: دثروني فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ﴾ متفق عليه^(١)، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بـ ﴿أَقْرَأْ﴾ النبوة.

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾) أي: عظم ربك عما يقول عبدة الأوثان.

﴿وَوَيْبَاكَ فَطَهِّرْ﴾) أي: نفسك طهرها عن الذنوب، كنى عن النفس بالثوب؛ لأنها تشتمل عليه.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾) أي: اترك الأوثان ولا تقربها، والرجز: القدر مثل الرجس قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ .

﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾) أي: لا تعط مالك مصانعة لتعط أكثر منه، أو لا تمن على الله بعملك فتستكبره، أو لا يكثر عملك في عينك، أو لا تضعف أن تستكثر من الخير.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾) أي: على طاعته وأوامره، أو على ما أوديت في

الله* .

(١) صحيح البخاري رقم (٤٦٣٨) ٤/١٨٧٤، وصحيح مسلم رقم (١٦١) ١/١٤٤ من حديث جابر

ابن عبد الله رضي الله عنه.

ومعنى ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ﴾: ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظمه بالتوحيد، ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهر أعمالك عن الشرك،

(ومعنى ﴿قُرْ﴾ أي: بجد ونشاط، ﴿فَأَنْذِرْ﴾ أي: أمة محمد ﷺ).

تفسير
دلليل
الحكمة
من
بعثته ﷺ

(ينذر) الناس (عن الشرك) بالأقوال والأفعال التي يحصل بها المقصود؛ لأن الشرك أعظم ذنب عصي الله به، سئل النبي ﷺ أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» متفق عليه^(١)، ولا يرفع معه عمل قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وصاحبه مخلد في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾.

ومع إنذاره عن الشرك (يدعو إلى التوحيد)، لأن التوحيد أوجب الواجبات، وأول دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فشمر ﷺ عن ساق العزم، وأنذر الناس وأوذي على ذلك هو ومن اتبعه.

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ (أي): معناها (عظمه بالتوحيد) فهو: الإله الحق المستحق أن يعبد وحده، لا يشرك معه أحد في عبادته، فعظم ربك بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك أن يعظم العباد ربهم ويقوموا بعبادته، فإنه ما عظم الرب بشيء أجل من ذلك، ونزهه عما يقوله عبدة الأوثان.

﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (أي): معناها (طهر أعمالك عن الشرك) واجعلها كلها خالصة لوجه الله، فالعمل يسمى لباساً قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوِيِّ﴾ وتطهير الملابس غير مراد في هذه الآية؛ لأن الصلاة لم تفرض في ذلك الوقت، فالمراد هنا الأعمال أي: طهر نفسك من الذنوب وأعظمها الشرك، قال ابن

(١) صحيح البخاري رقم (٤٢٠٧) / ٤ / ١٦٢٦، وصحيح مسلم رقم (٨٦) / ١ / ٩٠ من حديث ابن

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرجز: الأصنام، وهجرها تركها والبراءة منها وأهلها.

القيم - رحمه الله - : «وهو قول المحققين من أهل التفسير، وهو أصح الأقوال»^(١)، وقيل: أصلح عملك لا يخالطه شيء من الشرك.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، و(الرجز) هي: (الأصنام) والأوثان التي عبدت من دون الله.

(و) معنى (هجرها) أي: (تركها) والإعراض عنها (والبراءة منها و) من (أهلها)، فالنبي ﷺ أمر بترك الأوثان والبعد عنها، والتبرؤ منها ومن أهلها، وهذا نهج الأنبياء والمرسلين قال تعالى عن الخليل ﷺ: ﴿وَأَعْتَرَكُم مَّا دَعُوتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿فَلَمَّا أَعْتَرَكُم مَّا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

فلا يتم توحيد العبد حتى يتبرأ من الكفر وأهل الكفر ويبعد عنهم وينابذهم، قال سبحانه عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾، وقال عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فهذه الأمة أمرت بالتأسي بإبراهيم ﷺ وأتباعه الذين كانوا معه في تبرئهم من المشركين*.

(١) مدارج السالكين ٢/٢٠.

أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وبعد العشر عرج به إلى

السماء،

وقد (أخذ) النبي ﷺ (على هذا) النهج في بيان الشرك، والإنذار عنه، والتحذير منه، وبيان التوحيد، والدعوة إليه، (عشر سنين) وهو (يدعو إلى التوحيد) وينذر عن الشرك، قبل فرض الصلاة التي هي عماد الدين، وقبل بقية الشرائع.

زمن
دعوته ﷺ
للتوحيد

وبهذا يتبين لك أن حقيقة ما بعث به النبي ﷺ ودعت إليه الرسل كلهم، هو الإنذار عن الشرك والتحذير منه، والدعوة إلى التوحيد وبيانه وتوضيحه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وأخبر الله عن نوح وهود وصالح وشعيب ﷺ أن أول شيء بدؤوا به أقوامهم أن قالوا: ﴿يَقُومُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وخاتمهم محمد ﷺ أول شيء دعاهم إليه قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» رواه أحمد^(١).

فالنبي ﷺ إنما بعث بالدعوة إلى التوحيد، وذلك لأنه هو أساس الملة الذي تبنى عليه، وبدونه لا ينبنى شيء من الأعمال.

فالتوحيد هو الأصل، وبقية شرائع الدين فرع عنه، فإذا زال الأصل زال الفرع، فكونه أخذ عشر سنين يدعو إلى التوحيد وينذر عن الشرك قبل أن تفرض عليه الفرائض، يدل على أن التوحيد أوجب الواجبات، ومعرفته أفرض الفرائض.

(وبعد) السنوات (العشر) من بدء النبوة والرسالة وهو في مكة (عرج به إلى السماء) السابعة، فأسري بجسده وروحه جميعاً من المسجد الحرام على

الإسراء
والمعراج

(١) المسند رقم (١٦٠٦٦) ٤٩٢/٣ من حديث ربيعة بن عباد الديلي.

وفرضت عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أمر
بالهجرة إلى المدينة،

البراق^(١)، إلى بيت المقدس يقظةً لا مناماً، كما أخبر الله عنه في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ حَوْلَهُ﴾، ثم صعد به جبريل عليه السلام إلى السماء على المعراج، كلما مر بسماء تلقاه مقربوها، حتى جاوزهم إلى سدرة المنتهى، حتى سمع صريف الأقدام، فبلغ من الارتفاع والعلو إلى ما الله به عليم، وكلمه الله بلا واسطة، فأوحى إليه ما أوحى.

أين
فرضت
الصلوة؟

(وفرضت عليه الصلوات الخمس) وهو في السماء، وكان أول ما فرضت خمسين صلاة، ولم يزل يتردد بين موسى وبين ربه حتى وضعها إلى خمس وقال: «هي خمس - أي: في العدد - وهي خمسون - أي: في الأجر - الحسنة بعشر أمثالها» متفق عليه^(٢)، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط الأنبياء معه، وأمهم في بيت المقدس، ثم ركب البراق ورجع إلى مكة من ليلته، وحدثهم عما رآه في مسيره.

(وصلى في مكة) الصلوات الخمس المفروضة (ثلاث سنين) بعد أن عرج به وفرضت عليه قبل الهجرة.

المدة التي
صلاها
النبي ﷺ
في مكة

(وبعدها) أي: بعد الثلاث عشرة سنة من بعثته (أمر بالهجرة) من مكة (إلى المدينة) بمفارقة المشركين وأوطانهم، بحيث يتمكن من إظهار دينه، والدعوة إلى الله، فإن ذلك واجب وفرض، لأن أهل مكة منعوه أن يقيم دعوته، فاستقبله الأنصار في المدينة، وأووه ونصروه وآزره، حتى بلغ دين ربه فانتشر في الآفاق*.

(١) البراق: دابة دون البغل وفوق الحمار، مشتق من البرق سمي بذلك لنصوع لونه وشدة بريقه، وقيل: لسرعة حركته. لسان العرب ١٥/١٠.

(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٢) ١/١٣٦، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصحيح مسلم رقم (١٦٢) ١/١٤٥ - ١٤٨ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام،

تعريف
الهجرة

(و) تعريف (الهجرة) هي (الانتقال) والتحول (من بلد الشرك إلى بلد الإسلام) وكل من فارق بلده فهو مهاجر، والمهاجرة في الأصل مصارمة الغير ومقاطعته ومباعدته، وسمي المهاجرون مهاجرين، لأنهم هجروا ديارهم ومسكنهم التي نشئوا بها لله، ولحقوا بدار ليس لهم فيها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة.

وشرعت الهجرة: حفظاً لدين العبد من الزوال، أو النقصان، وفراراً به من الفتن، ولخشية عدم إظهار شعائر الإسلام، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «لا يسلم أحد من الشرك إلا بالمباينة لأهله»^(١).

حكمها

والمرء يتأثر بمجمعه في صلاحه وتقواه وفي بعده عن ربه ومولاه، (و) لهذا كانت (الهجرة فريضة على هذه الأمة) المحمدية (من بلد الشرك) والكفر (إلى بلد الإسلام) وقد حكي الإجماع على وجوبها، وقد فرضها الله على رسوله ﷺ وعلى الصحابة قبل فرض الصوم والحج، وقد جاء الوعيد على من تركها وهو قادر على ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: لا تراءى ناراهما» رواه أبو داود والترمذي^(٢).

ومخالطة المشركين ضرر على الدين، وإذا كان المسلم في بلد لا يقدر على إظهار دينه والتصريح به وتبيينه، وجب عليه مفارقة ذلك الوطن لإظهار دينه، وليصون معتقده، فالتقرب منهم في المسكن ونحوه يضر بدينه، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشررة اليهود

(١) الفتاوى ١/٩٤.

(٢) سنن أبي داود رقم (٢٦٤٥) ٣/٤٥، وسنن الترمذي رقم (١٦٠٤) ٤/١٥٥ من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

.....
والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام»^(١).

والهجرة فيها منافع دينية وديوية للمهاجر، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن - حفيد المصنف - رحمهما الله: «الهجرة الغالب على أهلها السلامة والعز والتمكين، كما جرى ذلك لرسول الله ﷺ وأتباعه سلفاً وخلفاً، ومصالح الهجرة في الدنيا أكثر من أن تحصر كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُؤْتِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾»^(٢).

وفي ترك الهجرة أضرار على تاركها في دينه وديناه، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله -: «المفاسد التي في ترك الجهاد، موجودة في ترك الهجرة وأكثر منها، كما لا يخفى على ذوي البصائر والفهم، وكان الجهاد من ثمرتها ومصالحها، وتأمل ما وقع فيه التاركون للهجرة من سوء الحال في الدين والدنيا»^(٣) *.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٢٠.

(٢) الدرر السنية ٨ / ٢٤٠.

(٣) الدرر السنية ٨ / ٢٤٤.

وهي باقية إلى أن تقوم الساعة، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾

ومن له قدرة على الهجرة من ديار الشرك ولم يهاجر فقد ظلم نفسه ووقع في الإثم.

(وهي) أي: الهجرة (باقية) وواجبة (إلى أن تقوم الساعة) فلا تسقط في أي زمن عن هذه الأمة بل وجوبها باقٍ إلى قيام الساعة، فمن كان مسكنه بديار المشركين وهو قادر على التحول عنهم، وجب عليه الهجرة من تلك الديار.

استمرارها
إلى قيام
الساعة

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «أحوال البلاد كأحوال العباد، فيكون الرجل تارة مسلماً، وتارة كافراً، وتارة مؤمناً، وتارة منافقاً، وتارة براً تقياً، وتارة فاسقاً، وتارة فاجراً شقيماً، وهكذا المساكن بحسب سكانها، فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة، كتوبته وانتقاله من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة، وهذا أمر باقٍ إلى يوم القيامة»^(١).

(والدليل) على وجوب الهجرة من القرآن (قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾)، وقد نزلت هذه الآية في أناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا فقال الله عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أراد ملك الموت وأعوانه الموكلين بنزع الروح، وحال من تنزع أرواحهم أنهم من ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بترك الهجرة من ديار الشرك.

دليل
وجوبها
من القرآن

(﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾) أي: في أي فريق كنتم ولم مكنتم ههنا وتركتهم الهجرة؟ وهذا استفهام إنكار وتوبيخ وتقرير.

(﴿قَالُوا﴾) - أي: الذين تركوا الهجرة -: (﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾) أي: كنا عاجزين عن الهجرة لا نقدر على الخروج من البلد ولا الذهاب في الأرض، وهم غير صادقين في ذلك.

(١) الفتاوى ١٨ / ٢٨٤ .

قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾
 إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾
 فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا

(﴿قَالُوا﴾) أي: قالت لهم الملائكة معاتبه لهم: (﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾)، وهذا استفهام تقرير أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فلم لا تهاجرون إلى المدينة وتخرجون من بين أهل الشرك؟، فلم يعذروا بترك الهجرة.

فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعاً وفسحة في الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: (﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾) أي: بس المصير إلى جهنم، وهذا فيه أن تارك الهجرة بعد ما وجبت عليه وهو قادر عليها، أنه مرتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

(﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾) أي: الضعفاء العاجزين عن الهجرة.

(﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ﴾) جمع وليد ووليدة، والوليد: الغلام قبل أن يحتلم.

(﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾) أي: لا يستطيعون مفارقة المشركين، فلا يقدر على حيلة، ولا على نفقة، ولا على قوة للخروج.

(﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾) أي: لا يعرفون الطريق إلى الخروج من مكة إلى المدينة، حيث كانت بلد الإسلام، ولا يوجد آنذاك بلد إسلام سواها.

(﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾) يتجاوز عن المستضعفين وأهل الأعدار بترك الهجرة.

(﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا﴾) متصفاً بالعفو والتجاوز عن السيئات.

(﴿غَفُورًا﴾) للخطايا والأوزار .

قال ابن كثير - رحمه الله -: «نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهрани المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية»^(١) * .

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٤٣ .

وقوله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾

وإذا كانت الهجرة مأموراً بها من بلاد الكفر، دل هذا على تحريم السفر إلى بلادهم، إلا لحاجة تدعو إلى ذلك كعلاج ونحوه، ولا يجوز السفر إليهم عند الحاجة إلا بثلاثة شروط:

- ١ - أن يكون عنده علم، يمنعه مما يرد عليه من الشهوات.
- ٢ - أن يكون عنده دين، يمنعه من الشهوات.
- ٣ - أن يتمكن من إظهار دينه والقيام بعبادة ربه كما أمر الله، وأن يحذر كل الحذر من موالاة المشركين.

وإذا لم يتمكن المسلم من الهجرة، فعليه أن يظهر شعائر دينه، من الصلاة ونحوها، بقدر استطاعته، ويجب عليه أن يدعو غير المسلمين إلى هذا الدين قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

دليل آخر من القرآن على أن الهجرة واجبة على القادر عليها (قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ﴾) وحدوني، و﴿ءَامَنُوا﴾) بي وبرسولي، وهم مقيمون في ديار الكفر ولم يهاجروا وهم قادرون على الهجرة هاجروا ف﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾) لم تضق عليكم فتقيموا بموضع منها لا يحل لكم المقام فيه، فإذا عمل بمكان منها بمعاصي الله ولم تقدرُوا على تغييره، فاهربوا منه إلى أرضي الواسعة التي تسع جميع الخلائق.

فإذا كان الإنسان في أرض لم يتمكن من إظهار دينه فيها، فإن الله قد وسع له الأرض ليعبده فيها كما أمر، وأن يوحد في أرضه الواسعة، وكذلك يجب على كل من كان ببلد تعمل فيها المعاصي ولا يمكنه تغييرها أن يهاجر منها.

فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ ﴿١﴾ ، قال البغوي - رحمه الله - : «سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا ناداهم الله باسم الإيمان». والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ : «لا تنقطع الهجرة

﴿فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾) أي: أظهروا لي العبادة في أرضي الواسعة التي خلقتها وما عليها لكم، وخلقتمكم عليها لعبادتي.

(قال) أبو محمد الحسين بن مسعود (البغوي - رحمه الله -) (١) في تفسيره (٢) الذي قال عنه ابن القيم - رحمه الله - : «اجتمعت الأمة على تلقي تفسيره بالقبول، وقراءته على رؤوس الأشهاد من غير تكبير» (٣) :

(سبب نزول هذه الآية) كما قال مقاتل والكلبي: نزلت (في) ضعفاء (المسلمين الذين) أقاموا (بمكة) و(لم يهاجروا) منها إلى المدينة (ناداهم الله باسم الإيمان) (٤)، فأفاد أن تارك الهجرة بعد ما وجبت عليه ليس بكافر، لكنه عاص بتركها، فهو مؤمن ناقص الإيمان عاص من عصاة الموحدين المؤمنين.

(والدليل على) أن (الهجرة) مفروضة على هذه الأمة، وأنها باقية إلى قيام الساعة، دليل ذلك (من السنة قوله ﷺ) في الحديث الذي رواه أبو داود عن معاوية رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها» (٥).

(لا تنقطع) أي: لا يسقط وجوب (الهجرة) من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

دليل
وجوب
الهجرة من
السنة

(١) المتوفى عام ٥١٦ هـ.

(٢) المسمى (معالم التنزيل).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٢٣٩.

(٤) قال البغوي في تفسيره ٤٧٢/٣ عند قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَتْ فِئْتِي فَأَعْبُدُونَ﴾ قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة يقول: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فخرجوا منها إلى أرض المدينة إن أرضي يعني المدينة واسعة آمنة.

(٥) سنن أبي داود رقم (٢٤٧٩) ٣/٣

حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

(حتى تنقطع التوبة) أي: حتى لا تقبل التوبة ممن تاب.

فدل الحديث على أن التوبة ما دامت مقبولة فالهجرة واجبة بحالها، وأما قول النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» متفق عليه^(١)، فالمراد لا هجرة بعد فتح مكة منها إلى المدينة، حيث كانت مكة بعد فتحها بلد إسلام، وقد كانت الهجرة من مكة مأموراً بها لما كانت بلد كفر، أما وقد كانت بلد إسلام فلا.

(ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) فإذا طلعت الشمس من مغربها لم تقبل التوبة قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ فدل على أنها تقبل قبل طلوع الشمس من مغربها، وإذا كانت التوبة تقبل، فإن الهجرة لا تنقطع.

فواجب على المسلم أن يسعى لإصلاح نفسه بالصحبة الصالحة، وبالمجتمع الطيب، وأن يقرأ ما ينفعه في أمور دينه، وعليه أن يتعد عن كل ما يندس صلاحه من مجتمع لا يحثه على فعل الطاعات، أو وسائل تغرقه بالشبهات والشهوات، أو تؤزّه إلى فعل المعاصي والسيئات*.

(١) البخاري رقم (٢٦٣١) ٣/١٠٢٥، ومسلم رقم (١٣٥٣) ٣/١٤٨٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فلما استقر بالمدينة أمر ببقية شرائع الإسلام، مثل: الزكاة والصوم والحج والأذان والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من شرائع الإسلام، أخذ على هذا عشر سنين،

وقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً وهو يدعو إلى التوحيد وينذر عن الشرك، ومكث تلك السنين لبيان التوحيد، والنهي عن ضده لأهميته، ثم بعد تلك المدة هاجر من مكة إلى المدينة. (فلما استقر بالمدينة) وانتشر التوحيد، وكثر أتباعه، وأقاموا الصلاة التي فرضت عليه وعليهم جماعة قبل هجرته بثلاث سنوات. (أمر ببقية شرائع الإسلام) التي تعبد الله بها خلقه، إذ عامة شرائع الإسلام لم تشرع إلا في المدينة.

متى
شرعت
بقية
الشرائع؟

(مثل: الزكاة) المفروضة بتفصيلها المعلوم.
(والصوم) المفروض في شهر رمضان.
(والحج) إلى بيت الله الحرام.
(والأذان) للصلوات الخمس المكتوبة.
(والجهاد) في سبيل الله.
(والأمر بالمعروف) الذي عرف حسنه شرعاً وعقلاً.
(والنهي عن المنكر) الذي عرف قبحه شرعاً وعقلاً.
(وغير ذلك من شرائع) وأحكام (الإسلام) كصلاة العيدين، والكسوف، والاستسقاء.

وقد (أخذ على هذا) البيان والتعليم، والدعوة إلى بقية الشرائع (عشر سنين) كلها توحى إليه فيها الشرائع، فتمت شريعة الله صدقاً وعدلاً كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

مدة
دعوته ﷺ
لها

وبعدها توفي صلاة الله وسلامه عليه، ودينه باقٍ، وهذا دينه

متى توفي
ﷺ؟

(وبعدها) أي: بعد ما أكمل الله به الدين وبلغ البلاغ المبين (توفي صلاة الله وسلامه عليه) في السنة الحادية عشرة، وقد بين كل شيء فيه سعادة العباد في الدنيا والآخرة، أتم بيان وأوضحه، قال أبو ذر رضي الله عنه: «ما ترك النبي صلى الله عليه وسلم طائراً يقلب جناحيه في السماء، إلا ذكر لنا منه علماً» رواه أحمد^(١)، وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي رضي الله عنه: «لقد علمكم نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخراءة^(٢)» قال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم» رواه مسلم^(٣).

وحفظ الله دينه (ودينه باقٍ) وهو ما تضمنه الكتاب والسنة موجود مؤيد محفوظ إلى يوم القيامة، كاف لمن تمسك به، قال عليه الصلاة والسلام: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وستي» رواه الحاكم في المستدرک^(٤).

ما جاء
به الدين

(وهذا دينه) الذي ترك أمته عليه، وتكفل الله بحفظه، توارثه المسلمون وأهل العلم والدين خلفاً عن سلف، قال بعض السلف: «هذا عهد نبينا صلى الله عليه وسلم إلينا وقد عهدنا إليكم، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا، وهي وصيته وفرضه عليكم^(٥)»، فجرى الخلف على منهاج السلف، واقتفوا آثارهم، ولا يزالون إلى يوم القيامة، فدينه عظيم مهيم على جميع الأديان، فيه أعمال يسيرة وأجورها عند الله عظيمة.

(١) المسند رقم (٢١٣٩٩) ٥/١٦٣.

(٢) الخراءة - بكسر الخاء وفتحها -: هي آداب التخلي والقعود عند الحاجة.

النهاية لابن الأثير ١٧/٢، لسان العرب ١/٦٤.

(٣) رقم (٢٦٢) ١/٢٢٣.

(٤) المستدرک رقم (٣١٩) ١/١٧٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) إعلام الموقعين لابن القيم ٦/١.

لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرنا منه .

والخير الذي دل عليه التوحيد وجميع ما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذرنا منه الشرك

و(لا خير إلا دل) النبي ﷺ (الأمة عليه) وأرشدنا إليه، قال الله في الشفاء عليه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ الأعمال والأقوال والأخلاق الطيبة من هديه ﷺ .

(ولا شر) من الأقوال والأفعال (إلا حذرنا منه) خوفاً على أمته من الوقوع في المهالك، وقد بلغ الدين كله، وبيّنه جميعه كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، وفي الحديث: «لم يكن نبي قبلي، إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم» رواه مسلم^(١).

(والخير الذي دل) النبي ﷺ أمته (عليه) هو: (التوحيد) وهو أصل كل خير وأعظمه، وهو توحيد الله الذي هو أوجب الواجبات، وأساس قبول الأعمال، ولأجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب.

الخبر الذي
جاء به
النبي ﷺ

(و) قد دلنا النبي ﷺ على (جميع ما يحبه الله ويرضاه) من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وقد أودى النبي ﷺ وصبر حتى بلغ لنا هذا الخير العظيم، قياماً بأمر الله ونصحاً لنا وشفقةً علينا.

(والشر) الذي هو أصل كل شرٍّ وأعظمه و(الذي حذرنا منه) أمته وأنذرنا منه هو: (الشرك) الذي هو أعظم الذنوب عند الله، يحبط جميع الأعمال، وصاحبه مخلد في النار، وجميع الرسل حذروا أممهم من الشرك، ودعواهم

الشر الذي
حذرنا منه

(١) صحيح مسلم رقم (١٨٤٤) ٣/١٤٢٧ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وجميع ما يكرهه الله ويأباه .

إلى التوحيد قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ .

(و) حذرنا عليه الصلاة والسلام أيضاً من (جميع ما يكرهه الله) ويغضه
(ويأباه) أي : ينهى عنه من الأقوال والأعمال * .

بعثه الله إلى الناس كافة، وافترض الله طاعته على جميع الثقليين: الجن والإنس، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

وقد كانت الأنبياء تبعث إلى أقوامها خاصة، أما نبينا محمد ﷺ فقد بعثه الله عز وجل (إلى الناس كافة) عربهم وعجمهم، ذكرهم وأنثاهم، حرهم وعبدهم.

عموم
بعثة النبي
ﷺ إلى
الناس
كافة

(وافترض الله طاعته) أي: جعل طاعته فرضاً (على جميع الثقليين) وهما (الجن والإنس) قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وقالت الجن: ﴿يَقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّمَ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾، فرسالته شاملة الجن والإنس.

(والدليل) على أنه مبعوث إلى الناس كافة (قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾) العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم.

الدليل
على ذلك

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ يجب عليكم اتباعي، قال عليه الصلاة والسلام: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة» متفق عليه^(١)، وكونه خاتم النبيين ورسالته إلى الناس كافة يدل على عظيم شرفه.

فواجب على جميع أهل الأديان من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، اتباع دين نبينا محمد ﷺ، وهذا معلوم من دين الإسلام بالضرورة، وهذا مقتضى رسالته، ومن لم يتبع دينه، كتب عليه الشقاء وكان من أصحاب النار، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَأْرُ مَوْعِدُهُ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة

(١) صحيح البخاري رقم (٣٢٨) / ١ / ١٢٨، ورقم (٤٢٧) / ١ / ١٦٨، وصحيح مسلم رقم (٥٢١)

/ ١ / ٣٧٠ من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

.....

يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم^(١)، ومن أطاعه وامتنل أمره فقد رحمه ربه، وكان من أصحاب النعيم قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، ومن اتبع ما سواه من الأديان فدينه باطل، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾* .

(١) صحيح مسلم رقم (١٥٣) / ١ / ١٣٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وأكمل الله به الدين، والدليل قوله تعالى: ﴿أَيُّومَ أَكَمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

(وأكمل الله به) أي: بنينا محمد ﷺ أحكام وشرائع (الدين) فكان بفضل الله ديناً كاملاً، لا نقص فيه بوجه من الوجوه، فأينما نظرت إلى شيء منه وجدت الكمال والخير فيه، وما توفي عليه الصلاة والسلام إلا وقد بلغ جميع ما أمره الله به.

(والدليل) على أن هذا الدين كامل في شرعه وأحكامه (قوله تعالى: ﴿أَيُّومَ﴾) أي: يوم عرفة والنبي ﷺ واقف يخطب في حجة الوداع قبل وفاته بواحد وثمانين يوماً^(١).

﴿أَكَمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهذه أكبر نعم الله على هذه الأمة، حيث أكمل لها دينها، فلا يحتاجون إلى دين سواه، ولا إلى نبي غير نبيهم ﷺ كما قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي ﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِي﴾ فمن ادعى أنه يحتاج إلى زيادة فقد كذب وافترى، ورد مدلول هذه الآية، ورد مدلول قوله ﷺ: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» رواه أبو داود^(٢). والكامل لا يزداد فيه ولا ينقص منه، ولا يبدل، قال ابن القيم - رحمه الله -: «قد تمم الله سبحانه الدين بنبيه ﷺ وأكمله به، ولم يحوجه ولا أمته بعده إلى عقل ولا نقل سواه، ولا رأي، ولا منام، ولا كشف»^(٣).

(١) عند من يقول: إنه ﷺ توفي في ثاني ربيع أول، وهو قول سليمان التيمي والكلبي وخليفة بن خياط، وغيرهم، ورجحه السهيلي، قال ابن حجر في الفتح ١٣٠/٨: «وهو القول المعتمد». وقيل: إن النبي ﷺ توفي في اليوم الأول من ربيع الأول، وهو قول الليث وابن شهاب والفضل بن دكين، وغيرهم.

وقيل: إن النبي ﷺ توفي في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، وهو قول ابن إسحاق والواقدي وأبو بكر بن حزم، وغيرهم، قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢٥٥/٥: «وهو القول المشهور».

(٢) رقم (٤٦٠٧) ٢٠٠/٤ من حديث العرياض بن سارية رضى الله عنه.

(٣) الصواعق المرسله ٨٢٦/٣.

وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿١﴾ .

تمام
النعمة

ولما أخبر الله أنه أكمل لنا الدين وهو أكبر نعمة علينا قال: ﴿وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (الظاهر والباطنة، ومن تمت عليه النعمة فقد أفلح كل الفلاح، قال ابن القيم - رحمه الله -: «وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيداناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب، ولا خلل ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيداناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار، وفي دار القرار»^(١) .

﴿وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: فرضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه ورضيه، وبعث به أفضل رسله ﷺ، وأنزل به أشرف كتبه، قال كعب: «لو نزلت هذه الآية على غير هذه الأمة، لاتخذوا اليوم الذي نزلت فيه عيداً»^(٢)، قال عمر رضي الله عنه: نزلت يوم الجمعة يوم عرفة» رواه البخاري^(٣) .

عمل
مردود

ولكمال هذا الدين وتمامه أخبر النبي ﷺ أن كل من فعل ما لم يأمر به، وزاد في دين الله ما لم يأت به الشرع، فإن عمله باطل ومردود عليه، لكمال هذا الدين، قال عليه الصلاة والسلام: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» متفق عليه^(٤) .

فليفرح المسلم بهذا الدين، وليتمسك به، فهو دين كامل شامل، يتمنى

(١) مفتاح دار السعادة ١/٣١٥ .

(٢) ولأنه لا يجوز إحداث عيد في الإسلام، ولم يشرع لنا غير عيدي الأضحى والفطر لذا لم تتخذ هذه الأمة اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية عيداً .

(٣) صحيح البخاري رقم (٦٨٤٠) / ٦ / ٢٦٥٣ .

(٤) صحيح البخاري رقم (٢٥٥٠) / ٢ / ٩٥٩، وصحيح مسلم رقم (١٧١٨) / ٣ / ١٣٤٣ من حديث

عائشة رضي الله عنها .

.....

أهل الأديان كلهم عند الموت وما بعده من أحوال الآخرة أن يكونوا من أتباعه، قال سبحانه ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوِ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، ولكن لم يُرد الله لهم الهداية، لحكمة منه بالغة قال سبحانه: ﴿فِيضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾* .

والدليل على موته ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِيَّاهُمْ مَمِّتُونَ﴾ (٣٠) ثم
 إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْضِعُونَ،

نبينا ﷺ
 قد مات

والله سبحانه متصف بالحياة الدائمة، قال جلَّ وعلا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، ونبينا محمد ﷺ بشر من البشر، وواحد من المخلوقين، يعتره ما يعترىهم من الجوع والحزن والمرض والموت، والنبى ﷺ لا نرفعه فوق منزلته، ولا نهضمه حقه، فهو بشر فضله الله بالرسالة، لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، لا في حياته ولا بعد مماته، وبعد عمر مبارك في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، والكفاح والدعوة والصبر، توفاه الله عزَّ وجل بعد ثلاث وستين سنة، ولم يتوف الله نبيه ﷺ حتى أكمل الله به الدين، وبلغ البلاغ المبين، حتى قال ﷺ: «لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء»، قال أبو الدرداء رضى الله عنه: صدق والله رسول الله ﷺ تركنا والله على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء» رواه ابن ماجه (١).

(والدليل على موته ﷺ) من القرآن (قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ﴾) يا أيها الرسول ﴿مَيِّتٌ﴾، وقد مات وغُسل وكُفَّن وصُلِّي عليه ودُفِن ﷺ بالمدينة سنة ١١هـ.

﴿وَإِيَّاهُمْ﴾ أي: جميع الخلق ﴿مَمِّتُونَ﴾ مثلك، فالجميع سيموت حتماً.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ في أرض المحشر ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْضِعُونَ﴾ فيما تنازعتم فيه، يفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كلاً بعمله، والموت يجري على الأنبياء وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾* .

(١) سنن ابن ماجه رقم (٥) ٤/١ من حديث أبي الدرداء رضى الله عنه.

والناس إذا ماتوا يبعثون، والدليل قوله تعالى: ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

البعث
بعد الموت

(والناس إذا ماتوا يبعثون)، ليجازى كلاً بعمله، وليقتصر بعضهم من بعض حتى البهائم.

والإيمان بالبعث والنشور من القبور، من جملة الإيمان باليوم الآخر، فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بالبعث، بل الإيمان بالبعث هو معظم الإيمان باليوم الآخر، وهو الذي كان ينكره أهل الجاهلية.

(والدليل) على أن الناس يبعثون بعد الموت (قوله تعالى: ﴿مِنْهَا﴾) أي: من الأرض.

(﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾) أي: مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض.

(﴿وَفِيهَا﴾) أي: في الأرض (﴿نُعِيدُكُمْ﴾) إذا متم تصيرون إليها فتدفنون بها.

(﴿وَمِنْهَا﴾) أي: من الأرض (﴿نُخْرِجُكُمْ﴾) يوم البعث والحساب (﴿تَارَةً أُخْرَى﴾) أي: مرة (﴿أُخْرَى﴾) كقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

(و) دليل آخر على أن الناس يبعثون بعد موتهم (قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾)، أراد تعالى مبدأ خلق آدم وذريته من الأرض.

(﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾) أي: في الأرض إذا متم.

(﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾) من الأرض بعد البعث أحياء، ويعيدكم يوم القيامة كما بدأكم أول مرة.

وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم، والدليل قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

الحساب
على
الأعمال

(و) الخلق (بعد البعث) وقيامهم من قبورهم، (محاسبون) على دقيق الأعمال وجليلها، صغيرها وكبيرها كما قال سبحانه: ﴿يَبْزُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، وكل شيء مكتوب في كتاب ينشر في الحشر قال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُؤْتِنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، والميزان في الحشر ميزان حق وعدل، قال جل وعلا: ﴿وَنُضِعَ الْمَوْزِنَ الْقَسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾.

(و) بعد هذا الحساب فإن جميع الخلق (مجزيون بأعمالهم) إن كانت خيراً فخير، وإن كانت شراً فشر قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، وقال تعالى: ﴿لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾.

(والدليل) على أن الخلق يبعثون بعد موتهم، ويحاسبون على أعمالهم (قوله تعالى):

﴿لِيَجْزِيَ﴾ أي: سيجازي الله ﴿الَّذِينَ أَسْتَوُوا﴾ العمل من الشرك فما دونه، يجازيهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من إساءة.

﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة ربهم ووحدوه، وأحسنوا إلى خلقه، وأخلصوا له الأعمال، سوف يشبههم على أعمالهم ﴿بِالْحُسْنَى﴾ وهي: الجنة، بل ولهم الزيادة وهي النظر إلى وجهه الكريم كما قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، وقد فسر النبي ﷺ تلك الزيادة «بالنظر إلى وجه الله الكريم» رواه مسلم (١).

(١) صحيح مسلم رقم (١٨١) / ٤٨٩ / ١ من حديث صهيب رضي الله عنه.

.....

ومن حكمة الله في بعث الناس ومحاسبتهم، أنه لو لم يكن هناك جزاء ولا حساب، لظلم الناس بعضهم بعضاً، ولسلب بعضهم مال بعض، ولعمت الفوضى في الحياة، والذي يحجز الناس عن البغي والمعاصي هو تذكر الحساب والعقاب، ولما غفل الكفار عن الحساب تبادوا في الكفر والطغيان، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾* .

ومن كذب بالبعث كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .

كفر من كذب بالبعث
كفر من كذب بالبعث
وشأن البعث عند الله عظيم، فهو من أركان الإيمان (ومن كذب بالبعث كفر)؛ لتكذيبه الله ورسوله وإجماع المسلمين .

(والدليل) على كفر من أنكر البعث (قوله تعالى: ﴿زَعَمَ﴾) أي: ادعى وظن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ضلالاً منهم ﴿أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ للحساب والجزاء، وقد حكم الله بكفرهم، لإنكارهم البعث، فدل على أن إنكار البعث كفر، بل هو من أعظم كفر أهل الجاهلية، لهذا قال لنبيه ﷺ يا أيها الرسول: ﴿قُلْ﴾ لمنكري البعث: ﴿بَلَىٰ﴾ ستبعثون، واحلف لهم يا محمد يميناً بالله، قائلاً فيها: ﴿وَرَبِّي﴾ وخالقي ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ يوم القيامة للحساب .

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ وتجاوزون عليها .

﴿وَذَلِكَ﴾ أي: البعث بعد الموت ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل لا يعجزه، فهو سبحانه على كل شيء قدير ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ والذي قَدَرَ على النشأة الأولى، قادر على إنشاء الإنسان مرة أخرى، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ .

فإذا كان الإنسان معدوماً لم يوجد، ثم أوجده الله تعالى حين خلق آدم من طين، وذراويه من ماء مهين، ثم جعل هذا التناسل منه، فإنه لا يعجزه أن يعيدهم وهو الذي أبدعهم قال النبي ﷺ: «قال الله تعالى: كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد» رواه البخاري (١)* .

(١) رقم (٤٦٩٠) / ٤ / ١٩٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين، والدليل قوله تعالى :
﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ، وأولهم
نوح عليه السلام

(وأرسل الله جميع الرسل) من أولهم إلى آخرهم، كلهم يدعون إلى
عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه .
(مبشرين) مَنْ وَحَدَ اللَّهُ بِالْجَنَّةِ .
(ومنذرين) ومحذرين مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ .
(والدليل قوله تعالى : ﴿رُسُلًا﴾) أرسلناهم إلى الناس ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من
أطاعهم بالجنة، وأعلى الطاعات هي التوحيد .

وظيفة
الرسول

﴿وَمُنذِرِينَ﴾) من عصاهم من المشركين والعصاة من النار، وأعظم
الذنوب والعصيان هو الشرك، فلم يدع الرب خلقه يهيمنون في حيرة يبحثون
عن الحق، بل أرسل إليهم من يدلهم عليه، ولم يطالبهم بسوى الاتباع، وقد
لقي الأنبياء والرسل في سبيل دعوة الناس الابتلاء والإيذاء، فصبروا حتى
بلغوا رسالة ربهم .

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾) أي : قطعاً لحجج الناس
يوم القيامة، لئلا يقولوا: ما أرسلت إلينا رسولاً، وما أنزلت إلينا كتاباً،
فانقطعت حجة الخلق على الله بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإقامة الحجج
عليهم، وتبيين الحق لهم، وركز الفطر في قلوبهم، ولم يبق للمعتذر عذر لأن
الله أرسل الرسل تترى، رسول يخلف رسولاً، يبينون للناس أمر دينهم
ومراضى ربهم ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار، فمن كفر منهم بعد ذلك
فقد سلك طريق الشقاء .

(وأولهم) أي : أول الرسل (نوح عليه السلام)، وكان بين نوح وبين آدم عشرة
قرون، كلهم على الإسلام، فلما حدث الشرك بسبب الغلو في الصالحين
أرسل الله إليهم نوحاً، وهو أول رسول إلى أهل الأرض .

أول
الرسول
وآخرهم

وآخرهم محمد ﷺ، والدليل على أن أولهم نوح ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ .

(وآخرهم محمد ﷺ) ثبت ذلك بالكتاب والسنة والإجماع، والدليل على أن آخرهم محمد ﷺ من الكتاب قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ﴾، ومن السنة قوله ﷺ: «إنه لا نبي بعدي» متفق عليه^(١).

(والدليل على أن أولهم نوح ﷺ) من القرآن (قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾) يا أيها النبي محمد ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أول الرسل ﴿نُوحٍ﴾ ﷺ، ﴿وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد نوح، فهو أول رسول، وأول نذير عن الشرك، والدليل من السنة على أن أولهم نوح، ما ورد في حديث الشفاعة، أن الناس يأتون إلى آدم فيقول: «إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض» متفق عليه^(٢).

وأما عدد الأنبياء فقال أبو ذر رضي الله عنه: «قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير» رواه ابن حبان^(٣)، منهم من قص الله علينا أمره، ومنهم من لم يقصص علينا أمره، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾، فأقام الله تعالى الحجة، بإرسال الرسل وإنزال الكتب* .

(١) صحيح البخاري رقم (٣٢٦٨) ٣/١٢٧٣، وصحيح مسلم رقم (١٨٤٢) ٣/١٤٧١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري رقم (٣١٦٢) ٣/١٢١٥، وصحيح مسلم رقم (١٩٤) ٤/١٨٤ - ١٨٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح ابن حبان رقم (٣٦١) ٢/٧٦ - ٧٩ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وكلُّ أمةٍ بعث الله إليها رسولاً من نوح إلى محمد يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

(وكلُّ أمةٍ) أي: جماعة (بعث الله إليها رسولاً) يدعوهم إلى التوحيد ويحذرهم من الشرك.

ما هي
دعوة جميع
الرسل؟

بدءاً (من نوح) ﷺ، وهو أول رسول إلى أهل الأرض.

(إلى محمد) ﷺ وهو آخر الرسل وخاتمهم وأفضلهم وأكثرهم تابعاً.

وما من أمة من الأمم إلا وقد بعث الله فيهم رسولاً إقامة منه تعالى للحجة على عباده، وإيضاحاً للمحجة، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

(يأمرهم بعبادة الله وحده) فكل نبي يدعو قومه إلى هذا، وهو الذي بعثت به جميع الرسل، ودعوتهم كلهم واحدة وهي إفراد الله بالعبادة.

(وينهاهم عن عبادة الطاغوت)، والتبري منها ومن أهلها، فخلاصة جميع رسالات الرسل، هو التوحيد والتحذير من الشرك.

(والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾) وقوم (﴿رَسُولًا﴾) يأمرهم بتوحيد الله قائلاً لهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وأخلصوا له العبادة.

(﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾) بالكفر به، فأول شيء بدأت به الرسل أقوامهم هو التوحيد، وقد أخبر الله أن أول أمر بدأ به نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم من الرسل، أن قالوا لأقوامهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِوَابٌ﴾، وكما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

لماذا
الاهتمام
بالتوحيد؟

ومعرفتك عظمة التوحيد، تصرف همتك إليه، وإلى معرفته والعمل به

.....

غاية جهدك، وإلى معرفة ما يضاده، فيجب على العبد أن يهتم غاية الاهتمام بمعرفة أصل الدين، قبل الواجب من الفروع، كالزكاة والصلاة وغير ذلك، فلا تصح الصلاة ولا الزكاة قبل الأصل، فلا بد من معرفة أصل الدين، ثم معرفة فروعها، وفي حديث معاذ رضي الله عنه لما بعثه صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه، شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة» متفق عليه^(١)، وهذا يفيد أنهم إذا لم يعلموا التوحيد ولم يعملوا به، فلا يدعوهم للصلاة إن لم يطيعوه في الدخول في الإسلام، فإن الصلاة وغيرها من الأعمال لا تنفع بدون التوحيد، فإنه لا يستقيم بناء على غير أساس، ولا فرع على غير أصل، والأصل والأساس هو التوحيد، والصلاة وإن كانت هي عمود الإسلام فمع ذلك لم تفرض إلا بعد الأمر بالتوحيد بنحو عشر سنين.

ومما يبين أن التوحيد هو الأصل، أنه يوجد من يدخل الجنة ولو لم يصل ركعة واحدة، وذلك إذا اعتقد أن الله وحده المستحق للعبادة، وعمل به ومات متمسكاً به، كمن يسلم ثم يقتل شهيداً بعد إسلامه وقبل أن يحين عليه وقت صلاة، يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: «أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل مقنع بالحديد، فقال: يا رسول الله أقاتل وأسلم؟ قال: أسلم ثم قاتل، فأسلم ثم قاتل فقتل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عمل قليلاً وأجر كثيراً» متفق عليه^(٢).

والصلاة لا تنفع وحدها مع عدم التوحيد، وكذا لو زكى وصام، لأن أعماله هباء إذا لم يعرف التوحيد، ويعمل به، ويعتقده في قلبه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾، وبذلك يعرف

(١) صحيح البخاري رقم (١٣٩٥) / ١ / ٤٣٠، وصحيح مسلم رقم (١٩) / ١ / ٥٠.

(٢) صحيح البخاري رقم (٢٦٥٣) / ٣ / ١٠٣٤، وصحيح مسلم رقم (١٩٠٠) / ٣ / ١٥٠٩.

.....

عظم شأن أفراد الله بالعبادة، وما هلك من هلك إلا بترك العلم بالتوحيد، والعمل به، وقد دخل الشيطان على من دخل في باب الشرك، من آفة قولهم: يكفي في الإسلام النطق بالشهادتين، ويجب على العبد أن يعلم أن مجرد المعرفة والنطق بها دون العلم بمعناها والعمل بمقتضاها ودون الاحتراز من نواقضها لا تنفع صاحبها.

ومعرفة التوحيد والشرك في الأصل على سبيل الإجمال، سهل هين، من أهون ما يكون وأسهله إجمالاً، ففي زمن بعثة النبي ﷺ كانوا يعرفون التوحيد والشرك، فمن قال لا إله إلا الله، يترك الشرك ويعلم أنه باطل منافٍ لكلمة الإخلاص، ولهذا لما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد وقال لهم: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» رواه أحمد^(١)، قالوا: ﴿أَجْعَلُ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَجِدًّا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، وأما حين كثرت الشبهات، صعبت معرفة التوحيد والتخلص من ضده، وكثر النفاق، وصار الكثير يقول الشهادة ويعبد مع الله غيره، لأنه لا يعرف معناها ويظن أن معناها هو عبادة الله فقط، دون الكفر بالطاغوت، أو التلطف بها دون تحقيق معناها والعمل بمقتضاها*.

(١) المسند رقم (١٦٠٦٦) ٣/٤٩٢، ورقم (١٩٠٢٦) ٤/٣٤١ من حديث ربيعة بن عباد الديلي.

وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : «الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ» .

الكفر
بالطاغوت
والإيمان
بالله ركنا
التوحيد

(وافترض الله) أي: أوجب (على جميع العباد) من إنس و جن، وذكر وأنثى، عربي أو عجمي، حر أو عبد، (الكفر بالطاغوت) والتبرؤ من الآلهة وأهلها واعتقاد بطلانها وأنها لا تنفع ولا تضر، (والإيمان بالله) أي: إفراده بالعبادة وحده دون سواه .

ومن آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت، لا يسمى موحداً، ومن كفر بالطاغوت ولم يعبد الله، لا يسمى موحداً، إنما الموحد من جمع بين ركني التوحيد، وهما الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ ، فمن كفر بالطاغوت وآمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

تعريف
الطاغوت

(قال) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المشهور بـ (ابن القيم) الجوزية^(١) (- رحمه الله تعالى -) رحمة واسعة، وأسكنه أعلى جناته، قال في تعريف (الطاغوت)^(٢) هو: (ما تجاوز به العبد حده) أي: قدره الذي ينبغي له في الشرع، إذا فعل ذلك صار بخروجه منه وتجاوزه طاغوتاً، سواء كان هذا الطغيان، أو التعدي والتجاوز (من معبودٍ) مع الله، بأي نوع من أنواع العبادة . (أو) من (متبوع) في معاصي الله ويدخل في ذلك علماء السوء الداعين إلى الكفر والضلال، ويدخل كذلك الكهان والسحرة الذين يتبعون فيما يقولون . (أو) من (مطاع) من دون الله في التحليل والتحریم، بأن يحرم ما أحل الله أو يحل ما حرم الله، ثم قال ابن القيم - رحمه الله - : «فإذا تأملت طواغيت العالم، فإذا هي لا تخرج عن هذه الثلاثة»^(٣) * .

(٢) ذكره في إعلام الموقعين ١/ ٥٠ .

(١) المتوفى سنة ٧٥١ هـ .

(٣) إعلام الموقعين ١/ ٥٠ .

والطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عبد وهو راضٍ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئاً من علم الغيب،

فإذا عرفت ما بيّنه وأوضحه ابن القيم - رحمه الله - في تعريف الطاغوت، تبين لك أن (الطواغيت) من الخلق (كثيرون) جداً، وذلك أن كل من تجاوز حده في الشرع، صار بخروجه منه وتجاوزه طاغوتاً.

(ورؤوسهم) أي: زعمائهم بالاستقراء والتأمل (خمسة):

أولهم: (إبليس) الشيطان الرجيم، وهو رأسهم الأكبر، فقد تجاوز ما أمر الله به وعصاه، وارتكب ما نهاه عنه، وهو الداعي إلى عبادة غير الله، فهو أول الطواغيت قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وقد (لعنه الله) فهو مطرود مبعّد عن رحمة الله كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

(و) الثاني: (من عبد وهو راضٍ) بتلك العبادة الصادرة من العابد بأي نوع من أنواعها، فهو طاغوت من رؤساء الطواغيت وكبرائهم، سواء عبد في حياته، أو بعد مماته إذا مات وهو راضٍ بذلك، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

(و) الثالث من الطواغيت: (من دعا الناس إلى عبادة نفسه)، كفرعون وأهل الضلال الذين غرضهم العلو في الأرض والفساد، واتخاذ الناس لهم أرباباً من دون الله، أو الإشراف بهم في حياتهم أو بعد مماتهم، كما قال تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، فمن دعا الناس إلى عبادة نفسه وإن لم يعبدوه فإنه من رؤوس الطواغيت، سواء أجابوه إلى ما دعاهم إليه أم لم يجيبوه، لأن العبادة لا تصرف إلا لله، ومن دعا إلى صرف العبادة عن الله إلى نفسه فقد طغى وأتى بأعظم البهتان.

(ومن ادعى شيئاً من علم الغيب) كما يزعمه الكاهن ونحوه، فهو الرأس

رؤوس
الطواغيت

الكهان

ومن حكم بغير ما أنزل الله،

الرابع من الطواغيت، وما يزعمه كذب وخديعة على عامة الناس، قال سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، فإن علم الغيب لا يعلمه إلا الله، لا تعلمه الملائكة، والأنبياء، ولا من دونهم من الجن أو السحرة أو الكهان، وهذا من تمام إحكام الخلق، وكمال الهيمنة، وعظمة الربوبية قال سبحانه: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وقال سبحانه: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الحكم
بغير ما
أنزل الله

(و) الخامس من الطواغيت: (من حكم بغير ما أنزل الله) كمن يحكم القوانين الجاهلية، أو بشيء من وضع البشر، وهو ليس من الشرع قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾، وقال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، فالله عز وجل هو الذي خلق الخلق، وهو أعلم بأحوالهم وأفعالهم، وهو الذي أنزل الأحكام العادلة التي تفصل في حكوماتهم ففرض على جميع الخلق أن يتحاكموا إلى شرعه* .

والدليل قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ
بِالْطَّغُوتِ

لا إكراه
في الدين

(والدليل) على أن الله افترض على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله (قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾) أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام، لكماله وقبول الفطرة له، ولأنه بيّن واضح جلي في دلائله وبراهينه، لا يحتاج أن يُكره أحداً على الدخول فيه، فمن هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل على بيته، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً.

ولا منافاة بين هذه الآية والآيات الدالة على وجوب الجهاد، لأن الجهاد مشروع لقتال كل من وقف في وجه الإسلام، أما أنه يلزم ويكره على الدخول في الإسلام فلا، لأنه ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾) أي: ظهر وتميز الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، والهدى من الضلال، بالآيات والبراهين الدالة على ذلك، فإذا تبين الرشد من الغي فإن كل نفس سليمة لا بد أن تختار الرشد على الغي.

(﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّغُوتِ﴾) بخلع الأنداد والأوثان ويتبرأ منها ومن أهلها، فقد حقق الركن الأول من ركني التوحيد قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -: «صفة الكفر بالطاغوت أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها وتبغضها، وتكفر أهلها وتعاديهم»^(١). والكفر بالطاغوت شرط في قبول العبادات قال ابن القيم - رحمه الله -: «لا يكفي أن يعبد الله ويحبه ويتوكل عليه، وينيب إليه ويخافه ويرجوه، حتى يترك عبادة غيره والتوكل عليه والإنابة إليه وخوفه ورجاءه، ويبغض ذلك»^(٢).

صفة الكفر
بالطاغوت

(١) مجموعة التوحيد ص ٢٦٠.

(٢) شفاء العليل ص ٣٤٦.

وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ . وهذا معنى : لا إله إلا الله ،

معنى
الإيمان
بالله

(﴿و﴾) إن من (﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾) ويفرده بالعبادة ويخلص له جميع الأعمال، فقد حقق الركن الثاني من ركني التوحيد، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - : «ومعنى الإيمان بالله : أن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون من سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم»^(١).

فمن حقق ركني التوحيد وهما الكفر بالطاغوت والإيمان بالله (﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ﴾) أي : تمسك (﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾) وهي : التوحيد، والعروة هي : موضع شد اليد، والثقى هي : القوية .

(﴿لَا أَنْفِصَامَ لَهَا﴾) أي : لا تنفك ولا تنفصم، أي : قد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم، فمن تمسك بالتوحيد وكفر بالطاغوت وصل الجنة بكل حال .

(وهذا معنى لا إله إلا الله) فإن معنى (لا إله) كفر بالطاغوت، و(إلا الله) إيمان بالله واستسلام لأمره وشرعه، وبدأ بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله، لأن من كمال الشيء إزالة الموانع قبل وجود الثواب* .

(١) مجموعة التوحيد ص ٢٦٠ .

وفي الحديث: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة،

(وفي الحديث) الطويل الذي رواه الترمذي^(١) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: «لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخبيثة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١١) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر كله، وعموده، وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، وقال: كفّ عليك هذا، فقلت يا نبي الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!».

(رأس الأمر) يعني: رأس الدين الذي جاء به النبي ﷺ هو (الإسلام) - يعني: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله -، فمن التزم بها دخل الإسلام.

وأراد المصنف - رحمه الله - الاستدلال بهذا الحديث على أن لكل شيء رأساً، فرأس الأمر الذي جاء به محمد ﷺ الإسلام، فمن ادعى الاستجابة لله ورسوله وهو لم يقبل الحق ويدخل في الدين فقد كذب وافتري.

(وعموده) أي: الدين (الصلاة) هذا فيه عظم شأن الصلاة، وأنها من

(١) رقم (٢٦١٦) ١١/٥ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الدين بهذا المكان العظيم، وهو أن مكانها من الدين مكان العمود من الفسطاط^(١)، فكما أن عمود الفسطاط إذا سقطت سقطت الفسطاط، فكذلك إذا فقدت الصلاة، سقط دين تاركها ولم يبق له دين، قال ابن رجب - رحمه الله -: «وأما قوام الدين الذي يقوم به الدين كما يقوم الفسطاط على عموده فهي الصلاة»^(٢)، لأن مجرد ترك الصلاة كفر مخرج من الملة.

وهذا الحديث من الأدلة على أن من ترك الصلاة كسلاً فهو كافر، ومن الأدلة أيضاً على أن من تركها كفر قوله عليه الصلاة والسلام: «بين الرجل وبين الشرك والكفر، ترك الصلاة» رواه مسلم^(٣)، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة» رواه مالك والدارقطني^(٤)، وهي من أحب الأعمال إلى الله، وأول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة، وهي التي فرضها الله تعالى بنفسه ليلة المعراج فلم يجعل فيها بينه وبين رسوله محمد صلى الله عليه وسلم واسطة، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله: «إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع» رواه مالك^(٥)، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتورث الخشوع، والخشية من الله*.

(١) أي: الخيمة، والفسطاط بيت من شعر. لسان العرب ١٢٦/٩، مختار الصحاح ص ٢١١.

(٢) جامع العلوم والحكم ١/٢٧٤.

(٣) صحيح مسلم رقم (٨٢) ١/ ٨٨ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) موطأ مالك ١/٣٩ - ٤٠، وسنن الدارقطني ٢/٥٢.

(٥) موطأ مالك رقم (٦) ٦/١.

وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله .

ذروة
الدين
في الجهاد

(وذروة سنامه) ذروة كل شيء أعلاه وأرفعه، والسنام: هو أعلى ظهر البعير، ومعنى ذروة سنام البعير: أي أعلى جزء في سنامه، وهكذا الدين ذروة سنامه وعلو أمره ورفعته وعزته هو في (الجهاد في سبيل الله)، قال ابن رجب - رحمه الله -: «وهذا يدل على أنه أفضل الأعمال بعد الفرائض»^(١)، لأن به صيانة الدين وحمايته، وبه دعوة الناس إلى دين الله وإلزامهم بالحق، فهو ذروة سنامه من جهة ما تضمنه من حماية الدين والدعوة إلى الحق .

فالجهاد هو أعلى وأرفع خصال الدين، قال ابن دقيق العيد - رحمه الله -: «الجهاد لا يقاومه شيء من الأعمال»^(٢)، وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد قال: «لا أجده، قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟ قال: ومن يستطيع ذلك؟!» رواه البخاري^(٣). وذلك لأن فيه بذل المهج التي ليس شيء أنفس منها، فيبذل مهجته، ويبذل ماله لظهور الدين وتأييده، ولما فيه من جهاد الكفار والمنافقين، فبذلك استحق أن يكون من الدين بهذه المكانة قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْرِيرِ نَفْسِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾، وقال جلّ وعلا: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾﴾، وقد جاءت نصوص عديدة في فضائله وما أعد الله للمجاهدين من عظيم الثواب، كقوله ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في

(١) جامع العلوم والحكم ١٤٦/٢ .

(٢) شرح الأربعين لابن دقيق العيد ص ١٦٩ .

(٣) صحيح البخاري رقم (٢٦٣٣) ١٠٢٦/٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

.....

سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة» متفق عليه^(١)، وقوله ﷺ: «غدوة في سبيل الله أو روحة، خير من الدنيا وما فيها» متفق عليه^(٢).

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «والجهاد عمل مشكور لصاحبه في الظاهر لا محالة، وهو مع النية الحسنة مشكور ظاهراً وباطناً، ووجه شكره نصره للسنة والدين»^(٣).

وقد أعد الله للمجاهدين درجات عالية في جنات النعيم، قال ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» رواه البخاري^(٤).

والجهاد ركن من أركان الدين، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله»^(٥)، وهو برهان إيمان العبد إذا صدق فيه مع الله، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «الصدق في الإيمان لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله»^(٦).

(١) صحيح البخاري رقم (٢٦٣٥) ٣/١٠٢٧، وصحيح مسلم رقم (١٨٧٨) ٣/١٤٩٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري رقم (٦١٩٩) ٥/٢٤٠١ من حديث أبي أيوب رضي الله عنه، وصحيح مسلم رقم (١٨٨٣) ٣/١٥٠٠ من حديث أم حارثة رضي الله عنها.

(٣) الفتاوى ٩/٤.

(٤) صحيح البخاري رقم (٢٦٣٧) ٣/١٠٢٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) الفتاوى ٣٠٠/١٠.

(٦) الفتاوى ٢١٢/٣.

والله أعلم، وصلى الله على محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم.

ثم ختم المصنف - رحمه الله - هذا المصنّف العظيم بردّ العلم إلى مَنْ أحاط بكلّ شيءٍ علماً فقال: (والله أعلم).

ثم صلى على خير خلقه بقوله: (وصلى الله) أي: اللهم اثن (على) نبينا (محمدٍ) في الملائ الأعلی، (و) اثن أيضاً (على آله) وهم أتباعه على ملته، (وصحبه) أي: صحابته الكرام، (وسلم) عليهم، أي: اجعلهم سالمين من الآفات والشور والمكاره.

نسأل الله أن يجعلنا من عباده الموحدين، وأن يحشرنا مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً*.

* * *

الفهرس

٧	المقدمة
٧	موضوع ثلاثة الأصول
٧	الشيخ محمد بن عبد الوهاب يلقن الطلبة والعامه ثلاثة الأصول
٨	رسائل صدرت بها ثلاثة الأصول
٨	الولاية يأمرن العامة بتعلمها وفهمها
٩	واجب أئمة المساجد تعليم المصلين ثلاثة الأصول
١٠	شرح البسمة
١٠	أربع مسائل واجب تعلمها
١١	المسألة الأولى : العلم
١٢	معرفة الله
١٢	معرفة نبيه ﷺ
١٢	معرفة دين الإسلام
١٤	طلب العلم
١٦	بماذا ينصح العلماء؟
١٧	العلم الشرعي هو الممدوح في النصوص
١٨	المسألة الثانية : العمل بالعلم

٢٠	المسألة الثالثة : الدعوة إلى الله
٢٠	أعلى مراتب الدعوة
٢١	حاجة الناس إلى الدعوة
٢٣	المسألة الرابعة : الصبر على أذية الناس في الدعوة
٢٣	كيف تنال الإمامة في الدين؟
٢٥	عاقبة الصبر
٢٧	دليل المسائل الأربع
٢٩	منزلة سورة العصر
٣٠	العلم قبل العمل
٣٢	ثلاث مسائل يجب تعلمها والعمل بها
٣٢	المسألة الأولى : في توحيد الربوبية
٣٥	المسألة الثانية : في توحيد الألوهية
٣٧	المسألة الثالثة : في الولاء والبراء
٣٧	دليل الولاء والبراء
٣٩	جزاء من حقق الولاء والبراء
٤٠	أهمية الولاء والبراء
٤٢	محبة المشركين تنقسم إلى قسمين
٤٢	التولي
٤٢	الموالاتة
٤٢	الفرق بين الموالاتة والتولي
٤٤	صور من موالاتة وتولي المشركين

٤٦	الولاء والبراء مع أهل الفسق
٤٧	ما هي الحنيفية؟
٤٨	الأمر الواجب على جميع الناس
٥٠	أعظم أمر من السماء
٥٠	أهمية التوحيد
٥٠	أقسام التوحيد
٥٢	أعظم ذنب في الأرض
٥٢	تعريف الشرك
٥٤	الأصول الثلاثة التي يجب معرفتها
٥٤	أهميتها
٥٦	الأصل الأول: معرفة العبد ربه
٥٨	الدلائل التي تعرف بها ربك
٦١	الدليل على بعض آيات الله
٦٣	الرب هو المعبود وحده دون من سواه
٦٦	فضل تنوع العبادات
٦٦	أجل أنواع العبادات
٦٧	أنواع من العبادات
٦٩	حكم من صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله
٧٠	الدليل على كفره
٧١	الدعاء: عبادة
٧٣	الخوف من الله عبادة

٧٤ فضل الخوف من الله
٧٥ أركان العبادة
٧٦ أقسام الخوف
٧٧ كيف تنزع خوفك من البشر؟
٧٨ الرجاء: عبادة
٧٨ أنواع الرجاء
٧٩ محركات القلوب
٨٠ متى يقوى الرجاء؟
٨٢ دليل أن الرجاء عبادة
٨٢ الشرك في الرجاء
٨٣ رجاء غير الله مذلة
٨٥ التوكل: عبادة
٨٥ منزلة التوكل
٨٥ حقيقة التوكل
٨٧ توكل الاضطرار وتوكل الاختيار
٨٧ أقسام التوكل
٨٨ متى يقوى التوكل؟
٨٩ التوكل عبادة قلبية لا يصرف لغير الله
٨٩ جزاء المتوكل
٩٠ التوكل الصادق
٩٢ الرغبة عبادة، والفرق بينها وبين الرجاء

٩٢	الرغبة عبادة
٩٣	الخشوع عبادة لا يصرف إلا لله
٩٣	دليل أن الرغبة والرغبة والخشوع عبادة
٩٥	الخشية: عبادة
٩٥	دليل أن الخشية عبادة لله
٩٥	ثمرة الخشية
٩٦	العالم حقاً
٩٦	العزة في الخشية
٩٧	الإنبابة: عبادة
٩٧	الفرق بين الإنبابة والتوبة
٩٨	الإنبابة دأب الأنبياء
٩٨	ثمرات الإنبابة
٩٩	تفاوت العباد في الإنبابة
١٠٠	الاستعانة: عبادة
١٠١	كيفية الوصول إليها
١٠٢	الاستعانة بالمخلوق
١٠٣	الاستعانة: عبادة
١٠٣	دليل أن الاستعانة عبادة
١٠٤	الاستعانة أهم من النفس والطعام
١٠٥	الاستعانة بالمخلوق
١٠٦	الاستغانة: عبادة

١٠٦	الفرق بين الاستغائة والدعاء والاستعاذة
١٠٧	استغائة شركية
١٠٧	استغائة جائزة
١٠٨	الذبح : عبادة
١٠٩	صور من الذبح الشركي
١١٠	النذر : عبادة
١١٠	النذر أعظم من الحلف
١١٢	الأصل الثاني من الأصول الثلاثة : معرفة دين الإسلام بالأدلة
١١٣	تعريف الإسلام
١١٤	رأس الإسلام وضداه
١١٤	الطاعة من الإسلام
١١٦	لا إسلام بلا براء
١١٦	الأسس التي يقوم عليها الإسلام
١١٧	وجوب محبة المسلم لدينه
١١٨	مراتب الدين
١١٨	العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان
١٢٠	المرتبة الأولى : الإسلام
١٢٠	أركان المرتبة الأولى
١٢٠	معنى الشهادة
١٢١	العلاقة بين الشهادتين
١٢٣	دليل شهادة أن لا إله إلا الله

١٢٤	معنى أن لا إله إلا الله
١٢٤	المشركون مقرون بتوحيد الربوبية
١٢٦	ركنا كلمة التوحيد
١٢٦	شروط كلمة التوحيد
١٣٢	تفسير شهادة أن لا إله إلا الله
١٣٣	من تلفظ بالشهادة فقط لا يدخل الجنة
١٣٥	دليل شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ
١٣٧	معناها
١٣٧	المتابعة للنبي ﷺ تعظم التوحيد في النفس
١٣٩	دليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد
١٣٩	دليل الصيام
١٤٠	دليل الحج
١٤١	المرتبة الثانية: الإيمان
١٤١	شعب الإيمان
١٤٢	الإيمان وصف أعلى من الإسلام
١٤٤	أركان الإيمان
١٤٧	مراتب القدر
١٤٩	أدلة أركان الإيمان
١٥٠	دليل القدر
١٥١	المرتبة الثالثة: الإحسان
١٥١	دوائر الدين

١٥٢	أهل الإحسان
١٥٤	ركن الإحسان
١٥٤	الدليل على مرتبة الإحسان
١٥٦	دليل مراتب الدين الثلاث من السنة
١٦٢	علامات الساعة
١٦٣	أهمية حديث جبريل
١٦٥	الأصل الثالث: معرفة النبي ﷺ
١٦٥	أهمية معرفته ﷺ
١٦٦	نسبه ﷺ
١٦٨	ولادته ﷺ
١٨٦	عمره ﷺ
١٦٩	نبوته ورسالته ﷺ
١٦٩	بلده
١٧٠	الحكمة من بعثته ﷺ
١٧٠	الدليل على ذلك
١٧٢	تفسير دليل الحكمة من بعثته ﷺ
١٧٤	زمن دعوته ﷺ للتوحيد
١٧٤	الإسراء والمعراج
١٧٥	أين فرضت الصلاة؟
١٧٥	المدة التي صلاها النبي ﷺ في مكة
١٧٦	تعريف الهجرة

١٧٦ حكمها
١٧٨ استمرارها إلى قيام الساعة
١٧٨ دليل وجوبها من القرآن
١٨١ حكم السفر للخارج
١٨١ دليل آخر من القرآن على وجوب الهجرة
١٨٢ دليل وجوب الهجرة من السنة
١٨٤ متى شرعت بقية الشرائع؟
١٨٤ مدة دعوته ﷺ لها
١٨٥ متى توفي ﷺ؟
١٨٥ ما جاء به الدين
١٨٦ الخير الذي جاء به النبي ﷺ
١٨٦ الشر الذي حذر منه
١٨٨ عموم بعثة النبي ﷺ إلى كافة الناس
١٨٨ الدليل على ذلك
١٩٠ كمال الدين
١٩١ تمام النعمة
١٩١ عمل مردود
١٩٣ نبينا ﷺ قد مات
١٩٤ البعث بعد الموت
١٩٥ الحساب على الأعمال
١٩٧ كفر من كذب بالبعث

١٩٨	وظيفة الرسل
١٩٨	أول الرسل وآخرهم
٢٠٠	ما هي دعوة جميع الرسل؟
٢٠٠	لماذا الاهتمام بالتوحيد؟
٢٠١	الصلاة لا تنفع مع عدم التوحيد
٢٠٣	الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ركنا التوحيد
٢٠٣	تعريف الطاغوت
٢٠٤	رؤوس الطواغيت
٢٠٤	الكهان
٢٠٥	الحكم بغير ما أنزل الله
٢٠٦	لا إكراه في الدين
٢٠٦	صفة الكفر بالطاغوت
٢٠٧	معنى الإيمان بالله
٢٠٨	الإسلام رأس الدين
٢٠٨	عمود الدين
٢١٠	ذروة الدين في الجهاد
٢١٢	الخاتمة
٢١٣	الفهرس

للتوزيع

هاتف : ٠٥٠٥٤٤٣٢٤٨

ISBN 978-603-00-0037-1



9 786030 000371